حسن الأمين

قِيَمٌ خالِدَة

في التَاريخ وَالأدبْ

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع

قِيَمٌ خالدة

في التاريخ والأدب

الجزء الاول

بقلم

حسن الأمين

١٣٩٤ — ١٩٧٤



دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص.ب ٩٥٨٤

بسم الله الرحمان الرحيم

هذه بحوث نشرت في الصحف العربية في اوقات متباينة وظروف متباعدة ، جمع ما بينها انها من تاريخ هذه الامة في الصميم سواء كانت بحوثا في التاريخ او بحوثا في الادب . ولم اشا ان افصل فيها بين ما هو تاريخي بحت او ادبي بحت ليقيني بارتباط الاثنين وتمازج النوعين .

وبعد ان نشرتها فصولا متفرقة ، رايت ان اؤلف بينها في اضمامة واحدة ، اذا تنوعت اغصانها وتلونت افنانها ، فستظل من روض متكامل وحقل متماسك ، لا يعدو تاريخ العرب وادب العرب . وحسبي بالعرب محتدا يمد بكل كريم ويرفد بكل طيب .

وليس من شان الكاتب ان يرضي كل الميول ، ويوافق كل المناحي . وليس من أمره ان يمازج بين تضارب الاهواء وتشاكس الآراء . ولكن من شانه ان يكون مخلصا فيما يقول . وهذا ما احسبني كنته ، وما اعلمني غشته .

فالى المخلصين وحدهم اهدي هذه الصفحات وكل ما كتبت وما سوف اكتب .

بيروت　　　　حسن الامين

هذه اللغة العربية ((١))

هذه اللغة العربيـــة المظلومة التـــي تهاجم بلا هوادة وتهجا بلا رفق . . . هذه اللغـــة التـــى ينســـى المهاجمـــون كل جمالاتها ، ولا ينكرون الا ان فيها قواعد صعبة تدق على افهامهم وتعيـــى بها افكارهم ، والا ان فيها عامية وفصحى وهم يريدونها عاميـــة بلا فصحـــى !

هذه اللغة التـــي حملـــت لنا احـــدى الصحف، تحقيقـــا عنهـــا من احد « الدكاترة » ، تحقيقا لا شك ابدا بـــان الدكتور كان مخلصا فيه ، وان لم يكن مصيبا . . . واذا كانت اللغة قد منيـــت بالقادحيـــن ، فهـــي قد اصيبت ببعض المادحين ، فكل من فكر في امر من امورها كان عندهم مأجورا هدامـــا . . . اما ان فيمـــن هاجموها مأجورين هداميـــن فهذا حق كل الحق ، واما ان فيمن نقدوها مخلصين بنائـــين فهذا ايضا حق كل الحق، ، ونحن لن نأخذ انفسنا الا بالدفاع الذي نؤمن به ونعتقده .

اول ما يطالعك من هذه الاراء هو القول بازدواجيـــة اللغـــة العربيـــة وان فيها فصحـــى وعامية ، بل يكاد يقال ان فيها لغتيـــن . . . وهذا المأخذ الذي يهول به المهاجمون تهويلا عجيبا ، ويصخبون به صخبا شديدا ، هو اهون من ذلك

---

١ كانت هذه المقالة ردا على بعض من هاجم اللغة العربية .

واقل خطرا ... فليس العجيب ان يكون في اللغة العربية عامية وفصحى ، وان يكون بينهما هذا الفارق ، بل العجيب هو صمود هذه اللغة امام الاستعمار والفتح ، وبقاؤها حية الى يوم الناس هذا ... العجيب هو ان اللغة العربية لم يكن شانها شان اللغات البائدة ، ممن لم يبق منها الا آثار ،كالسريانية وغير السريانية ، بل ظلت لغة الملايين تتدفق بالادب العريق والشعر الرقيق !

ان اللغة التي فقدت سلطانها ، وعنت للفاتحين ستة قرون او تزيد ، لا يرتفع لها فيها علم ، ولا يهدر فيها لها صوت ، ولا يرف لها فيها نغم ... ان اللغة التي حكمها المتغلبون الفاتحون حكم المجتاح الغاصب ، الذي يرى فيها شبح المقاومة وخيال الانتفاض ، حكموها قرونا حكما لا رحمة فيه ولا لين ، حتى اذا خيل للناس انه لن يبقى فيها نفس يتردد ولا حركة تتجدد ، خرجت من الظلام القاتم كأتم ما تكون بريقا واشعاعا !

اتعجبون ان يكون في اللغة العربية فصحى وعامية ، وقد مزق الفتح اقطارها ، وحجز بين ديارها ، فاصبح العراقي المحكوم من الانكليز يسمى مثلا المنضدة « ميز » والشامي المحكوم من الفرنسيين يسميها « طاولة » !

ان النتيجة الحتمية لما نال العرب من اضطهاد ، وما صارت اليه اقطارهم من تشتيت ، هو ان تنشأ فيها « العاميات » المحلية التي تتباعد تباعدا قويا ، كما ان النتيجة الحتمية لما صارت اليه حال العرب اليوم من استقلال وتحرر ، ولما ستصير اليه في الغد من تجمع

وتوحد ، ان تضيق الشقة بين العامية والفصحى ، وان تظل تضيق وتضيق حتى تغدو خيطا دقيقا لا تخلو من مثله لغة ولا يشذ لسان !

ان النتيجة الحتمية لانتشار الصحافة والمذياع ، ولتقدم الثقافة والتعليم ، هي ان يأتي يوم يصبح فيه التفاوت بين اللهجات العربية تفاوتا جزئيا يقوم على نوع من اللفظ وطريقة في اخراج الحروف ... خذ عاميين جاهليين من قطرين عربيين مختلفين ، عاميين من بقايا الاستعباد وفلول الاستعمار ، خذ هذين العاميين واجعلهما يتفاهمان ، فانا معك بانهما يكادان لا يبينان في بعض ما يؤديان من قول ، وما يريدان من كلام ... ولكن خذ شابين مثقفين من قطرين عربيين مختلفين ، تر ان ليس في لهجة كل منهما ما يباعد بينها وبين ان يفهمها الاخر ، ذلك انهما قد دنوا من الفصحى ونأت بهما الثقافة عن العامية .

لم تعد الالفاظ الجديدة تؤخذ عن طريق الحاكمين الغرباء ، فيقول العراقي لسائق السيارة « دريفر » ويقولها الشامي « شوفير » ، بل انها تؤخذ من الصحافة ومن المذياع ، فكل البلاد العربية من طنجة الى مسقط تقول اليوم بعامياتها وفصحاها : القنبلة الذرية ، وقاذفات القنابل ، والنفاثات ، والتأميم ، والقصف الجوي ، وغيرها من الكلمات المستحدثة الجديدة ، ولم يعد في البلاد العربية من لا يقول : سيارة ، وطيارة ، وقطار .

ان الصحافة والثقافة والمذياع ، وان التقارب والتعارف والاجتماع ، هي التي ستمحو ازدواجية اللغة العربية

المزعومة ، وهــي التــي لن تبقــي من كل هذا الازدواج الا بقايا نجــد امثالها في كل لغة .

وبعد ازدواجيــة اللغــة يطالمونك بامر قواعد اللغة ويستشهد بعضهم علــى ذلك بجملة « ان الطقس جميــل » ويرى ان كلمة الطقس هــي مبتدأ منصوب ، لان الطقس هو موضوع الكلام ، فهو الاساس اذن ... هو مبتدأ ، ولكنه مبتدأ منصوب ، ووجه نصبه هو دخول هذه الاداة للتوكيد ... يقول هذا القول ، ويعدها من مشاكل اللغة ، ويتخذها دليلا لدعم رايه في الهجوم علــى القواعد العربية !

وكنت اود لو انه استشهد بغير هذا الكلام ، فكيف فاته ان هذا الذي يقوله هــو عين ما تقوله كتب النحو ، من كتاب سيبويه الــى احدث كتاب صدر في هذه السنة .

ماذا قال النحاة عــن « ان » ، نحاة عصر سيبويه ، ونحاة عصر القائل ... انهم يقولون عنها وعن اخواتها انها تنصب المبتدأ وترفع الخبر وهذا كل عملها ... وماذا من جديد في قول المعتــرض ؟ انهم يقول صراحة كما قال : ان الطقس مبتدأ ولكنه منصوب ، ووجه نصبه دخول هذه الاداة عليــه للتوكيــد ... وكل جريرتهم انهم سموا هذا المبتدأ المنصوب « اسم ان » تمييزا له عــن المبتدأ المرفوع ، انهم لم ينكروا انه مبتدأ بدليل انهم قالوا : « ان تنصب المبتدأ » اذن فهــو عندهم مبتدأ ولكنه مبتدأ منصوب !

ويقول ، او بالاحرى يقال عــن لسانه : « ترى الا نستطيــع ان نعلم العربيــة بطريقة ترسخ في عقول الاولاد ويميلون اليها ، عوضا عــن ان ينفروا ويبكوا ويلعنــوا

سيبويه ، بدلا من ان يترحموا عليه ويرحموه ؟ » ونقــول لقد كنا اولادا ، وكان الملايين غيرنا اولادا ، وتعلمنا اللغـة العربيــة ، ورسخت في عقولنا ، وملنا اليها ، وترحمنا على سيبويه ورحمناه . اننا لم ننفر منها ولم نبك ابدا ... ومـا ذنب اللغة اذا اساء تعليمها بعض المعلميـن ، او ضــاق عــن فهمها بعض المتعلميــن ؟

واذا كانت ــ كمــا يقول الناقل لكلام المعترض ــ اذا كانت هدى « ابنة الدكتور الحلوة المهضومة تدمع عيناهـا الحلوتــان ، كلما اخذت فرضا في الاعراب ، فتأتــي الــى ابيها مولولة : بابا دخيلك ساعدنــي عندنا « كواعد » ومش فاهمــي شــي » ..اذا كانت هدى « لا تستطيع مجاراة ألكسائي والفراء والاخفش » ــ كما يقول الكاتب ــ اذا كانت هدى كذلك ، فهل يجوز ان نحكم علــى النحو بالموت ، اكراما لعينيها الحلوتيــن ، لئلا تدمعا فرقا من القواعــد ... وما دامت هدى لا تستطيــع ان تلفظ القاف من كلمة « قواعد » فما علينا اذن ، الا ان نلغي القاف من اللغة ونحل محلهـا الكـــاف !

لقد كنت احب للكاتب ان يعالج الموضوع معالجة جدية صارمة ، ولم اكن احب له ان يقحم ، في موضوع خطــير كهذا الموضوع ، مثل هذا الهزل المرير !

واما الثالثة التي لا ينون يثيرونها فهــي مســألــة الخط العربــي الجميل ... انهم ينسون كل مزايا هذا الخط ولا يخطر لهم الا الحرف اللاتينــي ... ينسون ان الحرف اللاتيني ليس هو كل شيء في هذه الدنيا العريضة، وان الامم

التـــي لا تأخذ به هـــي اكثر عديدا واوسع حدودا من الامم التـــي تأخذ به .

وما اوهـــى الحجة التي ينادون بها للحرف اللاتيني من ان علينـــا ان نفهم اولا لنستطيـــع القراءة ... واني اسأل الكاتب : اهو جاد في هذا القول ؟.. احقا يضيق فهمه وهو يقرأ ثم يتوقف حتـــى يفهم فيعاود القراءة !.. انـــي اسأله كم مرة يحدث له ذلك وهـــو يقرأ كتابا من الدفة الى الدفة؟.. اهو متوقف عند كل كلمة متردد في كل عبارة ؟.. احقا يجـــد في ذلك مشكلـــة ؟

اما الامر الذي نقر الكاتب عليه ــ وان اخذناه علـــى غير ما يأخذه ــ فهو قوله : فلغتنا لصيقة بالعاطفة والديـــن والتـــاريـــخ والقوميـــة .

اجل والله ، اجل وذمة العرب ... ان لغتنا لصيقة بكل ذلك ، وستظل لصيقـــة بكل ذلك ابدا . علـــى عكـــس ما يتنبأ لها الكاتـــب !..

واما ان هذه النواحـــي الفكرية تـــرى بعين القلب لا بعيـــن العقل ، فاننا نخالفه فيه ونقول له : انها تـــرى بكلا العينيـــن ... ان لها عينا تشع من القلب ، وعينا تشع من العقل ، وحسبها عيناها المشعتان مصباحا في هذا الديجور !

معركة عين جالوت « ١ »

لا احسب ان امة نكبت بمثل ما نكبت به هذه الامة في الغزو المغولي الذي بدأه جنكيز خان واكمله هولاكو . ولا احسب ان شعبا استهدف لمثل ما استهدفت له الشعوب التي جاءت على طريق هؤلاء الغزاة الراعبين ، الذين تجاوزوا كل حد في القتل والتدمير والغدر والاباحة ، والذين انسوا كل ما سطره التاريخ من اهوال .

فلم تكن غايتهم توسيع ملك وحكم شعوب وامتلاك بلاد ، مما يمكن ان يكون غاية كل فاتح مجتاح ، ولا كان الدافع حب السيطرة والتحكم والاغتناء . بل كان الدافع حقد الوثنية على التوحيد ، وكره الجهل والعماية للعلم والهدى .

ومن هنا لم ينفع الناس مقاومة ولا تسليم ، ولم يجدهم امان ولا ايمان ، فالمدافعون المهزومون يبادون والمصالحون المستأمنون يقتلون ، ثم بعد كل ذلك احراق للكتب واستئصال للعلماء .

ومضى هولاكو على هذا السبيل ، ودمر ايران وقوض العراق ، ثم نفذ الى الشام مستهدفا مصر لتعم

---

١ ـ تقع عين جالوت في فلسطين بين بيسان ونابلس وحدثت المعركة في رمضان السنة ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م .

كارثتـــه وتطفـــى مصيبته .

وبينمـــا هو يهم بالخطوة الجديدة اذ بلغه نعـــي اخيه ومليكـــه (منكوقاآن) وتـــرامـــى اليه ان نزاعا بيـــن اهله يوشك ان يحل ، فلم يشأ ان يستأثر غيره بسيادة الموقف الجديد ، فآب الـــى بلاده مخلفا جيوشه الكثيفة علـــى اهبتها لغزو مصر بقيادة قائد من اشرس قواده اسمه (كيتوبوقا) .

التهـــديـــد

وكان هولاكو قد انفذ قبل رحيله نذيرا الى حاكم مصر، الملك المظفر سيف الدين قطز(٢) ، مع واحد واربعين رجـــلا من رجـــاله الغلاظ الشداد .

وكانت انبـــاء انتصاراته قد عمت الدنيا كلها ، وكانت جيوشه ثملة بباسها ، وكان الناس في كل مكان يوقنـــــون بالفشل ان قاوموه ، بعد ان كسر في زحفه ما لم يكسر ، وفتح ما لم يفتـــــح .

في هذا الجو المشحون بمعنـــى الانهزام المملوء بالرعب ، المفعم بالانخذال ، مضـــى وفده يحمل الـــى حاكم مصر هذا الكتاب :

« ان الله تعالـــى قد رفع شأن جنكيز خان واسرته ، ومنحنا ممالك الارض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ويعصي امرنا يقضـــى عليه ، مع نسائه ، وابنائه ، واقاربـــه ،

---

٢ ـ الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي تسلطـــن بعد خلع استاذه الملك المنصور علي بن الملك المعز ايبك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنـــة ٦٥٧ .

والمتصلين به ، وبلاده ورعاياه . كما بلغ ذلك اسماع الجميع . اما صيت جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار . فاذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا ، فارسل الينا الجزية ، واقدم بنفسك واطلب الشحنة ، والا فكن مستعدا للقتال » .

هذا هو الانذار المخيف الذي حمله الواحد والاربعون مغوليا الى السلطات المصرية وهذا هو التهديد المروع الذي وصل الى القاهرة .

وكانت كل جملة في هذا الكتاب صحيحة صادقة فقد دانت لهم ممالك الارض ، وكل من تمرد عليهم قضي عليه وخربت بلاده . وشهرة جيشهم المنتصر كانت اعرف من ان ينوه بها . وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية .

وهبط الوفد مصر جبارا متكبرا ، يزلزل بروعته العزائم ويوهي الهمم . هبط مصر وهبط معه تاريخ اسود من الانتصارات الكاسحة ، وماض بشع من التسلط المهول ، كانا كافيين للتسليم والخذلان ، لولا ان جابهتهما حمية شماء ورجولة انوفة وبطولة وفداء .

وكان قد سبق الوفد المغولي الى مصر وفود المنهزمين في البلاد الاخرى من الذين اطاحت بهم الضربات المغولية فتساقطت بلادهم ، البلد بعد البلد ، فتجمعوا كلهم في مصر لاجئين اليها .

وها هم المغول يلاحقونهم الى القاهرة وينازلونهم على النيل .

مؤتمـــر عسكـــري

كان الامر اخطر من ان يقطع فيه انسان واحد . وكانت مصر آخر معقل فاذا هوت ، لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما اوتـــي من سداد الراي وقـــوة العزم ، ان يتفرد بالقرار . فجمع الحاكم المصري ، الملك المظفـــر قطز ، مؤتمرا عسكريا ، كان في محاوراته ونقاشه في ارفع مستوى عرفه التاريخ من الاجتمـــاعات العسكرية والمؤتمـــرات الحربيـــة. وجرت المداولة فيه بصراحة كاملة اقتضتها خطورة الموقف .

قال الحاكم المصري للمؤتمريـــن ، وكانوا في اكثريتهم من القـــواد اللاجئيـــن :

« لقد توجه هولاكو من توران الـــى ايران بجيـــش جرار ، ولم يكـــن لاي مخلوق من الخلفاء والسلاطيـــــن والملوك طاقـــة علـــى مقاومته ، واستولـــى علـــى جميـــع البلاد ، ثم جاء الـــى دمشق ولو لم يبلغه نعـــي اخيه لالحق مصر بالبلاد الاخرى ومع هذا فقد تـــرك في هذه النواحـــي كيتوبوقا ، وهو كالاسد الهصور والتنيـــن القوي فـــي الكميـــن ، واذا قصد مصر فلـــن يكون لاحد قدرة علـــى مقاومته . فيجب ان تتدبروا الامر قبل فوات الفرصة » .

منـــاقشة المـــوقف

هذا هو البيان الموجز الذي افتتح به الحاكم المصـــري الملك المظفـــر مؤتمـــره العسكري .

انه يبسط الامر علـــى حقيقته لا يحاول ان يهول ولا ان يهون ، ومن خير ما فيه هذه الشورى ، او اذا شئت بلسان العصر الحاضر هذه الديموقراطية السليمـــة .

فبالرغم من ان المتكلم هو صاحب مصر ، والجيوش جيوشه ، والبلاد بلاده ، والعواقب تعود عليـــه وعلـــى بلاده وبالرغم من انه مستطيع ان يفرض الراي الذي يريد ، فأمـــا تسليـــم او قتال ، فانه لم يشأ الا ان يشرك حتـــى ممثلـــي البلاد الاخرى في الراي وان يستمع اليهم .

أصغـــى المؤتمرون الـــى بيـــان الحاكم المصري بتفهم واستيعاب ، فكان اول المجيبيـــن ناصر الديـــن قيمري ،فقال من جمـــلة كلام له :

« ان البلاد الممتدة من تخوم الصين الى باب مصر هي الان كلها في قبضة هولاكو ، فلو ذهبنا اليـــه لطلب الامان ، فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخـــداع النفس واستقبال الموت امران بعيدان عـــن حكم العقل ، انه ليس بالانسان الذي يطمـــأن اليه ، وهو لا يفـــي بعهده وميثاقه، فانه قتل فجاة خورشاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب اربل بعد ان اعطاهم العهـــد والميثاق ، فاذا سرنا اليه فسيكون مصيرنا مصيرهم » .

فرد الحاكم المصري :

« ان كافة بلاد ديار بكـــر وربيعة والشام ممتلئـــة بالمناحات والفجائع ، واضحت البلاد من بغداد حتـــى الروم خرابا يبابا ، وقد قضـــي علـــى جميـــع من فيها مـــن حرث ونسل ، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خرابا تاما

كغيرها . وينبغــي ان نختار مع هذه الجمــاعة التــي تريد بلادنا ، واحدا من ثلاثة . الصلح او القتال او الجــــلاء عن الوطـــن . اما الجـــلاء عـــن الوطـــن فامر متعذر ،وذلك لانه لا يمكن ان نجد مقرا لنا الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيــــدة » .

القـــرار الاخـير

كان يبدو من لهجة الحاكم المصري انه ميال الى المسالمة، ولكـــن الحقيقة ان المسالمة لم تكن من رأيه ــ كما تبيـــن فيمـــا بعد ــ ولكنه لم يشأ ان يفرض الحرب ، بل فضل ان تكـــون بقرار جمـــاعـــي او ان يفوض الامر اليه . وعندئذ يقررها اعتـــمادا علـــى التفويض ، وهكذا كان .

فقـــد رد ناصر الديـــن القيمري قائـــلا :

« وليس هناك مصلحة ايضا في مصالحتهم اذ انــــه لا يوثق بعهودهم » .

واذن فقد اصبح الطريق ممهدا لاتخاذ قرار مشرف . ان المسؤول عـــن مصر يبرهـــن علـــى استحالة الجلاء . والقيمـــري يبرهـــن علـــى استحالة المصالحة . ولكن بقي راي اخـــر باستطاعته ان يبرهـــن علـــى عقم المقاومة ، علـــى انه بعد الرايين السابقيـــن ، وما فيهما من وضوح، لم يعـــد باستطاعة هذا الراي الاخير الا ان يلجلج دون ان يفصح . لذلك راينا بقيـــة الحاضرين ـــ وكان معظمهم قـــد ذاق مرارة الهزيمة امام هولاكو فخمدت عزائمهم وضعفت هممهم ومالوا الـــى التسليم ــ يقولون لصاحب مصر قطز :

« ــ ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم فمر بمــا يقتضيه رأيك »

فقال الملك المظفــر :

ــ ان الراي عندي هو ان نتوجه جميعا الى القتال. فاذا ظفرنا فهو المراد والا فلــن نكون ملومين امام الخلق .

وكانت كلمته حاسمة ، فقر الراي على وجوب المقاومة . وراى بعضهم ان يفاجئوا المغول بأمر يدل على الحزم والمضي في القتــال دون هوادة ويقطع الطريق على اية دعوة انهزامية فأشاروا بقتل رسل المغول . فاستصوب الملك هذا الراي وامر بصلب الرسل في الليل .

ولقائل ان يقول :

وما ذنب الرسل ، والرسل في كل الشرائع لا تقتل . .

ولكن الذي يطالب بمثل هذا ينســى إن المغول امتهنوا الشرائع ، وغدروا بالرسل ، وخانوا المستأمنين ، ونقضوا العهود ، وان كل ما يمكن ان يرهب هؤلاء القوم هو حلال في كل شريعة صحيحة ، وان الامر كما قال علي بن ابي طالــب عليه السلام : الوفاء لاهل الغدر غدر عندالله ، والغدر بأهل الغــدر وفــاء عند الله .

المغول علــى ابواب مصر

كانت طلائع المغول قد وصلت الــى غزة ، وكان قــد عسكر فيها جيش قوي بقيادة القائد المغولي (بايدر) ، وكان هذا القائد يتهيأ للهجوم علــى مصر ، فلما اتاه خبر صلــب الرســل ارتاع لذلك وتردد في التقدم ، وراى ان يرلجــع

قائده الاعلــى (كيتوبوقا) الذي كان يعسكر بالقرب من مدينة بعلبك ، فاستشاط هذا غيظا وامر (بايدر) بان لا يتقـــدم قبــل وصولــه .

ولكن المصريين كانوا قد تخلوا عن الدفاع وعزموا علــى ان يبدأوا بالهجوم ، فاقتحم جيشهم غزة وطاردوا (بايدر) حتــى نهــر العاصي . فزاد هذا التحدي من غضبكيتبوقا واسرع بجيوشه لتأديب المصريين واثقا من نفسه مطمئنا الى جبروت قـــواه .

المعركة الفاصلـة

وكان المصريون موقنيــن ان الشجاعة وحدها لا تحسم الموقف ، وان الاستماتة لا تكفــي لرد الاعداء ، فلا بد مــن اعمـــال الرأي لان الجيش القادم جيش خطر ، كثير العدد ، واضح الشجاعة ، مرهوب الجانب . لهذا تعمد الملك المظفر اعمال الحيلة فعبأ جيشه في كميــن تعبئة محكمة ، وخـــرج هو ببضعة آلاف يقابل المغول وجها لوجه في (عين جالوت) فرشقته سهام المغول رشقا عنيفا ، وكروا عليه كرة زلزلته عن مواقفه فانهزمت جيوشه وتراجع ، فتعقبه المغول واعملوا السيــف في المصريين المنهزميــن فقتلوا منهم كثيرا ، ولكن لم تلبث ان طلعت عليهم الكمــائن المصرية من ثلاث جهـــات فصدمتهم صدمة عنيفــة صمدوا لها من الفجر الــى منتصف النهار واستقتل الفريقان ، ولكن المفجأة المصرية اثمرت ثمارها في زعزعة صفوف المغول ، فلم تلبث بشائر النصر ان لاحــت للمصريين ، ولم تلبث الجمــوع المغولية ان اخذت بالتصدع ،

ولم تلبث الهزيمة ان حاقت بهـا .

وابى (كيتبوقا) ان ينهزم ، وآثر الموت على الفرار ، وصمد يجالد بسيفه جلادا عنيفا ، ولكنه في النهاية سقط اسيرا وسيق مكبلا الى الملك المظفر ، فعنفه مذكرا اياه بالدماء التي سفكها والعهود التي نكثها . فعاد المغولي يهدد ويتوعد قائلا من جملة كلامه : « ستطأ سنابك خيل المغول من اذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم الى هناك ، ان لهولاكو ثلاثمائة الف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض انه نقص واحد منهم » .

ولكن رأس كيتوبوقا طاح عن جسده ومضى المصريون يطاردون المغول في الديار الشامية ويطهرونها منهم حتى بلغوا شاطىء الفرات .

ومضى تهديد كيتوبوقا في الهواء . ولم يكتب لسنابك خيل هولاكو ان تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة ثانية .

بطـــلان

تتعرض الامم احيانا الــى مواقف يتزلزل فيها كيانهــا ويتهشم وجودها ، فتغدو وكأنها شلو ممزق ، فقد الرأس والاطــــراف .

هنا تتجلــى كوامن العزائم وتبرز مخبآت العبقريات ، فيقيض الله للامة من لم تكن تحسبهم شيئا فاذا هم كل شيء.
هذا ما صار اليــه امر العرب والمسلمين بسبب الغزو المغولــي الثانــي بقيادة هولاكو ، حين استطاع تدمير البلاد والعبــــاد ، وقضــى علــى آخر رمز اسلامي قضاءه المبرم وحل ما كان قد بقــي من روابط يمكن ان تشد البلاد بعضها الــى بعض ، واخمــد كل صوت يمكن ان يستصــــرخ مستنجدا ويستثير محمسا .فعادت الامة قطيعا سائبا تتعاوره الذؤبان وتعيث فيه السباع ، ونعى الاسلام نعاته ، ورثاه رثاته ، وخيل للناس ان الوثنية سادت وان لا قائمة تقوم بعد لكلمة التوحيــــد .

ولكن الاسلام ، وقد كان احيا بعبقريته الشعوب وخلق النور الساطع من الظلام الدامس ، لم يكن ليستسلم بمثل تلك السهولة التــي حسبها الضعفاء ، فجذوته التي هزت الكون قبل اليوم ، كان لا يزال منها قبسات في نفوس بنيه ، فمن قلب اليأس برز الامل في عزم رجليــن اثنين قيض لهما ان ينقــــذا الاسلام من اخطــر بلاء اصابه . ومن المؤسف ان الجمهور الاسلامــي يجهل كل شـــيء عنهما ، بل ان الخاصة الاسلاميــة نفسها لا تكاد تعرف الا لمحات خاطفــة عنهمـــا،

في حيـــن أن بعض من احيطت اسمـــاؤهم بالتهويل والتطبيل في بعض الاحداث الاسلامية ليسوا باهل لشـــيء من هذا . وكان نصيبهم من العـــمل نصيبا لا يستحقون عليه ذرة مـــن هذا الاجـــر الضخـــم .

هذان الرجـــلان متناقضان في كل شـــيء ، فلقد جرى كل منهمـــا في طريق لا صلة لها بطريق الاخر ، وكانت وسيلة كل واحد منهما مختلفة عن وسيلة الثاني ، بل ان واحـــدا منهمـــا لم يتصل بزميله ولم يتعرف اليه ولم يدر عـــن خططه شيئا ، بل عمل كل فيمـــا هيىء له وســـار في الطريـــق التـــي لا يحســـن السير في غيرها . ولو انه انحرف عنـــها قيـــد شعرة لتعسف السبيل وضل الدرب وتاه واتاه معـــه العروبة والاســـلام .

الملـــك المظفـــر

هذان الرجلان البطلان همـــا الملك المظفـــر سيـــف الدين قطز حاكم مصر (١٢٥٩ ـــ ١٢٦٠ م) والعالم الفيلسوف نصير الديـــن الطوســـي (١٢٠١ ـــ ١٢٧٤م) .

وقصة الاول منهما ذكرت في مقال آخـــر ، فلا اعيـــد منها هنا شيـــئا سوى القول بان هذا الرجل العظيم استطاع ان يبطل اسطورة الجيش الذي لا يغلب فهزم المغول في عين جـــالوت (١٢٦٠م) هزيمة لم يتوقعها احد ، بل خاض في الاصل معركة لم يتوقع خوضها احد .

لقد انتصر في عيـــن جالوت علـــى المغول انتصارا يمكن القول من ناحيـــة انه كان حاسما ، هذا اذا اعتبرنا النتائـــج البعيـــدة التـــي ادى اليها هذا النصر . فان الزحف المغولـــي

منذ تقدم بقيادة هولاكو لم يوقفه شيء وانهارت امامه جميع القوى . حتى خيل للناس في كل مكان انه ماض في نوحه حتى النهاية ، وان مصر هي هدفه الثاني بعد الشام ، وان هذا الهدف كغيره من الاهداف قريب المنال ، ومتى استصفى المغول مصر فانهم سيمضون حتما الى ما هو ابعد ، ولا يعلم الا الله اين سيقفون .

وفي الواقع لو قدر للمغول الانتصار العسكري في « عين جالوت » لكان الامر كما ظن الناس ولكن المقاومة الباسلة التي لقوها عند حدود مصر ، والصمود الرائع الذي اعده لهم الملك المظفر ، ثم الهزيمة الكاسحة التي الحقها بهم المصريون بقيادته : ان ذلك اثبت اولا ان المغول يمكن ان يهزموا ، ثم وضع حدا لتقدمهم ، ولم يكتف بردهم عن مصر ، بل ردهم عن الشام ايضا ، ومن هنا يمكن اعتبار النصر المصري في « عين جالوت » نصرا حاسما .

نصير الدين الطوسي

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الاول ، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان (١٢١٥ ــ ١٢٢٧م) البلاد الاسلامية ودمرت ما مرت به منها . وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعج بالعلماء وتزخر بالمدارس .

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل اعملوا السيف في الناس ، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع ،

وكان بين الناجين نصير الدين الطوسي ، فهام على وجهه يطلب الملجأ الامين فوجده في قلاع الاسماعيلية الحصينة ، تلك القلاع التي صمدت وحدها لجنكيز خان وصدته عن اسوارها ، فظل حقد المغول مضطرما على الاسماعيليين الى ان استطاعوا الثأر منهم في عهد هولاكو حفيد جنكيز .

ولم يكن نصير الدين وحده هو الذي احتمى بهذه القلاع ، بل لقد لجأ اليها كثير ممن استطاعوا الفرار والنجاة .

وعندما تقدم المغول في غزوهم الثاني ، واعاد هولاكو سيرة جده ، كانت الحملة هذه المرة من القوة بحيث هابتها القلاع الاسماعيلية فلم تستطع لها صدا ، ونزل الامير الاسماعيلي ركن الدين خورشاه على حكم المغول ، فكان حكمهم قتله وقتل اعوانه ومن لجأ اليه ، واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاكو فامر بالابقاء عليهم ، ولم يكن هذا الابقاء حبا للعلم وتقديرا لرجاله، بل لان هولاكو كان بحاجة الى ما اختص به هؤلاء الثلاثة من معارف ، فاثنان منهم كانا طبيبين هما موفق الدولة ورئيس الدولة ، والثالث كان مشهورا باختصاصه في اكثر من علم واحد هو نصير الدين الطوسي، وكان مما اختص به علم الفلك ، وكان هولاكو مقدرا لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير ، مؤمنا بفائدته له . لذلك رأيناه بعد ذلك يعنى بانشاء مرصد « مراغة » ويوفر له كل ما يستدعي نموه وتقدمه . . .

رجـل الساعـة

جمع نصير الدين الطوسي الى العلم الواسع العقل الكبير ، فتريك سيرته رجلا من افذاذ الرجال لا يمر مثله كل يوم . وتشاء الاقدار ان تعده لمهمة لا ينهض لها الا من اجتمعت له مثل صفاته : علم وعقل وتدبير وبعد نظر ، فكان رجل الساعة في العالم الاسلامي ، هذا العالم الذي كان مثخنا بالجراح .

كانت مهمة الطوسي من اشق المهمات ، وكانت ازمته النفسية من اوجع ما يصاب به الرجال ، فانه وهو العالم الكبير ذو الشهرة المدوية بين المسلمين ، يرى نفسه فجأة في قبضة عدو المسلمين ، ويرى هذا العدو مصرا على ان يبقيه في جانبه ويسيره في ركابه . والى اين يمشي هذا الركاب ؟ انه يمشي لغزو الاسلام في دياره والقضاء عليه في معاقله ، فهل من محنة تعدل هذه المحنة ؟

ان اقل تفكير في التمرد على رغبة القائد المغولي سيكون جزاؤه حد السيف ... وانني لاتخيل الطوسي متأملا طويل التأمل ، مطرقا كثير الاطراق ، لقد كان يعز عليه ان يذهب دمه رخيصا وان يكون ذلك بارادته هو نفسه ، فلو ان سيفا من سيوف المغول الجانية اودى به فيمن اودى بهم في رحاب نيسابور وسهول ايران لكان استراح . اما الان فلن يستسلم للقدر الطاغي وسيثور على حكم الزمن الغاشم .

الوضع العـــام

كان الطوســـي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر، وهو في ذلك آية من الايات ، وقد ادرك ان النصر العسكري على المغول ليس ممكنا ابدا ، فقد انحل نظام العالم الاسلامي انحـــلالا تاما لم يعـد معه امل في تجميـع قوة تهاجـم المغـول وتخرجهم من دياره ، وكانت البلاد المحتلة اضعف من ان تفكـر في ثورة ناجحة . علـى ان الغرب الاسلامـي كان لا يزال سليمـا ، وكانت مصر هـي القوة الوحيدة التي تتجه اليها الانظار ، وقد استطاعت مصر ان تذيق المغول مرارة الهزيمة وان تردهم عنها ، ولكنها لم تكـن مستطيعـة اكثر من ذلك ، فمهاجمة المغول فيمـا احتلوه من بلاد بعيـدة واخـراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر .

وفكر نصير الديـن طويلا فايقـن انه اذا تم للمغول النصر الفكري ، بعد النصر العسكري ، كان في ذلك القضاء علـى الاسلام ، وها هو يرى بام عينيه الكتب تحرق والعلماء يقتلـون ، فماذا يبقـى بعد ذلك ؟..

لقد استغل حاجة هولاكو اليه ، وحرصه علـى ان يكون في معسكره فلكـي عالم بالنجوم ، فعزم علـى كسب ثقـته واحترامه فكان له ما اراد ، وصار له من ذلك سبيل لانقاذ اكبـر عدد من الكتب وتجميعها ، كما استطـاع ان ينجي من القتل الكثيريـن ممن كانوا سيقتلون .

ولما استتب الامر لهولاكو خطا نصير الديـن خطوته الاولـى ، وكانت هذه المرة خطوة جبارة فقد اقنعه بان يعهد اليـه بالاشراف علـى الاوقاف الاسلاميـة والتصـرف

بمواردها بما يراه ، فوافق هولاكو . وتتطلع نصير الدين فرأى ان المسلمين كانوا قد وصلوا من الانحلال الفكري الى حد اصبح العلم عندهم قشورا لالباب فيها ، وانهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهما ، وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التي حث عليها الدين العظيم ، وانصرفوا عن العلوم العملية انصرافا تاما . فاعلن افتتاح مدارس لكل من الفقه ، والحديث ، والطب ، والفلسفة ، وانه سيتولى الانفاق على طلاب هذه المدارس ، ولكنه سيجعل لكل واحد من دارسي الفلسفة ثلاثة دراهم يوميا ، ولكل واحد من دارسي الطب درهمين ولكل واحد من دارسي الفقه درهما ، ولكل واحد من دارسي الحديث نصف درهم ، فاقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب ، بعدما كانت من قبل تدرس سرا .

النصر الاول

احرز نصير الدين النصر الاول في معارك الاسلام . فالعلم لن ينقطع بعد اليوم ، ولن يجمد المسلمون عن طلبه، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة . فاذا كان انشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاكو اليها ، ولن يدرك اهميتها ، فان انشاء الجامعة الكبرى وحشد العلماء فيها وحشر الكتب في خزانتها ، سيكون حتما منبها لهولاكو فكيف العمل ؟.

هنا تبدو براعة الطوسي ، فهولاكو استبقاه لغاية معينة ، فراح يقنع هولاكو بانه من اجل استمراره في عمله

والاستفادة من مواهبه لا بد من انشاء مرصد كبير ، فوافق هولاكو على انشاء المرصد ، وفوض لنصير الدين المباشرة بالعمل .

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الاكبر الذي حققته الايام لنصير الدين ، وبات بعدها مستريحا للمستقبل لا يشغله شيء الا الاعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل الى الغاية القصوى .

يقول الدكتور علي اكبر فياض : « كان يعيش عند ذاك رجل يعد من اكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، الا وهو نصير الدين الطوسي . قدر لهذا الرجل العظيم ان بقوم بانقاذ التراث الاسلامي من ايدي المغول » .

ويقول الاستاذ مدرسي : « استطاع الطوسي بتأثيره على مزاج هولاكو ان يستحوذ تدريجيا على عقله وان يروض شارب الدماء فيوجهه الى اصلاح الامور الاجتماعية والثقافية » .

الخطة الحكيمة

ضخم نصير الدين امر المرصد لهولاكو واقنعه انه وحده اعجز من ان يرفع حجرا فوق حجر في ذاك البناء الشامخ ، وانه لا بد له من مساعدين اكفاء يستند اليهم في مهمته الشاقة ، وانه لا مناص من اجل ذلك من ان يجمع عددا من الناس المختارين ، سواء في البلاد المحتلة او في خارجها ، فوافق هولاكو على ذلك .

وهنا هب نصير الدين الى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبدالله المراغي ، وعهد اليه بالتطواف في البلاد الاسلامية ، وتامين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة الى بلادهم ، ثم دعوة كل من يراه كفؤا في عمله وعقله من غير النازحين .

ومضى فخر الدين يؤدي مهمته على احسن الوجوه ، وقصد الى اربل والموصل والجزيرة والشام ، فعاد الهاربون ولبى الدعوة غيرهم فجاءوا من كل مكان . جاءوا من دمشق والموصل ، وقزوين وتفليس وغيرها . وتحلقوا حول نصير الدين يعدون العدة لانشاء اكبر معهد علمي عرفه العالم الاسلامي ، ساترين هدفهم بالمرصد ، مغلفين طريقهم بالافلاك والنجوم . بل لقد بلغت الدعوة اقاصي المغرب فكان من المغاربة يحيى بن ابي الشكر المغربي الذي كان احد الستة الذين اختارهم نصير الدين ليكونوا اللجنة العليا المشرفة على العمل .

يقول الدكتور مصطفى جواد : « التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك ، وليأتي بمعجزة القرن السابع وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس اول اكاديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة Academie ، واقامة اعظم مرصد عرف في الشرق وانشاء اول جامعة حقيقة من النوع المعروف اليوم بالـ Université

رواية شاهد عيان

وكان في طليعة الوافدين الى مراغة العالم الدمشقي

مؤيد الدين العرضي الذي ترك لنا رسالة في وصف مرصد مراغة وادارته تحدث في مقدمتها عن نصير الدين الطوسي فكان مما قاله :« ... وذلك كله باشارة مولانا المعظم والامام الاعظم العالم الفاضل المحقق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء » .

ثم يقول : « فجمع العلماء اليه وضم شملهم بوافر عطائه وكان لهم ارأف من الوالد على ولده فكنا في ظله آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل :

نميل على جوانبه كأنا
نميل اذا نميل على ابينا
ونغضبه لنخبر حالتيه
فنلقى منهما كرما ولينا

وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي ادام الله ايامه .

النتائج الخطيرة

مضى العمل منظما دقيقا وانصرف العلماء باشراف الطوسي منفذين مخططا مدروسا ، فلم يمض كبير وقت حتى كانت المكتبات تغص بالكتب ،وحتى كانت مكتبة مراغة بالذات تضم مجموعة قل ان اجتمع مثلها في مكتبة اخرى ، وحتى كانت المدارس تقام في كل مكان ، وحتى كانت الثقافة الاسلامية تعود حية سوية ، وحتى كانت النفوس مشبعة بالامل والقلوب مليئة بالرجاء ، وحتى

كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون علـــى كل وجهـــــة ...

ثم يمـــوت هولاكو ، ولكن الاسلام الذي اراد له هولاكو الموت يظل صحيح البنية ، متوهج الفكر . والعرب الذين عول الطاغيـــة علـــى تحطيمهم يظلون شامخيـــن سالمين ، ثم يمـــوت ابن هولاكو وخليفتـــه (ابقاخان) والاسلام لا يـــزال بقيـــادة الطوســـي صامدا ، يقاتل ويقاوم ويدعـــو ويهـــــدي .

ويأتـــي بعد ابقاخان ، ابن هولاكو الاخر (تكودار) فاذا بالاســـلام ينفـــذ الـــى قلبه وعقله ، واذا به يعلـــن اسلامه وتسلم الدولة كلها بعد ذلك .

وكان الطوســـي قد مات سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٤م) . مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحـــمة الدنـــيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بارفع صوت واعلـــى نبـــرة . مات الطوســـي مودعا الامر الـــى تلميذه واقرب المقربيـــن اليه قطب الديـــن ابو الثنـــاء محمود بن مسعود الشيرازي ، فنهض بالعبء علـــى ما اراده نصير الديـــن . فلم يجـــد « تكودار » الذي اصبح اسمه « احمد تكودار » خيرا من الشيرازي خليفـــة الطوسي ليكون رسوله الـــى العالـــم العربـــي والاسلامـــي .

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي : « لم يمت نصير

الديـــن الا بعد ان جدد ما بلـــي في دولة التتار من العلـــوم الاسلاميـــة واحيـــا ما مات من آمال المسلميـــن بها » .

الـــى ان يقول : « ... ان الانتصار علـــى التتار لم يكـــن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة « عين جالوت» وانمـــا كان بفتح قلوبهم الـــى الاسلام وهدايتهم له » .

هكذا استطاع نصير الديـــن الطوســـي ان يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية البـــاغيـــة ، وان تنجح خططه في تحويل المغول من وثنيين الـــى مسلميـــن .

ابن الفوطي مؤرخ العصر المغولي

بين الاسرى الذين وقعوا في ايدي المغول بعد النكبة الكبرى ، اسير لم ير فيه آسره الا غلاما حدثا قد يصلح اكثر ما يصلح للخدمة في الدور او الدواوين ، ولم يثر في نفس الآسر ابعد مما يمكن ان تثير فيها اية دابة من دواب الارض التي تسعى في مصالح الناس وتقاد الى العمل طوعا او كرها واي شأن لصبي لم يتجاوز الاربع عشرة سنة من سنه يقبض عليه بين عشرات الالوف التي قبض عليها في بغداد وغير بغداد ممن هوت دولتهم وهانت عزتهم وتلاشت قوتهم .

هذا الصبي الاسير الذليل هو عبد الرزاق بن احمد الذي اشتهر بعد ذلك بابن الفوطي والذي ولد في المحرم سنة ٦٤٢هـ ببغداد ثم وقع في ايدي المغول بعد افتتاحهم عاصمة الخلافة العباسية . فمضى مقودا الى آذربايجان ثم منها من مكان الى آخر حتى عثر عليه فيمن عثر عليهم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، الرجل الذي تحدثت عنه في مقال سابق والذي كان له فضل افساد المخطط المغولي في القضاء على الاسلام في معاقل الاسلام .

عثر عليه الطوسي بعد سنة من اسره فلم تفته ملامح

الذكاء في وجهه ودلائل النبوغ في تصرفه ، والطوسي يومذاك يفتش عن الاكفاء ويسعى الى الاذكياء ليلم بهم الشمل فيجدد مسيرة الاسلام قدما الى ابعد الغايات . فعمل الطوسي على فكاك الغلام ثم ضمه الى حاشيته. وما عسى ان تكون حاشية الطوسي ؟ كانت علماء حكماء وبناة اشداء رصهم الطوسي رصا في صفوف حاشدة وجمعهم من كل مكان جيشا يقاتل بالقلم ويحارب بالفكر ويكر بالكتاب . فكان لفتانا الاسير الطليق مكان واضح في تلك الجموع العالمة العاملة ، بدأه اولا تلميذا للطوسي تلمذة استمرت ثلاث عشرة سنة في مدينة مراغة التي اختارها الطوسي ميدانا لكفاحه المرير الطويل .

ووجه الطوسي تلميذه فيما وجهه الى دراسة العلوم الرياضية والنظريات الفلسفية ، كما اتقن التلميذ اللغة الفارسية واحاط بآدابها ونظم الشعر فيها ، وألم بلغة الفاتحين المغول . وكان من اعظم انجازات الطوسي حرصه على انقاذ الكتب وجمعها في مكتبة كبرى وصونها من ايدي المخربين والعابثين ، وبعد ان تم له ذلك وقامت المكتبة عهد بالاشراف عليها الى تلميذه ابن الفوطي . وهكذا اجتمع لعبد الرزاق الفكر النير والذهن المتفتح والاستاذ الموجه والمناخ المؤاتي ، فكان ان انتهى الى ان يصبح مؤرخ العصر المغولي العالم الكاتب الشاعر .

في مراغة

قلنا ان عبد الرزاق ولد ببغداد ، ونقول ان اللقب الذي

التصق به (ابن الفوطـــي) انمـــا جاءه من قبل جده لامه ، وهـــو منسوب الـــى الفوط جمع فوطة وهـــي نوع مـــن الثياب ويبدو ان الجد كان يعمل في صنع هذه الثياب او بيعها، ويقال انه ينتسب الـــى معن بـــن زائدة لذلك يلحق باسمه احيانا لقب الشيبانـــي . وكانت ولادته بعـــد مضـــي سنتين من خلافـــة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . ولا يدرى شـــيء عـــن حداثته سوى ما يستنتج مما كتبه هو من انه ولد في محلة الخاتونية القريبة من دار الخلافه وانه سمع قبل سقوط بغداد من الصاحب محيي الدين ابن الجوزي احد قتلى وقعة بغداد ، وانه ولد في اسرة متوسطة الحال ثم اســـــر واطلق من الاسر واصبح قيمـــا للمكتبة الكبرى في مراغـــة طيلة ثلاثة عشر عاما . وفي خلال ذلك كانت مراغة قد اصبحت مقرا لدولة تتبعها خراسان وايران باسرها والعـــــراق والاناضـــول اي انها كانت عاصمة المشرق الذي استولـــى عليـــه المغول ، وكانت الحال في هذه الدولة تتطور عاما بعد عام ، فمـــن عداء صريح للاسلام والمسلميـــن ومذابحوفواجع ونهب وسلب واحراق الـــى هدوء ثم تحول لتأسيس دار الرصد وخزانة الكتب وتأميـــن العلماء واستقدامهم مـــــن الافـــاق البعيـــدة . كل ذلك تم بعد عام واحد من استباحة بغـــداد ، وكان الفضل في تمامه للعقل المدبـــر نصير الدين الطـــوســـــي .

المكتبة ودار الـــرصد

يفهم مما سجله ابـــن الفوطـــي نفسه انه وضع للمكتبة

نظاما دقيقا يسير عليه المطالعون والدارسون والمشرفون ثم عكف على طلب العلم فكان ان استهواه التاريخ فانصرف اليه . وبدأ اول ما بدأ بتسجيل تاريخ الدار التي آوته وحمته وثقفته فسجل كيف انشئت دار الرصد واشار الى استقدام العلماء المدرسين اليها وذكر عمل كل منهم واختصاصه ومؤلفاته مترجما له ترجمة ممتعة ، والف كتابا خاصا سماه « تذكرة الرصد » خصصه بالذين وفدوا الى الدار او مكتبتها ، كما وصف بعض ما حوته المكتبة من نفائس الكتب وصفا ممتعا ذكر فيه تراجم المؤلفين وزياراتهم للمكتبة وبعض آثارهم .

وقد حفظ في كل ذلك صورا للحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والادبية ما كان لها ان تحفظ لولا ان سجلها بقلمه المبدع . مما كان حقيقا بما وصف به من (انه مؤرخ النهضة العلمية الكبيرة في مراغة) .

العودة الى بغداد

وتزداد الحياة تطورا وتحولا فمن بين السنين الثلاث عشرة التي قضاها في مراغة كانت ست منها في حياة الطاغية هولاكو والباقية في عهد ابنه اباقا ، انغمر فيها ابن الفوطي في المجتمع انغمارا كاملا واستطاع بكياسته ان يتغلغل في ارفع المقامات المغولية وان يزور الاميرات المغوليات وان يستزيد من الصداقات ويكثر من الاخوان . وان يسجل من وحي ذلك كل طريف معجب .

على انه وهو في قمة نجاحه وعنفوان تألقه لم ينس

وهو البغدادي العريق والعراقي الاصيل ضفاف دجلة ومسارح الطفولة ومدارج الصبا وذكريات الاهل والاحباب ، وثار به الحنين الى بغداد التي فارقها غلاما غض الاهاب ، فلم ينسه اياها نضوح الشباب وشيوع الذكر ونجاح الامر حتى كان العام ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) حين حكم العراق الصاحب علاء الدين الجويني صديقه في مراغة .

وكانت الرغبة الكبرى لابن الفوطي هي ان يحمله الصاحب الى بغداد فحقق الصاحب له الرغبة فكان مما قاله عنه : « هو الذي اعادني الى مدينة السلام سنة تسع وسبعين وستمائة وفوض الي كتابة التاريخ والحوادث وكتب لي الاجازة لجميع مصنفاته واملى علي شعره في قلعة تبريز سنة سبع وسبعين وستمائة .

في بغداد

العمل الذي اتقنه ابن الفوطي في مراغة هو نفسه الذي عهد اليه به علاء الدين الجويني في بغداد وهو الاشراف على مكتبة المستنصرية وكانت انذاك اعظم مكتبة عامة في العالم وكانت ملتقى لرجال العلم والفكر ، فعكف ابن الفوطي على عمله فيها بنفس الدقة والاتقان والتنظيم الذي عرف به في مكتبة مراغة . وكانت سنه يومئذ دون الثلاثين فرأى ان يستزيد من العلم فاقبل على دراسة الفقه والحديث بتعمق واتقان حتى استحق بين المحدثين لقب (الحافظ) .

وانشأ لنفسه مكتبة خاصة كانت محجة للعالمين

والمتعلميـــن البغداديين ومقصـــدا للطارئين الوافديـــن ، وكان يشير في تدويناته الـــى زواره وزوار مكتبته من كل الاصنـــــاف .

كمـــا وضع معجمـــا خاصا بمـــن تتلمذ عليهم واخذ عنهـــم فبلـــغ عددهم الـــى الخمسمائة .

من حال الـــى حـــال

وظل ابـــن الفوطـــي علـــى عمله في المستنصريـــة خمسا وعشريـــن سنة بدأت سنة ٦٧٩ وانتهت سنـــة ٧٠٤ كان التحول خلالها قد ازداد سرعة والدنيا تبدلت غير الدنيا . وكانت غراس نصير الديـــن الطوســـي قد نمت واثمـــرت فاسلمت الدولة المغولية وتحولت الـــى مجتمـــع اسلامـــي يساهـــم في نهضة الاسلام وتقدم المسلميـــن .

كما ان السياسة تطورت من حال الى حال فان ارغون حفيـــد هولاكو صب نقمته علـــى آل الجوينـــي لانهم نصروا عمه احمد تكودار فبطش بهم واستأصلهم وقرب خصومهم ، كما عامل العراقيين بعامة معاملة انتقام وقمع لميلهم الـــى آل الجـــوينـــي .

وقد كان كل ذلك بمرأى من ابـــن الفوطـــي فشهـــد الصراع الحزبـــي المغولـــي الدامـــي وشهد مصـــارع آل الجوينـــي الذيـــن حكموا العراق اكثر من عشريـــن سنة حكمـــا حببهم الـــى العراقييـــن وامالهم اليهم ، كمـــا كان قد شهـــد من قبل وفاة الصاحب علاء الديـــن ووفاة استاذه ومربيـــه نصير الديـــن الطوســـي ووفاة الاجيال التـــي

عاصرت الطوسي او تخرجت عليه .

شهد كل ذلك في العصر المغولي الاول من فتح بغداد الى اواخر القرن السابع ، وهذه الفترة تعتبر من اشرس الفترات المغولية واعنفها ، ولكن المغول اخذوا يتكيفون تكيفا تدريجيا فلطف الاسلام من شراستهم وخفف من شدتهم ، ولم يكد القرن السابع ينتهي ويقبل ما نستطيع ان نسميه العهد المغولي الثاني حتى كان التكيف قد ازداد بالتصاق المغول بالاسلام وتحسسهم بمظاهر الحضارة الاسلامية فرأينا الحواضر المغولية تصطبغ بصبغة جديدة من المدنية ، ورواسب الوثنية تذوب في النفوس والادارة تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل .

وقد شهد ابن الفوطي هذه العهود كما شهد التي قبلها مشاهدة المؤرخ المرهف الحس واتصل برجالها حكاما وعلماء ونافذين ، فكتب عن كل ما شاهد وترجم للرجال ووصف الحياة ، بعقل نير وفكر ثاقب وقلم رشيق .

في تبريز

بعدما تخلى ابن الفوطي عن عمله في المستنصرية سنة ٧٠٤ رحل الى تبريز حيث اقام هناك ست سنوات ثم عاوده الحنين الى بغداد فرجع اليها ثم عاد الى بغداد وكثر تردده الى تبريز . ويبدو ان الذي جذبه الى تبريز هو وجود صديقه القديم وزميله في الدرس على نصير الدين الطوسي الطبيب رشيد الدين الهمذاني العالم المفكر السياسي الذي عرفت تبريز في عصره ازهى عهودها

العلميـــة والعمرانيـــة والسياسيـــة فلازمـــه ابن الفوطي وعاود سيرته في الأخذ عـــن العلماء والدرس على الشيـــوخ ولقي في تبريز الامام قطب الديـــن الرازي الفقيه الرياضي الفيلســـوف فتلمذ عليه ثم استجازه كما اخذ عـــن غيره من مشاهير العلماء الذين كانت تعج بهم تبريز ، ولكن اثر الرازي كان فيـــه بارزا .

وبعد أن وزر رشيد الديـــن لثلاثة من ملوك المغول الايلخانيين هم غازان وخربنده وابـــي سعيد تغير عليه الاخير لدسائس حيكـــت حوله فاقصـــي عن الحكم ثم اعيـــد اليه ولكن المؤامرات ظلت تلاحقه حتـــى قتله السلطان ابو سعيد في احداث ليس هذا مكان ذكرهـــا . .

علـــى ان افجع ما اعقب هذه الاحداث هو احراق مكتبة رشيد الديـــن وكانت تضم ما لا يقل عـــن خمسيـــن الـــف مجلد . ويبدو ان معظم مؤلفات ابـــن الفوطـــي كانت ضمن تلك المكتبة فذهبت طعمة للنيران فيما ذهب من كتب، وهكذا لم يبق من تلك المؤلفات الا اسمـــاؤها فضاع بذلك تاريخ فترة من ادق فتـــرات تاريخنـــا ولم يبق في ايدينا الا اجـــزاء محدودة مما كتب ابـــن الفوطـــي .

ولقد هزت هذه الفاجعة كيـــان ابـــن الفوطـــي اذ قتل صديقه واحترقت كتبه فترك تبريز وعاد الـــى بغداد ومات بعد انقضاء خمس سنوات علـــى حادثة تبريز عـــن احدى وثمانيـــن سنـــة .

كتـــاب مجمع الاداب

ضاعت مؤلفات ابـــن الفوطـــي النفيسة حـــرقا في

احداث تبريز علـــى الارجح ، وان كان يمكن ان يكون بعضها قد ذهب للاسباب نفسها التـــي ذهبت بها مؤلفات غيره مـــن العلماء . ومن كتبه كتاب (مجمع الاداب) الذي لم يوجد منه الا جزءان الرابع والخامس وقد وجد الاول منهما في دار الكتب الظاهرية بدمشق وهو نسخة الاصل ومسودة المؤلف بخط يده . ووجد الثانـــي في مكتبة جامعة لاهور بالباكستـــان وهو نسخة المؤلف ايضا . وهذان الجزآن همـــا اثنـــان من اصـــل خمسيـــن مجلدا يتألف منها الكتاب وقد ضاعت كلها ما عدا هذيـــن الجزأيـــن . وطريقة المؤلف في هذا الكتاب هـــي ان يؤرخ للعصر عـــن طريق التاريخ لرجاله . وقـــد ظل يعمل في الكتاب ويجدد فيه حتـــى قبيل وفاته ، اذ وردت دراسات عـــن جمـــاعة وجدوا سنة ٧٢١ اي قبل وفاتـــه بسنتيـــن وسنـــة ٧٢٢ اي قبل وفاته بسنـــة واحدة ولا ننســـى انه كان عندذاك في الواحدة والثمانيـــن من عمره .

وقد كان لهذا الكتاب اثره الكبير في امداد المؤرخيـــن الذيـــن تلوا عصر المؤلف بادق المعلومات التاريخيـــة عن ذاك العصر . وممن استفاد منه واخذ عنه كل من الصفـــدي في (الوافـــي بالوفيات) والذهبـــي في (تاريـــخ الاســـلام) والسيوطـــي في (بغيـــة الوعاة) وابـــن عنبة في (عمـــدة الطالب) وشمس الديـــن الجزري في (غاية النهاية) وابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهم .

ابـــن الفوطـــي في المصادر القديمة

في طليعـــة من تحدث عـــن ابـــن الفوطـــي كـــان

الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ اذ جعله منهم كما سماه مؤرخ الافاق ، ويبدو من حديث الذهبي ان كتابه (مجمع الاداب) ذا الخمسين مجلدا هو مختصر لكتاب اكبر . فالذهبي يقول : (وعمل تاريخا كبيرا) لم يبيضه ثم عمل آخر دونه في خمسين مجلدا اسماه مجمع الاداب) .

فهل مجمع الاداب هو مختصر من مطول ام هو كتاب آخر ؟...

وذكره كذلك صاحب الدرر الكامنة وقد جاءت عبارته صريحة في ان المجمع هو اختصار للكتاب الكبير ، اذ قال : (له تاريخا حافلا جدا ثم اختصره في آخر سماه مجمع الاداب في خمسين مجلدا ...) .

وذكر صاحب الدرر فيما ذكر من مؤلفاته : كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وموضوع الكتاب يعرف من اسمه ، وهكذا فاننا نرى ان ابن الفوطي لم يكن مؤرخ سياسة واحداث فحسب ، بل هو ايضا مؤرخ ادب .ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة تضاف الى غيرها من الخسارات ولو بقي لعرفنا فيه حياة شعراء تلك الفترة وقرأنا اثارهم بقلم معاصر سامع لهم باذنيه شاهد لهم بعينيه . ويبدو ابداع ابن الفوطي بكتابة التراجم في وصف الذهبي له حين قال عنه : (... له الباع الطويل في ترصيع تراجم الناس) . ووصفه الذهبي ايضا بقوله : (كان روضة معارف وبحر اخبار) .

في المصادر الحديثة

لم يلق ابن الفوطي حتى اليوم ما يستحقه من

الدارسين في العصر الحاضر باستثناء الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي اكتشف مخطوطة الجزء الرابع في دمشق فاستهواه ابن الفوطي استهواء عجيبا جعله يخصه بعدة بحوث ثم ختم ذلك بكتاب من جزئين سماه (مؤرخ العراق ابن الفوطي) .

المثقف الفريد

لا شك ان ابن الفوطي كان في عصره مثال المثقف العالي الثقافة الموغل فيها والآخذ من كل فنونها بطرف ، ومثال العالم الجاد المواصل للمطالعة والكتابة والتفكير ، وحسبك في ذلك ان يظل القلم والورق في يده وهو في الواحدة والثمانين من عمره كما كان وهو في مطالع الشباب وغضارة العمر . وان يذكره المؤرخون في اول صفوفهم كما يذكره المحدثون في رأس حفاظهم ، فقيها بين الفقهاء وفيلسوفا بين الفلاسفة ورياضيا بين الرياضيين وشاعرا بين الشعراء وصوفيا بين الصوفيين ، واداريا بين الاداريين ومعلما بين المعلمين متذوقا للجمال والموسيقى والشعر .

مؤرخ الشعب

واذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم انه ترجم للعلماء والشعراء والسياسيين فان هذا الفقيه المحدث الحافظ قد ترجم فيمن ترجم لهم لاعلام الموسيقى الالية والصوتية ، بل يبدو انه كان ذا بصر في الموسيقى وتجارب

عمليـــة . كمـــا ارخ للوراقيـــن والناسخيـــن والمعلميـــن والمؤدبيـــن وذوي الفنـــون والصنائع الجميلة ، وبذلك خرج علـــى طرائق المؤرخيـــن قبله الذيـــن اهملوا تاريخ الشعب وعنوا بتاريخ المتسلطيـــن وحدهم فهو في الواقع مـــؤرخ الشعب بكل طبقات هذا الشعب .

رشيد الدين الهمذاني وكتابه جامع التواريخ

الغزو المغولي الاول الذي حمل وزره جنكيز ، ثم الغزو المغولـــي الثانـــي الذي باء باثمه هولاكـــو لم تؤرخهمـــا المصادر العربيـــة تاريخـا مفصلا يعرض دقائقهمـــا ويوضح وقائعهمـــا بحيـــث تكـــون الصورة امامنا جلية ترينا مـــا جـــرى رؤيـــة بينـــة شاملـــــة .

وكل ما اشتـــملت عليـــه المصادر العربية حديثاجمالي متقطع ، وتدوين عام موزع علىوقائع السنين . ولم يكن من هم اكثـــر من كتبوا عـــن ذلك ان يخصصوا تاريخـــــا محصورا بالغزو وحده ، بل كان هم معظمهم منصرفا الـــى التدويـــن العام لما يجري خلال كل عام ومنه بطبيعة الحـــال تقـــدم المغـــول الـــى البلاد الاسلاميـــة .

وممن عنـــي من مؤرخـــي العرب بتاريخ المغول ، ابن كثير في البدايـــة والنهاية وابـــو الفداء في تاريخه ومؤلف الحوادث الجامعة والسبكي في طبقاته وابن خلدون وابـــن حجـــر في الدرر الكامنة والعينـــي في عقد الجمان والسخاوي في الضوء اللامع . هذا مضافا الـــى ما ورد في الكامل لابـــن الاثير وما اورده ابـــن الفرات في تاريخه .. .وفي عصرنا هذا يمكن ان نعتبر كتاب الدكتور جعفر خصبـــاك افضـــل ما الف في هذا الموضوع .

اما في غير اللغة العربيـــة فمن اشهر تواريخ المغول باللغـــة الفارسيـــة كتاب (جهان كشاي) لعطا ملـــك الجوينـــي و (تاريـــخ وصـــاف) لعبدالله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة و (تقويم الوقائع التركية) لصاحب كشف الظنـــون . وفي اللغة التركيـــة عدة كتـــب وضعت بالتركية رأسا او ترجمت اليها مثل كتاب (شجـــرة التـــرك) لامير خيوة وكتاب (كلشـــن خلفا) وكتاب (تـــرك تاريخـــي) وكتاب التاريخ العام لسائر بطون التتر والمغول والتـــرك ، منقول من الفرنسية الـــى التركيـــة .

والمغـــول سواء في عهـــد جنكيز او حفيده هولاكو لم يكونوا حمـــلة حضارة ولا رسل عقيدة . كمـــا لم يكونوا ذوي ثقافة ولا اهل علـــم مما يمكن ان يحملهم علـــى ان يدونوا التاريخ بانفسهم لانفسهم ، او ان يعدوا من رجالهـــم من ينصرف الـــى غير القتل والضرب والتخريب والسلب .

ولكنـــهم بعد ذلك وقد اسلموا ثم بدأوا يتشبعـــــون بروح الحضارة الاسلاميـــة ويروضون من جماحهم ويهذبون من عتوهم ، ثم يوغل الفكر الاسلامـــي فيهم فيلتفتون الـــى غير الطغيـــان والجبروت ، ويتأملون شؤون الحياة تأمل ذي الفكـــر الذي اخذ يستنيـــر بنور المدنية وضياء العلم .

انهم وقد احتوتهم الذهنيـــة الاسلامية وصهرتهـــم اوساطها ، بداو' يعنـــون بتاريخهم والتطلع الـــى ماضيهم وحاضرهم وتسجيـــل ما يمكن ان يعتبروه من مآتيهـــم ومآثـــرهم .

واذا كان ماضيهم زاخرا بسفك الـــدماء ، حافـــلا

بالترويع ، قائما علــى الغدر وتحليل كل محرم . فــــان ذهنيتهم ، بل ربمـــا كان لنا ان نقول : ان ذهنيـــة الناس كل الناس يومذاك وما بعد يومذاك ، كانت تـــرى في الغلبة وقهر الشعوب افخم امجادها بصرف النظر عما يرافق هـــذه الغلبـــة من اهوال وفجائع .

وهكذا فان مجرد تصورهم ما احـــــرزه جنكيز مـــن انتصارات ، وما حققه هولاكو من فتوح ، كان في نظرهـــــم شيـــئا خطيرا يستحق ان يتمدحوا به ويسجلوه في صحفهم دليـــلا علـــى بطولتهم واشارة الـــى قوتهم وشجاعتهم .

وكان اول من فكر منهم بوضع تاريخ لهم هو غازان الذي عهد بهذه المهمـــة الـــى الطبيب فضل الله رشيد الديـــن الهمـــذانـــي .

رشيد الديـــــن

وتعود الصلة بيـــن رشيد الديـــن وبيـــن المغـــــول الـــى اليـــوم الذي حقق فيه هولاكو انتصاراته الحاسمـــة في زحفـــه الطويل فكان مما خضع له قلعة الموت حصــــــن الاسماعيليين الحصين فاستسلم حاكمها ركن الدين خورشاه واستسلم معه فيمـــن استسلم ثلاثة من نزلاء القلعة هم نصير الديـــن الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمذانـــي. فقتل هولاكو الجميع واستثنى من القتل هؤلاء الثـــلاثـــة لا رحمة بهم ، بل حاجة اليهم لان الاول كان فيلسوفا كبـــيرا وفلكيـــا مشهورا والثانـــي والثالث كانا طبيبيـــن معروفين. وكان هولاكو بحاجة لهذا النوع من الرجال فالزم الثلاثـــة

صحبته وامرهم بمرافقته والسير في ركابه .

والطبيب موفق الدولة هو جد الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

ولسنا ندري الى اي مدى استمرت صلة الجد بالمغول، ولا نوع الصلة التي كانت بعد ذلك للاب بهم ولكننا نعلم ان رشيد الدين كان من اعوان غازان السلطان المغولي المسلم المقربين وخلصائه الاثيرين .

على ان ما يرويه رشيد الدين نفسه قد يدلنا على ان صلة الاسرة بالمغول ظلت مستمرة وانها تعمقت بعد اسلامهم ، فرشيد الدين يقول عن نفسه : « على هذا النحو كنت استغل اوقات فراغي ، وذلك لانني الحقت بقصر السلاطين منذ شبابي الغض » .

ولا بد ان الذي الحقه بالقصر هو ارتباط ابيه بذلك القصر بعد ارتباط جده . ويبدو لنا ان ذلك الارتباط كان في تسلسله ارتباط اسرة عرفت بالطبابة ومهارتها بها وانه كما كان الجد طبيب القصر المغولي كذلك كان الاب ثم كان الحفيد .

سيرة رشيد الدين

ولد رشيد الدين في مدينة همذان سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) على الارجح . اذ انه يحدثنا انه كان في سنة ٧٠٥ في حدود الستين من حياته . وقبل غازان كان على صلة بأباقا خان وخلفائه مكرما عندهم معنيا به في بلاطهم . ولكننا لا نعلم انه تولى منصبا كبيرا قبل غازان الذي ولي الملك سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٥ م) .

ونحن نعلم ان اول من اسلم من ملوك المغول هـو (تكودار) بـن هولاكو الذي ولـي الملك بعد اخيه (اباقا خان) وتسمـى بأحمد . وكان اباقا خان قد عهـد بالملك الى ابنه (ارغون) . ولكن آل الجويني ومن والاهم من الامـراء والقواد لم يدعوا ارغون يتولـى الملك ونادوا بتكودار ملكا سنة ٦٨٠ ولم يطل الامر اكثر من ثلاث سنيـن حيث استطاع ارغون التغلب علـى عمـه الامير (احمد تكودار) وقتلـه وتولـى الملك بعده . وفي عهـد ارغون انتعشت الوثنيـة من جديد كمـا اشتد نفوذ اليهود . وبعد ارغون تـولـى ابنه غازان الذي كان اول ملك مغولـي يؤدي الصـلاة في المساجد الجوامع فيحذو حذوه الامراء والكبراء وجمهـرة الشعب المغولي . وكانت صلة رشيد الديـن بغازان في اول امرها صلة علميـة بحتة . وكان السلطان يغتنم فرصة لقائه برشيد الديـن ليذاكره في مبادىء الاسلام وتفسيـر القرآن ويستوضحه ما خفـي علـيه من شؤون الديـن ، وليجول معه في امور العلم والفكر .

ثم ولاه المنصب الاول في الدولة وجعله وزيرا له ، بعد مقتـل الوزيـر السابق صدر الديـن الزنجانـي ، الذي اودى به سعيه برشيد الدين عند غازان ومحاولة الايقـاع به لديه ، فادى ذلك الى مقتله واحلال رشيد الديـن محلـه عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧ م) واشرك معه في الوزارة سعد الديـن الساوجـي .

ثم مات غازان وتولى الحكم بعده اخوه الجايتو خدابنده فحفظ للوزيريـن منصبيهما وظلت لرشيد الديـن نفـس

المنزلة التـــي كانت له عنـــد غازان .

وكمـــا حيكت له الدسائس لدى غازان اخـــذت الدسائس تحاك له ولزميله سعد الدين لدى : خدابنـــده) فنجـــا منها رشيد الديـــن مرارا في حيـــن انها ادت الـــى مقتـــل زميله سعد الديـــن واحلال علـــي شاه محله الذي أخـــذ يدس على رشيد الديـــن دون ان ينجـــح في دسائسه . ومات الجايتو خدابنده ورشيد الدين علـــى مكانته . وتولـــى بعد خدابنده ولده ابو سعيد والتنافر بيـــن الوزيرين على اشده ودسائس علـــي شاه لدى ابـــي سعيد تتوالى حتـــى نجح في حمـــل السلطان علـــى اقصائه عن الوزارة سنـــة ٧١٧هـ (١٣١٧ م) . علـــى ان مساعي اصـــدقائه اعادته من جديد الـــى الوزارة بعد ان تردد واحجم . ولكن هـــذه العودة كانت السبب في وصوله الـــى نهاية المحنة . اذ اتهمه زميله علي شاه بانه سمم السلطان خدابنده وبعد مناقشات طويلة اقتنـــع ابو سعيـــد بان رشيد الديـــن ان لم يسمم اباه فهـــو علـــى الاقل وصف له دواء كان السبب في موته . وبالرغـــم من ان التهمـــة كانت واهيـــة فقد سيطرت علـــى ابـــي سعيـــد فأمر بان يقتل رشيد الديـــن وان يقتـــل معه ولده اليافع ابراهيم الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمـــره بدعوى انه هو الذي ناول الدواء بنفسه للسلطان . فقتل ولده امام عينيه ثم قتل هو سنة ٧١٨هـ (١٣١٩ م) وقد بلـــغ الثالثة والسبعيـــن من عمـــره .

ولم يلبث بعد ذلك ابو سعيد ان ادرك انه كان مخطئا فيمـــا اجراه علـــى رشيد الديـــن وولده ، وشاء ان يكفـــر

عمـــا فعل فاستدعـــى غياث الديـــن احد اولاد رشيد الدين وعهـــد اليـــه بالمنصب الذي كان يشغله ابوه في الوزارة .

الربع الرشيدي

انشأ رشيد الديـــن في تبريز ضاحية اطلق عليها اسم الربع الرشيدي وعنـــي بها عناية فائقة . علـــى ان اكثـــر ما يهمنـــا من تلك الضاحية انه انشأ فيها مكتبة حافلة جمع فيها من صنوف الكتب ما قل ان يجتمع مثيله في مكتبة .وكانت تحتـــوي علـــى ما لا يقل عـــن خمسيـــن الف مجلد .

ولما نكب وقتل كان من افجع اثار النكبـــة احـــراق تلك المكتبة بكل ما فيها . ولدينا الكثير من الكتب التـــي لـــم يصلنـــا الا اسمها وكانت فيمـــا تحويه مكتبة الربع الرشيدي وذهبت كلها طعمـــة للنار . ويكفـــي ان نذكر منها مؤلفـــات ابـــن الفوطـــي وحدها .

المثقـــف المسلم والعالم العالمـــي

هذا تلخيص لحياة رشيد الدين السياسية ، وهـــي حيـــاة مهمـــا كان قد اوتـــي فيها من كفاءة وتفوق في حســـن تصريف الامور ، ومهمـــا كتب له من النجاح في ميادينها ، فهـــي علـــى كل حال حياة كحيـــاة كل السياسيين المتفوقين منهم وغير المتفوقيـــن ، الذيـــن لا يلبث اسمهم ان يضيـــع في طيـــات الزمن ويختفـــي في اغوار الدهر . ولو كانت هذه الحيـــاة هـــي كل ما كان لرشيد الديـــن لما وجد مـــن يشغل نفسه بها ويلفت قراءه اليها .

ولكن لرشيد الدين حياة اخرى هي التي تعنينا في هذا البحث ، وهي التي عنت قبلنا غيرنا من الكاتبين : هي حياة العالم المفكر المؤرخ ، وهي حياة اكسبت رشيد الدين الخلود ، وجعلته من احياء الذكر على طول الدهر .

يقول المستشرق الفرنسي (كاترمير) في مقدمته التي كتبها لكتاب جامع التواريخ : « اذا غضضنا النظر عن الطب الذي اقبل رشيد الدين على تعلمه منذ زمن مبكر ، وعن شتى فروع المعرفة الاخرى التي ترتبط بهذا العلم برباط مباشر ، وجدنا انه ايضا لم يهمل دراسة الزراعة والهندسة والميتافيزيقا واللاهوت . وكان يحيط احاطة تامة بكثير من اللغات وهي : الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما الصينية » .

ويقول عنه ايضا « كان مولعا بالمعرفة اشد الولع فاستطاع رغم كل هذه المشاغل والموانع ان يجد لنفسه الوسيلة لمعالجة الاداب والعلوم والاحاطة بالدين الاسلامي الى اعمق حد » .

ويبدو مما ذكره الفقيه الكبير الحسن بن يوسف بن المطهر ، المعروف بالعلامة الحلي في بعض كتبه ان مجالس رشيد الدين في عهد وزارته كانت مجالس علمية ومباحث اسلامية تعرض فيها شتى البحوث وتطرح مختلف الاسئلة لا سيما المتعلق منها بالاسلام . وان بعض من كان يحضر كان يسأل رشيد الدين عن دقيق الامور ، وكان رشيد الدين يجيب ويناقش .

وقد ذكر العلامة الحلي انه حضر بعض تلك الجلسات في عهد السلطان الجايتو خدابنده واستمع الى سؤالين اسلاميين طرحا على رشيد الدين وانه اجاب عنهما . ولشدة اعجاب الحلي بجواب رشيد الدين فقد دون السؤالين والجوابين • يقول العلامة الحلي ما نصه : (وحضرت في بعض الليالي للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلك الليلة سؤالين مشكلين فاجاد في الجواب عنهما) .

والواقع ان رشيد الدين كان يمثل المسلم المثقف ، الرفيع الثقافة كما كان يمثل العالم العالمي ، باوسع ما تعنيه هذه الكلمات من معنى . ولو لم تشغله السياسة ، ولو لم يغره الحكم لكان له من الشأن فوق الذي كان . اذ انه لم يعط الجانب الثقافي الا بعض العطاء ومع ذلك فقد كان له فيه مثل الذي رأينا .

واذا كان لرشيد الدين من الكتب مثل (التوضيحات) و (مفتاح التفاسير) والرسالة السلطانية) و (الاحياء او الاثار) و لطائف الحقائق) و (بيان الحقائق) ، فلا شك ان قمة اعماله التأليفية هي ما كتبه في التاريخ في كتابه (جامع التواريخ) .

قصة جامع التواريخ

يعود الفضل بالدرجة الاولى في تأليف هذا الكتاب الى السلطان غازان الذي شاء ان يكون للمغول تاريخ مكتوب . وكان لا بد في الرجوع في تسجيل هذا التاريخ الى مصادر معروفة واحداث مكتوبة تكون المادة الاولى للمؤرخ

الذي يأخذ علــى نفسه القيام بهذا العبء .

وكان سلاطيــن المغول يحتفظــون في خزائنهم بوثائق مكتوبة بلغتــهم فيها تدويــن لكثير من وقائعهم ، كمـــا كان كثير من الاسر المغوليـــة العريقة يحتفظ بمثل هذه الوثائق . وكان كل ذلك يحتاج الــى من ينظمه وينسقه ويستخلــص منه الحقائق ، ويخرج منه اصولا لتاريخ يمكن ان يدون .

واهتــم غازان بهذا ونضجت الفكرة في ذهنـــه فعمل علــى تحقيقها ، ولم يكــن في بلاطه افضل من رشيد الدين من يمكــن ان يعهد اليه بانجاز تاريخ المغول وتدوينه . فاودع لديه كل ما كان تحت يده من وثائق وعهد اليه باستطـــلاع ما يمكنه استطلاعه من المدونات الاخرى او الروايات غــــير المعروفــة .

فقام رشيد الديــن بالمهمـــة علــى افضل وجوههـــا وعكف علــى انجازها بقدر ما تسمح له به ظروف اضطلاعه شؤون الادارة والحكم .

ولما اوشك الكتاب علــى التمـــام كان غازان قد توفي ٧٠٢ (١٣٠٣) وورث عرشه اخوه (الجايتو خدابنده) فلم يكــن اقل اهتماما من اخيه بانجاز هذا التاريخ ، بل زاد عليه بان طلب الــى رشيد الديــن ان يشير الــى الشعوب التي اتصل بها المغول ويعرض لتاريخها وان يضيف الــى ذلك دراسة شاملة لكل الشعوب .

ولم تأت سنة ٧١٠ (١٣١٠) حتــى كان الكتاب قد انتهــى مكتوبا باللغة العربـــة واللغة الفارسية باســـم (جامع التواريخ) واودع مكتبة المسجد الذي كان رشيد الدين

تد بناه في مدينة تبريز .

ويصف كاترمير الكتاب قائلا : « الواقع ان تاريخ رشيد الدين قد اعتمد في تاليفه على فحص الوثائق الوطنية الصحيحة المحفوظة في سجلات الامبراطورية والمذكرات التي في حوزة الاسر الكبيرة وقام بتأليفه رجل صادق حي الضمير ، وبذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق » .

وينقل كاترمير عن المخطوطة العربية وصفا لمنهج رشيد الدين وطريقته في التدوين بقلم رشيد الدين نفسه : « استطيع ان اشهد لنفسي باني لم ادخر اي احتياط او جهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف او مشكوك فيه . وقد اقتبست دون اي تغيير ما انطوت عليه اصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التي حازت احسن التقدير والمعلومات التي استقيتها من اعلم الرجال في كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الانساب . وحققت هجاء اسم كل امة وكل قبيلة » .

الواقع اننا نستطيع ان نعد ميزة التجرد اولى الميزات التي اتصف بها رشيد الدين في تاريخه ، وان نوقن بانه سعى وراء الحقيقة سعيا مخلصا شجاعا ، ولم يراع جانب المغول وهو يتحدث عما في تاريخهم من فظائع ، وكان كما قال عنه كاترمير : « اذا كان يبدو في كتابه مسلما صادق الاسلام ، فانا نراه من جهة اخرى يتجنب الاطراء غير المجدي ويتمسك دائما بنزاهة في الراي تستحق كل اجلال ، ولا سيما اذا كانت من مؤرخ » .

ويقول ايضا : « يذكر دون مواربة ولكن دون مبالغة

ايضا ضروب القسوة الشنيعة التي ارتكبها هذا الشعب (المغولي) وتخريب اعظم المدن واكثرها ازدهارا وتذبيح السكان العديدين دون قلق او ندم ، كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التي قاموا بها في مساجد بخارى وغيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف والقوا بها ارضا وصنعوا من اغلفتها الثمينة مذاود لخيلهم » .

تاريخ هولاكو

عندما نراجع كتاب تاريخ هولاكو ونتجاوز ما فيه من ذكر المذابح والاهوال التي رافقت هولاكو ومشت معه في كل خطوة خطاها مما نص عليه رشيد الدين نصا واضحا، وعندما نقف عند محاولة المغول غزو مصر ، وتصميم الملك المظفر سيف الدين قطز على المقاومة والقتال وما انتهى اليه الامر بعد ذلك من الظفر .

نرى ان هذا القسم قد حوى من الحقائق واوضح من الخوافي ما لم يكن ممكنا الوصول اليه في غير هذا الكتاب . لقد ابرز لنا مثلا مقدمات معركة عين جالوت والاحداث التي ادت الى تلك المعركة ابرازا لا نجد له مثيلا في غيره . وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد امامنا ما يمدنا بمثل ما امدنا به رشيد الدين في كتابه .

وعندما يصف المؤتمر العسكري الذي عقده وترأسه الملك المظفر سيف الدين قطز ، فانه يذكر كل الكلمات والجمل التي وصفت هولاكو بما هو فيه والتي صورته سفاكا غادرا لا يرعى الا ولا ذمة ولا يحفظ عهدا ولا امانا .

انه يذكر مثلا عن لسان ناصر الدين قيمري من كبار اعضاء المؤتمر قوله عن هولاكو : « لا يتورع عن احتزاز الرؤوس . وهو لا يفي بعهده وميثاقه » .

ويذكر عن لسان سيف الدين قطز قوله واصفا ما جرى في البلاد التي مر بها هولاكو : « ان كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضي على جميع ما فيها من حرث ونسل » .

حقائق اخرى

من الحقائق التي عرفناها في كتاب (جامع التواريخ) حقائق مذهلة حقا . فلم يكن يدور في خلدنا ان المحرضين للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين . وان قاضي القضاة شمس الدين القزويني كان هو المحرض والمصر على التحريض والثابت عليه . فان هذا القاضي او قاضي القضاة هذا كان لا يحتمل وجود الاسماعيليين في قلاعهم المنيعة التي ارتدت عنها جحافل جنكيز ، فكان لا يفتأ يتوسل الى منكوخان بمختلف الوسائل المثيرة ليحمله على توجيه هولاكو لمباشرة الغزو والتقدم الى القلاع الاسماعيلية .

ولقد سار هولاكو وشعار حملته القضاء على الاسماعيليين الذين كان يسميهم الملاحدة . ويحدثنا رشيد الدين عن ذلك قائلا عن هولاكو : « ثم ارسل عدة رسل الى الملوك والسلاطين في ايران تشتمل على تلك

العبارات : « بناء على امر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة ... » ..

تدابير ابن العلقمي

ويعرض لنا رشيد الدين التدابير المحكمة التي كان يعدها ابن العلقمي لدفع عادية المغول وكيف كان يفسدها الدوادار الصغير مجاهد الدين ، كما يحدثنا عما يشبه المؤتمر الذي عقده من يسميهم امراء بغداد وعظماؤها في منزل ابن العلقمي الذين كان منهم سليمان شاه والذي اضطر على حضوره ــ على ما يبدو ــ الدوادار نفسه وكيف حمل الحاضرون على ضعف الخليفة مستشعرين الخطر الداهم . وكيف قام ابن العلقمي بعد ذلك باعداد الجندوعرضهم وكيف كان نقص المال يحول دون اكمال الاعداد وكيف ان الخليفة رفض مد الجند بالمال مما افسد خطط الوزير ..

ثم يشير رشيد الدين الى حقيقة اتهام ابن العلقمي قائلا :

« ولما كان الدوادار ــ في تلك الفترة ــ خصما للوزير فان اتباعه من سفلة المدينة واوباشها كانوا يذيعون بين الناس ان الوزير متفق مع هولاكوخان » .

كما يشير الى ان سليمان شاه حين احضر بين يدي هولاكو واستجوبه هولاكو متسائلا كيف لم يشر على الخليفة بما فيه الراي ، وان سليمان شاه اجابه بان الخليفة لم يستمع لنصح الناصحين .

حقـــائق وحقائـــق

ومما يثير النفس اســـى ان المستعصم الذي رفض ان يجود بالمال لاعداد الجيش وتنظيمه كمـــا اراد ابن العلقمي، يضطـــر بعد ان دخل المغول بغداد لان يكشف لهولاكو عـــن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الارض حتـــى وجدوه وكان مليئا بالذهب الاحمـــر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، كمـــا يروي رشيد الديـــن .

ثم يقول : وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قـــد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه علـــى بعض فكان كجبل علـــى جبـــل .

بعـــد فـــوات الاوان

وبعد فوات الاوان يدرك المستعصم ان ما قد أشار به ابـــن العلقمـــي كان هو الصواب وانه لو عمل بآرائه لمـــا وصل الحال الـــى ما وصل اليه ..

ولما استدعاه هولاكو عاد يستشير ابن العلقمـــي قائلا له : ما حيلتنا ؟.. فقال ابـــن العلقمي : « لحيتنا طويلة » . وكان مراده منذلك ـــ كمـــا نص رشيد الدين ـــ : (انه عندما فكر اول الامر في ان ترسل احمال وفيرة لدفع هذا البلاء ، قال الدوادار : « لحية الوزير طويلة » وحال دون الاخذ بهذا الرأي واستمع الخليفـــة لكلامه واهمل تدبير الوزير) .

ولا شك ان الامر الان قد خرج عـــن كل تدبير ورأي .

ومن صراحة رشيد الديـــن استعماله كلمة الشهـــادة

لمن يقتله المغول كما قال عن تاج الدين بن صلايا الاربلي : « ... وعند محاكمته ثبت جرمه واستشهد » .

كذلك يشير الى ما بلغ اليه الملوك من الهلع الذي حملهم على الاستخذاء استخذاء مزريا : فهو مثلا يحدثنا عن السلطان عز الدين صاحب الروم ، انه عندما فتحت بغداد أمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه لهولاكو اثناء معاتبته اياه . وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة قبل عز الدين الارض وقال : (ان املي هو ان يشرف الملك راس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها) .

مجلدات الكتاب

يشتمل كتاب جامع التواريخ على اربعة مجلدات : الاول : يتعلق بتاريخ المغول المشتمل على تاريخ القبائل التركية المغولية واجداد جنكيز ، ثم جنكيز نفسه ومن بعده خلفاؤه حتى غازان . والثاني : يتعلق بتاريخ الفرس قبل الاسلام ، ثم التاريخ الاسلامي الى سقوط بغداد ، ثم الامم التي اتصل بها المغول في فتوحاتهم ، والثالث: يشتمل على ابعد عصور التاريخ حتى اخر خلفاء بني العباس . والرابع : يشتمل على تفصيل حدود الاقاليم السبعة وولايات ممالك العالم .

على ان كاترمير يقول : لدينا الجزء الاول من كتاب رشيد الدين وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول . وانه الكتاب الوحيد الذي نستطيع العثور فيه على اصدق

المعلومات عن حياة جنكيز خان وخلفائه وعن عهودهم .

ثم يتساءل كاترمير : هل الاجزاء الثلاثة الاخرى قد ضاعت دون امل في العثور عليها ؟ وكان في نية كاترمير تحقيق اكثر ما يمكنه تحقيقه من المجلد الاول ولكنه لم يستطع تحقيق سوى القسم الخاص بهولاكو ونشره بالفرنسية مع مقدمة نفيسة طويلة سنة ١٨٣٦ .

ويقول يحيى الخشاب : ان حديث كاترمير عن (جامع التواريخ) قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية اكتشاف اجزاء منه لم تكن قد عثر عليها ايام كاترمير او من ناحية النشر .

ومن امثلة ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٨٥٨ وهي قسم من الجزء الاول متعلق باجداد جنكيز وتاريخ جنكيز نفسه . وكان اخراج آخر جزء من هذا البحث سنة ١٨٨٨ باللغة الفارسية مع الترجمة الروسية وقد اخرج هذه الاجزاء المستشرق الروسي (برزين) .

كما صدر بعد ذلك ابتداء من اوائل هذا القرن اكثر من قسم من المجلد الاول كهذا الذي نشره المستشرق الفرنسي (بلوشيه) سنة ١٩١١ والذي نشر في ايران سنة ١٩٣٧ والذي نشره المستشرق التشكسلوفاكي (كارل) سنة ١٩٤٠ وكذلك سنة ١٩٤١ .

وهكذا يمكن القول ان المجلد الاول من جامع التواريخ قد نشر كله . كما نشر كارل يان سنة ١٩٥١ القسم المتعلق بالفرنج من المجلد الثاني .

في اللغة العربية

كان عبد الوهاب عزام اول من دعا في العرب لنشر (جامع التواريخ) وترجمته والقى عام ١٩٤٧ محاضرة في الجمعية الجغرافية عن رشيد الدين تحدث فيها عن كتابه وضرورة القيام بنشر القسم العربي منه وترجمة بقية الاجزاء الى اللغة العربية .

ثم مضت عهود وعهود فكان ان قررت ادارة الثقافة والارشاد القومي في مصر ان تقوم بنشر هذا التاريخ . ولكننا لا نعلم انه صدر في اللغة العربية غير قسم من المجلد الثاني الجزء الاول وهو (تاريخ هولاكو) . نقله الى اللغة العربية كل من محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب ، وطبع سنة ١٩٦٠ .

كما نشرت مع هذا القسم السيرة الطويلة النفيسة لرشيد الدين التي كتبها المستشرق الفرنسي كاترمير والتي ترجمها محمد القصاص .

وكذلك نشر الجزء الثاني من المجلد الثاني ..

ووعد يحيى الخشاب في آخر مقدمته بنشر ما ينجز من الكتاب اولا بأول . ولا نعلم بعد هل تحقق شيء من هذا الوعد ام لا .

حرص رشيد الدين على حفظ مؤلفاته

كان رشيد الدين حريصا على ان تصل مؤلفاته لا

سيما جامع التواريخ الى الاجيال الآتية . وقد كان يعلم ما كان يمكن ان يكون عليه ، او ما كان عليه مصير كثير من الكتب حين لا يكون في ايدي الناس منها الا نسخ محدودة تذهب بها ايدي الحدثان لا سيما في العصور التي تكثر فيها الفتن وتعم الفوضى .

لذلك حرص اشد الحرص على ان يتخذ طريقة يكتب لمؤلفاته معها الوصول من جيل الى جيل ، فاستكتب عدة نسخ من كتبه مفردة ومجمعة ، بالفارسية وبالعربية . كما استكتب مجلدا ضخما ضم كل مؤلفاته بالفارسية والعربية زيادة منه في الحرص على حفظها . واودع ذلك في البناء الكبير الذي شاده في الربع الرشيدي ليكون مدفنا له . ثم توسع في الاحتياط فوقف قسما من ثروته لكتابة نسخة بالفارسية ونسخة بالعربية في كل عام من مجموعة مؤلفاته كلها لترسل الى مدينة من مدن الاسلام الكبرى وتوقف على اهل تلك المدينة ، وكتب في ذلك وصية جميلة طريفة مؤثرة .

ولكن كل ذلك الحذر لم يفد وضاع ما ضاع من مؤلفاته ووجد ما وجد شأنه شأن كل المؤلفين في تلك العهود .

ولعل هذا الحرص هو الذي اوصل الينا ما وصل ، ولولاه لضاع الجميع ، وقد كان مطمئنا الى بناء الربع الرشيدي الذي حفظ فيه كتبه ، ولكن الربع كله نهب بعد نكبته واحترقت مكتبته كما قلنا .

مــن مــلامح الدولة الفاطمية

يقول الدكتور حســن ابراهيم حســن من عمــداء جامعة القاهرة واساتذة التاريخ السابقيــن فيها وهو يتحدث عــن كتاب (المجالس والمسايرات) للنعمان بــن محمــد : (وعرض النعمــان غير مرة لعلاقة المعز (الفاطمــي) بالدولة البيزنطيــة فاوضح اعتمــاد حاكم الاندلس عبــد الرحمــن الناصر الاموي علــى الروم في صراعــه مــع الفاطمييــن وصور ما حل بالروم وحلفائهم امام اساطيــل المعز تصويرا رائعا وذكــر الرسائل التــي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطيــة لاستدرار عطف المعز ومهادنته ولاول مرة نسمع أن مسلمــي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباســي يطلبون النجدة من المعز (الفاطمي) لحرب الروم ومن دراستنا للوثائق التــي تبودلت بيــن اهل قريطش وبيــن المعز لديــن الله نرى ما وصلت اليــه الدولة الفاطميــة من قوة ونفوذ ».

ويقول الدكتور محمــد كامل حسيــن من اساتــذة جامعــة القاهرة :

فالقاهرة الفاطميــة اصبحت مطمــح انظار العلمــاء ومحط رحال الطلاب وفي العصر الفاطمــي استطاعت مصر ان تنتزع زعامة العالم الاسلامــي في الحيــاة العلمية .

ويقول ايضا : وكان الفاطميون يهتمون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الاخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد .

ويقول ايضا : وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب وقد اوقفوا ارزاقا ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما اهلوا انفسهم له .

ويقول ايضا : وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم ويقول ايضا : ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وفنونها ، وتعددت مراكزها في مصر ، وكانت حلقات الدرس في المساجد او الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتنيس في الشمال وفي اسوان وقوص في الجنوب ، كما كان امراء الاقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء وعن مصر الفاطمية اخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب .

ويقول الدكتور مصطفى مشرفة : انه كان للمالكية في الازهر الفاطمي خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها ولاصحاب ابي حنيفة ثلاث حلقات ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحاكم بامر الله بالذات : والحاكم بامر الله لما امر بعمارة دار العلم ونقل اليها الكتب من القصر اسكنها من شيوخ السنة شيخين احدهما ابو بكر الانطاكي وخلع عليهما وقربهما .

الوحدة بعد التجزئة

هذه الصور المشرقة التي جلاها لنا فريق من

الباحثين عن الدولة الفاطمية هي في الحقيقة نقاط من بحر الواقع الذي كانت عليه تلك الدولة ، وما بلغته في الميادين النضالية والفكرية والعلمية ، وسنحاول هنا عرض ما يسمح به مقال محدود السطور مقيد المكان .

كلمة الدكتور حسن ابراهيم حسن تشير اشارة خاطفة الى امور خطيرة في حياة هذه الدولة منها انها كانت ضرورة من ضرورات العالم الاسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين وتفرقت كلمتهم وتلاشت دولتهم واصبحوا يتطلعون الى الحمى الذي يمكن ان يلجأوا اليه من الخطر الداهم المهدد لوجودهم بتزايد قوى الروم واصرارهم على غزو الاسلام في دياره واسترداد ما اخذه منهم والثأر الماضي البعيد حتى ان نقفور فوقاس لم يكن يخفي مطامعه الهوجاء في الزحف الى الحجاز نفسه والوصول الى مكة والمدينة .

في هذا البحران الرهيب كان المنقذ منه نشوء دولة فتية وزعامة قوية تجمع حولها ما تشتت من القوى وتوحد ما تفرق من البلاد فكانت الدولة الفاطمية هي المنقذ فجمعت الشمال الافريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة في وحدة متماسكة جعلته دولة بعدما كان عدة دول متطاحنة متقاتلة .

وليس الشمال الافريقي هينا حين تتجمع قواه وتتوحد كلمته وليست موارده قليلة حين يقدر لها قيادة حكيمة حازمة .

في مواجهة الاخطـــار

وهكذا رأينا تلك الدولة الفتيـــة ترتفع من بين الزعازع، وتقوم شديدة لتواجه الخطر الداهم بعد ان اخذت اطـــراف البـــلاد الاسلامية تنتقص واحدة بعد الاخرى مما عبـــر عنه شاعر ذاك العصر ابن هاني الاندلسي عند قوله :

فمدينة مـــن بعد اخـــرى تستبـــى
وطريقة من بعـــد اخرى تقتفـــى
حتـــى لقـــد رجفت ديـــار ربيعـــة
وتزلزلت ارض العراق تخوفـــــا
والشام قد اودى واودى اهلـــه
الا قليـــلا والحجـــاز علـــى شفا

وقد كان تعبير هذا الشاعر تعبيرا واضحا يعطـــي الصورة الحقيقيـــة للوضع الاسلامـــي في تلك الايام ، ويبين بجـــلاء حالة الدنيا العربيـــة وما كانت فيه ، وهو من الشعر الواقعـــي النادر الذي يرسم الحقيقة الوطنيةعلـــى اصدق حـــالتهـــــا . . .

الشام قد اودى الا قليلا ، والحجاز على شفا ، اما بقية الاقطار كديار ربيعة والعراق وغيرها فاذا كانت بعيدة عـــن الخطـــر الان ، وهو غير مساور لها مباشرة فقد كانت راجفة متزلزلة حزنا علـــى ما جرى وخوفا مما سيأتي ، وهـــــذا لعمـــري من افضل ما يمكـــن ان يعبر عنه شعر الامم في مآسيها ونوازلها .

ثم ينطق الشاعـــر بلسان العالم الاسلامـــي معبـــرا عـــن الامل العظيم بالدولة الجديدة :

لا تيأسوا! فالله منجـز وعـــده
قد آن للظلمـــاء ان تتكشفــــا

التصدي للعـــدو

ولنقف قليـــلا لنرى ما هـــي حقيقة الحال الذي يصوره الشـــاعـــر :

يقول الدكتور محمد جمـــال الدين سرور استاذ التاريخ الاسلامـــي في جامعة القاهرة : « اتجهت سياسة الفاطميين بعد ان امتد نفوذهم الـــى مصر في عهد المعز لديـــن اللـــه الفاطمـــي سنـــة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) الـــى استعادة المـــدن التـــي استولـــى عليها البيزنطيـــون في شمال الشام » .

وهكذا نـــرى ان الوحدة لم تقتصر علـــى الشمـــال الافريقـــي وحده بل تعدتـــه الـــى بلاد اخرى ، تعدته الـــى مصر نفسها ثم تعدت مصر الـــى فلسطين وسورية ولبنـــان وكذلك الـــى الجزيرة العربيـــة وحيـــن يلتقـــي الشمـــال الافريقي في وحدة مع مصر والشام وغيرهما وحين تتولى مصر بكل امكانياتها وكفاءاتها زمام هذه الوحدة الكبرى يكون الامـــر بعثا اسلاميا شاملا ووثوبا عربيا كاسحا ، وهكذا اصبحـــت الدولة الجديدة ذات كيـــان خطير قضـــى علـــى الدويلات وجمع الشمل في اطار يشدها شدا لتواجه الاحداث الرهيبة ، وكان في اولها حفظ بلاد الشام واسترداد ما تساقط منها في ايدي الروم الذين وصلوا في احدى نوباتهم في عهد الامبراطور حنـــا زيمسكيس سنة ٩٧٥ الـــى حمص وبعلبك واضطرت دمشق نفسها الـــى التسليم ودفع الجزية لهم ثم ســـــاروا

فاستولوا علـــى بعض مدن الساحل مثل صيدا وبيروت .

(فالشام قد اودى الا قليلا) كما قال الشاعر .

وظل الروم يتقدمون وظلت الاستعدادات الفاطميـــة تتوالــى لانقاذ الشام حتـــى اصطدمت بالروم في طرابـلس الشـــام برا وبحرا فاوقعت الهزيمة بهم فارتدت قواهم الــى انطاكيـــة ..

الاسطول العظيـم

وقد كان للاسطول الفاطمـــي الشأن العظيـــم في دفع عادية الروم والافرنج ولقد كان الفاطميـــون بعيدي النظــر حيـــن ادركـــوا ان الجيوش البرية وحدها لا تكفـــي لحماية العالم الاسلامـــي وانقاذ الوطـــن العربي فأنشأوا اسطولا ضخـــما حمـــى البلاد من الهجمـــات البيزنطيـــة ثم دافـــع عنهـــا بعد ذلك في الحروب الصليبيـــة .

وفي هذا الاسطول يقول بعض المؤرخيـــن : « بلغ عدد ربـــابنـــة اسطول الفاطميين خلال القـــرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خمسة الاف ربان وعدد ســـفنه مائتـــي سفينة واضطـــر الافرنج الى الانحياز بمراكبهم الـــى الجانب الشـــمالـــي الشرقـــي من البحـــر المتوسط لا يبرحونه لان هذا البحـــر يسيطـــر عليـــه الاسطول الفاطمـــي من مضيق جبل طارق حتـــى بيروت » .

ظلم ذوي القـــربـــى

ولقد كان من افجع ما عاناه الفاطميـــون ان غيرهم

كان يستعين عليهم بالاجنبي الفاتح فبينما كانوا يناضلون لحماية البلاد ورد الافرنج والروم عنها كان حكام الاندلس يحرضون عليهم الروم ويستعينون عليهم بهم . وكان امير حلب يستنجد بباسيل الثاني امبراطور الروم سنة ٣٨١ ولكن القوات الفاطمية تصمد للروم وتلتقي بهم على نهر العاصي فتهزمهم ، وكذلك يثير عليهم (علاّقة)ثورة في صور ثم تكون فاتحة اعماله الاستنجاد بالروم وبالامبراطور باسيل الثاني ، ولكن الحركة تنتهي بهزيمة البيزنطيين وحليفهم علاقة .

والامير حسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة في فلسطين يستنصر بالبيزنطيين ويستعديهم على اهله هو الآخر .

بل ان فقيها من الفقهاء وحافظا من الحفاظ يبدو انه من الرملة نفسها هو الحافظ محمد بن احمد بن سهل الرملي(١) يقول : « لو كان معي عشرة اسهم لرميت الروم بسهم ورميت المغاربة(٢) بتسعة » وقد عمل اميره حسان بن مفرج بهذه الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى فالقى بسهامه العشرة كلها على الفاطميين ولم يلق ولا بسهم واحد على الروم بل اضاف سهامه الى سهامهم فسلطوها مجتمعة على (افامية) فغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها واسروا كثيرا من اهلها .

١ — يسميه بعض المؤرخين باسم اخر .
٢ — اي الفاطميين .

الجبهـــة الغــربيــة

وقد كان الفاطميون مضطرين لان يحاربوا علـــى ثلاث جبهات هـــي الجبهـــة الشرقيـــة جبهة بلاد الشام لدفع الروم عنها والجبهة الداخلية ليتقوا دسائس بنـــي جنسهـــم ، والجبهة الغربيـــة جبهة اوروبا التي كانت قد استغلت ضعف القوى الاسلاميـــة وتمزقها الـــى دويلات فاخذت تهاجم البلاد بلدا بعد بلد فراحت هذه البلاد تستنجد بالفاطميين كمـــا رأينا فيـــما فعلتـــه جزيرة كـــريت .

وكانت اوربا تحاول ضرب الدولة الجديدة قبل ان يستد ساعدها ويعلو امرها فهاجمتها في مواقعها الاوروبية لتقضي عليـــها فيهـــا ولكـــن الفاطميين صمدوا لاوروبا في بلادهـــا كمـــا صمدوا لها في بلاد الشام وغير بلاد الشام ويحدثنـــا ابـــن الاثير عـــن واحدة من المعارك الرهيبة التـــي خاضها الفاطميـــون في سبيل صون الوطن الاسلامـــي سنة ٣٥٤ وذلك قبل امتداد دولتهم الـــى مصر ، ولما كانت هذه المعركة من اروع الصفحات في تاريخنـــا العسكري فأننا ننقل وصفها بنصه من ابـــن الاثير :

« ... ذلك ان احمـــد بـــن الحسن والـــي المعـــز علـــى صقليـــة ارسل يستمـــده فبعث اليه المعز المـــدد بالعساكـــر والاموال مع ابيه الحسن وجاء مدد الـــروم فنزلوا عبـــر سهل (مسينـــي) وزحفوا الـــى رمطة ومقدم الجيش الفاطمـــي الحســـن بـــن عمار وابـــن اخـــي الحســـن بـــن علـــي .

فاحاط الروم بهم وعظم الامر علـــى المسلميـــن

فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت ايديهم بالغنائم والاسرى ، ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب فل الروم من صقلية وجزيرة (ريو) في الاساطيل ناجين بانفسهم فاتبعهم الامير احمد واصحابه في الماء واحرقوا كثيرا من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي احد على احد) .

وكما كانت هذه الواقعة صفحة رائعة في تاريخنا الحربي ونضالنا في البر والبحر فكذلك كانت في تاريخنا الادبي حيث خلدها الشاعر محمد بن هاني الاندلسي بقصيدة فريدة يخاطب بها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تعد من اسمى ما في تراثنا الشعري من روائع الكفاح البطولي يقول ابن هاني في مطلعها :

يوم عريض في الفخار طويل
لا تنقضي غرر له وحجول

وكانت لهذه المعركة نتائجها الحاسمة لاعلى الجبهة الغربية وحدها بل حتى على الجبهة الشرقية نفسها والى ذلك يشير الشاعر :

مسحت ثغور الشام ادمعها به
ولقد تبل الترب وهي همول

وتبدو حماسة العالم الاسلامي لنتائج هذه المعركة واعتزازه بها واطمئنانه بعدها مصورا بقلم الشاعر :

وجلا ظلام الديــن والدنيا بـــه
ملك لما قال الكــرام فعــول
متكشف عــن عزمـــه علويـــة
للكفـــر منها رنـــة وعويـــل
فلو ان سفنـــا لم تحمل جيشـــه
حملت عزائمه صبـــا وقبــول
يجلو البشير ضياء بشر خليفـــة
ماء الهدىفي صفحتيه يجـــول
لله عينـــا من راى اخباتـــه
لما اتـــاه بريدهـــا الاجفيـــل
وسجوده حتـــى التقـــى عفر الثرى
وجبينـــه والنظـــم والاكليـــل
لو ابصرنـــك الروم يومئذ درت
ان الالهبمـــاتشـــاء كفيـــل
ان التـــي رام (الدمستق) حربها
لله فيـــهاصـــارم مسلـــول
نامت ملوك في الحشايا وانثنت
كسلـــى وطرفك بالسهاد كحيـــل
تلهيـــك صلصلة العوالي كلمـــا
الهت اولـــئك قيـــنة وشمـــول

الفاطمـــيون والعلـــم

وفيمـــا قاله الدكتور محمـــد كامل حسين يتضح لنا الجانب الاخر من الصورة الفاطميـــة ، فماذا كان الفاطميون

قد اقاموا الوحدة بعد التجزئة وانشأوا الجيش الضخم والاسطول الفخم فحموا بذلك العالم الاسلامي من اكبر كارثة كانت ستحل به ، فلنهم الى جانب ذلك قد وضعوا منذ الساعة الاولى لحكمهم خطة هي ان يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة ، وخططوا كما نقول اليوم لسياسة تعليمية شاملة ترتكز على انشاء جامعة كبرى ثم على تفريغ العلماء للعلم وحده فلا يشغلهم شاغل العيش عن الانصراف الى العلم ولا يليهم الفقر عن التوسع في البحث والدرس فجعلوا لهم موارد من الرزق تضمن لهم العيش الكريم ثم ارسلوا يستدعون العلماء من الخارج . وقد اشتد هذا المنهج واتسع وقوي بعد اقامة الوحدة بضم البلاد الاخرى الى مصر وانشاء القاهرة واقامة الازهر وقد تم ذلك على الشكل الاتي :

١ ـ خصصوا لكل مذهب من المذاهب الاسلامية في جامعتهم الكبرى الازهر كرسيا لتدريس ذلك المذهب وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد القريبة منها ، وقد عرفنا من عدد الحلقات التي كان ينضم اليها الطلاب مقدار انتشار كل مذهب من تلك المذاهب وعندما يكون عدد حلقات المالكية خمس عشرة حلقة ومثلها عدد حلقات الشافعية ، وعندما تكون الحلقات الحنفية لا تتجاوز الثلاث ، وعندما نفتقد الحلقات الحنبلية فمعنى ذلك انه كان للمذهبين المالكي والشافعي الاغلبية يليهما بفارق كبير المذهب الحنفي وان المذهب الحنبلي لم يكن له وجود .

وكذلك كان للمذهب الجعفـــري حلقاته ولكننا لــم نستطـــع معرفة العدد في اقوال المؤرخيـــن .

٢ ــ كان العلمـــاء في البلاد الخارجة عـــن النفـــوذ الفاطمـــي يعانـــون محنة الفقر وكانت حياتهم مأساة مفجعة فارسل الفاطميـــون يستدعونهم اليهم ويضمنـــون لهـــم العيش الكريم ، وكأمثلة لما كان يجري نورد اسمـــاء محدودة من كل عصر اذ ليس من المستطاع الالمام باسمـــاء الجميع . والذي يدعو الـــى الاعجاب بالفاطميين ان جميـــع العلماء الذيـــن استدعوهم او وفدوا اليهم ووفروا لهم التفـــرغ للعلم كانوا علـــى غير مذهب الفاطميين .

فمـــن تلك الاسمـــاء اسم عبد السلام القزوينـــي شيخ المعتزلة الذي وفد الـــى مصر فاقام فيها اربعيـــن سنة يلقي تعاليـــم مذهبه . ومنها اسم القاضـــي ابو الفضل محمـــد البغدادي امام الشافعيـــة الذي وفد هو الاخر الـــى مصر واخذ يملـــي من مذهبه ما شاء الله ان يملـــي حتـــى مات سنـــة ٤٤١ .

وكذلك ابـــو الفتح سلطان بن ابراهـــيم الفلسطينـــي (٥١٨) وابو الحجاج يوسف الميروقي (٥٢٣) ومجلي بـــن جميع المخزومي (٥٥٠) والقاضي علـــي الموصلي الخلعي (٤٤٨) وابو محمد عبدالله السعدي (٥٦١) . وهؤلاء كانوا ممن ولي القضاء للفاطميين على انهم شافعيو المذهب . ومن فقهاء المالكية عرفت مصر الفاطمية امثال محمد بن سليمـــان المعروف بابـــي بكر النعال الذي كانت اليه الرحلة في مصر ،

وكانت حلقته في الازهر تدور على سبعة عشر عمودا لكثـــرة الطـــلاب الذيـــن كانوا يقصدونه .

وهناك قصة الفقيـــه المالكي عبد الوهاب بن علي احد الائمة المجتهدين في المذهب ، والذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بانه لم ير في المالكية افقه منه لقد ضاقت به دنيا العرب والاسلام فكاد يموت من الجوع في بغداد فلم يجد الا مصر الفاطمية يحتمـــي بها فلما جاءها تدفق عليـــه المال وامروه بالانصراف الى علمه وبحثه ولكن الامر لم يطل فاصيب بالفالج فقال : « لا اله الا الله ، عندما عشنا متنا ، (٤٢٢) وعبد الجليل مخلوف الصقلي (٥٤٩) وابو بكر الطرطوشي (٥٢٥) وغـــيرهـــم .

وقد حرصنا على ان نختار واحدا من كل فترة تاريخية لنبيـــن ان الامر قد استمر ولم ينقطع .

ومن اشهر العلماء الذين لجأوا الى مصر في عهد الحاكم بأمر الله ابو الفضل جعفـــر وكان مكفوفا فاعجب به الحاكم وخلع عليـــه ولقبه عالم العلماء .

علـــى اننا ونحـــن نشير الـــى بعض العلماء الذيـــــن احتضنتهم مصر الفاطمية فان اشهر واحد منهم هو ابن الهيثم الذي استدعاه الحاكم بامر الله وخرج لاستقباله بنفسه .

وكان الحاكم يأمر باحضار جماعة من المتخصصين في كل علم بعضهم من اهل الحساب والمنطق ، والفقهـــــاء والاطبـــاء للمذاكرة بيـــن يديه ، فكانت تحضر كل طائفة على انفراد ثم يخـــلع الحاكـــم على الجميع ويصلـــــهم

ومن ابلغ ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابـــن ابـــي اصيبعه : « انه لما وصل المهذب ــ وكان فاضلا في صناعـــة الطب ــ الـــى الشام من بغداد اقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وانعـــام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم الـــى من يقصدهم ولا سيمـــا ارباب العلم والفضل فتوجه الـــى مصر فوهبت له الاموال واقام فيهـــا مكـــرمـــا ».

المكتبـــــات

لقد تفرد الفاطميـــون بانشاء دور الكتب الكبرى في الاسلام وبلغت تلك الدور حدا عجيبا واجتمع فيها مـــا يثير اليوم دهشتنا . ويكفـــي ان مكتبة القصر مثلا كانت تضم ستمـــائة الف والف وكتاب (٦٠١٠٠٠) ولتسهيل المطالعـــة علـــى المراجعيـــن كانوا يقتنون من امهات الكتب الكبـــرى التـــي تكثر حاجة الناس اليهـــا كانوا يقتنعون منها عشرات النسخ ، فقد كان يوجد من تاريخ الطبـــري وحده الـــف ومائتا نسخـــة منها نسخة بخط ابـــن جرير نفسه ومـــن كتاب العيـــن نيفا وثلاثيـــن نسخة منها نسخة بخط الخليل الـــى غير ذلك من هذا واشباهه .

وقد توسع الحاكم بامر الله بشان دور الكتب العامة وحرص علـــى تسهيل وصول جميـــع طبقات الشعب اليها ، فقد قال المسبحـــي وهو يتحدث عـــن مكتبات القصر ان بعضها كان في خزائن القصر (البرانية) ، ويرى الدكتور محمد كامل حسيـــن ان هذه الخزائن (البرانية) هـــي التـــي

انشأها الحاكم سنة ٣٩٥ وسماها دار العلم وحمل اليها من خزائن القصر من سائر العلوم والاداب ما لم ير مثله قط مجتمعا لاحد من الملوك وقد اباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم .

اشرف خاتمة

ادرك الدولة الفاطمية ما يدرك غيرها من الدول في ايامها الاخيرة فشاخت وضعفت واستنفدت معظم قواها في مقارعة الصليبيين برا وبحرا وفي اخماد الفتن .

وفي العام ٥٦٤ بدا ان تهديدا صليبيا ربما وصل الى مصر نفسها وذلك في عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء . وقد ايقن العاضد ان لا قبل له بمقاومة الصليبيين وان جيوشه في وضع قد لا تستطيع معه الصمود في وجه الزحف الفرنجي ، فلم يتردد لحظة واحدة في ان يضع خلافته وملكه وكل بلاده في ايد غير فاطمية يعرف مطامعها به ويدرك ما تضمره لما يعتقد ويرتأي ولم يتوان عن ان يسلمها كل شيء ما دامت تستطيع المعاونة على دفع الصليبيين عن مصر واقدم على تضحية ليس لها شبيه ولا نظير .

لقد ارسل يستدعي نور الدين محمود ، وهو يعلم ما فعل نور الدين في حلب وغير حلب ، ارسل يستدعيه ليحتل بلاده بمن شاء من قواده وقص شعور نسائه وارسلها مع كتب الاستنجاد قائلا لنور الدين : « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » .

وكانت خاتمة الدولة الفاطمية وهي اشرف خاتمة تصنعها دولة من الدول لنفسها بيديها .

ابن هاني الاندلسي

اذا كان المدح قد فرض علـــى الشعر العربـــي فأصبح الشـاعر ولا حيلة له الا صوغ المدائح ليستطـــيع العيـــش فقد كانت حظوظ الشـعراء في هذا السبيل مختلفة ، مختلفة لان شـاعرا قد يوفق لمدوح لا يخجله مدحه لبطولة فيه او سجايا حميدة ، ومما لا يبدو معه الشـاعر بادي الكذب ظاهر الدجل واضـــح الاسـتجـــداء ..

كمـــا قد لا يوفق شـاعر آخر لمثل هذا الممدوح ، وقد يكـــون في مجـــموعه اولـــى بالذم والتجريح منه بالثنـــــاء والمديح . ومع ذلك فالشـاعر مسوق الـــى مدحه مدفوع الى الاشـادة به لان الرزق في يديه ، والمال رهـــن كلمته .

سيف الدولة وكافور وعضد الدولة

علـــى ان حظ الشـاعر الواحد قد يختلف بيـــن ممدوح وآخر ، فحظ المتنبـــي وهو عند سيف الدولة غير حظه وهو عنـــد كافور . واذا كانت قصائد المتنبـــي في سيف‌الدولة هـــي في اصلها مدحا ، فانها ايضا اعجاب ببطولة البطل العربـــي الصامد في وجه الغزو الاجنبي ، المكافح عـــن الحـــمى الوطنـــي . والمعارك التـــي شهدها المتنبـــي مع سيف الدولة جديرة بأن توحـــي اليه بمثل ما اوحت حتـــى

ولو لم يكـن المتنبـي يقصد المدح او لو لم يكـن الكسب من غـاياتـه .

والامر مع المتنبـي يجري علـى هذا القياس حتـى وهو يمدح غير كافور ممن لم يكن يزري مدحهم في ذلـك العصر مثلما كان يزري مدح كافور . فالمتنبي وهو يمـدح عضد الدولة كان في موقفغير موقفهوهو يمدح سيف الدولة واذا كان عضد الدولة من الملوك الذيـن لا مغمز فيهم ، وله من المآتـي ما يصح معه ان يكون ممدحا . فهو علـى كل حال ليس في وضع يشبه وضع سيف الدولة وهو لم يكـن الجندي المقاتل للعدو الخارجـي ، ولا وضعته الاحـداث في لهـوات الحرب الوطنية فـما يمكن ان يوحـي به لشاعـر كالمتنبـي يستطيـع اي امير ان يوحـي بمثلـه.

ومن هنا تراجعت قصائد المتنبـي في مدح عضد الدولة عن قصائده في مدح سيـف الدولة وقد كان هذا التراجـع واضحا لكـل ذي حس شعري ، واعترف به المتنبـي نفسـه .

والواقع ان ما كان يهز المتنبـي وهو يشهد معركـة الحدث مثلا مع سيف الدولة فينطقه بهذا القول :

هل الحدث الحمـراء تعرف لونها
وتعرف اي الساقييـن الغمائـم
سقتهـا الغمـام الفر قبل نزوله
فلمـا دنـا منهـا سقتهـا الجماجم
بناها فأعلـى والقنـا يقرع القنـا
وجيـش المنايا حـوله متـلاطـم

وقفت وما في الموت شــك لواقــف
كأنك في جفــن الردى وهــو نائــم
تمــر بــك الابطــال كلمى هزيمة
ووجهــك وضاح وثغــرك بــاســم
ومن طلب الفتح الجلـيل فانمــا
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

لم يكن عند عضد الدولة مثله ليهتــز له المتنبــي ، وبالعكس من ذلك ، عندما مست قلب المتنبــي عاطفــة جياشة فرأى جمــال الطبيعة في شعب بوان ، ثم لم يسمع في تلك المغانــي لسانه العربي ، عاد متأثرا لما يرى ويسمع، ففاض الشعر من حنايا نفسه فأبــدع مــا ابدع .

متنبــي المغــرب

ومن الشعراء الذيــن وفقوا لمدوح جديد بمدحهــم الشاعر محــمد بــن هانــي الاندلســي شاعر المعز لدين الله الفاطمــي الذي اطلق عليه معاصروه لقب (متنبــي المغرب) .

وربمــا كان ما يجعل ابــن هانــي جديرا بهذا اللقب هو ان مواضيــع مدح ابــن هانــي للمعز ، هــي عيــن مواضيع مدح المتنبــي لسيف الدولة . فقد كانت ظروف كلا المدوحين متشابهة ، وكان كلاهما مندفعا لمقاومة الخطر الخارجــي المهدد للبلاد الاسلامية يومذاك بل ان مسؤولية المعز كانت اكبــر ، فهو مسؤول عن جبهة طويلة ممتدة على مدى شواطــىء افريقيا الشماليــة كلها ، ثم هو مسؤول عن

الجزر الاسلامية المهددة وفي طليعتها جزيرة صقلية .

ولم يكن الوضع الاسلامي والوضع العربي يومذاك مما يقوى العزائم ويشحذ الهمم ، بل كان شمل العرب والمسلمين ممزقا واختلافاتهم مشتدة ، لا الهدف يجمعهم ولا الخطر يوحدهم .

وكان الاجنبي الطامع يعرف ذلك كله ، وكانت نار الانتقام متأججة في نفوس البيزنطيين (الروم) الذين لم ينسهم تطاول الايام ذكريات هزائمهم الماضية، وجلائهم عن بلاد الشام وغيرها ، وكانوا يحنون للعودة اليها من جديد . بل ان نقفور فوقاس الثاني كان يهدد بالاستيلاء حتى على المدينة ومكة واستطاع تحقيق الكثير من امانيه وفي ذلك يقول ابن هاني :

اسفي على الاحرار قل حفاظهم
لو كان يجدي الحر ان يتأسفا
يا ويلكم افما اكم من صارخ
الا بثغر ضاع او دين عفا
حتى لقد رجفت ديار ربيعة
وتزلزلت ارض العراق تخوفا
فمدينة من بعد اخرى تستبى
وطريقة من بعد اخرى تقتفى
والشام قد اودى واودى اهله
الا قليلا والحجاز على شفا

وطني مناضل

هذه صرخة وطني مناضل يرى بلاده تتساقط

أمام ضربات الاعداء ، ويرى قومه متخاذلين ، هذه صرخة وطني مناضل اكثر منها نغمة شاعر مداح .

والواقع ان المعز لدين الله الفاطمي كان في ذلك العهد امل العرب والمسلمين وكانوا يتطلعون اليه من كل مكان ، حتى من الارض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه . فعندما شعرت مثلا جزيرة (كريت) بالخطر الداهم ، ولاحت لها طلائع الغزو مطلة من بعيد كان همها ان توصل نداءها الى الرجل المأمول ، ويحدثنا الدكتور حسن ابراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب (المجالس والمسايرات) للنعمان فيقول : « وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصر الاموي على الروم في صراعه مع الفاطميين ، وصور ما حل بالروم وحلفائهم امام اساطيل المعز تصويرا رائعا ، وذكر الرسائل التي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته . ولاول مرة نسمع ان مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذي كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التي تبولدت بين اهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ » .

وابن هاني يدرك ذلك ويدرك ان ممدوحه اهل لما علق عليه من آمال فيقول :

لا تيأسوا فالله منجـز وعـــده
قــد آن للظلمـــاء أن تتكشفـــــا

الاسطول العربـــي

لقد كان المعز جديرا بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الايام ، فلم يدع الوقت يذهب عبثا وادرك للوهلة الاولـــى انه امام خطـــر بري وآخر بحري قد يكون هو الاشد . لذلك صرف جهده اول ما صرفه الـــى انشاء اسطول ضخم يتناسب مع المهمـــة الثقيلـــة التـــي تنتظـــره وهي حماية الشواطىء الافريقيـــة الشمـــالية من اي غزو متوقع ، وبذل لهـــذا الاسطول اقصـــى ما يستطيـــع بذله حتـــى اصبح اسطوله سيد البحـــر المتوسط ، وحتـــى صار مهددا للاعداء بعد ان كان الاعداء مهدديـــن ، وحتـــى صاروا يخشونه بعد ان كانت البـــلاد تخشاهم .

وقد كان هذا الاسطول اعظم ما يمكن ان يصل اليـــه اسطول في ذلك العصر مجهزا بأحدث الالات الحربية والادوات النارية . فأثار هذا الاسطول حماسة الشاعر ورأى فيـــه المخرج من الاخطار والحماية من النوازل ، وهاج فيه اعتزازه وحميته ، فأنطقه ذلك بقصيدة هـــي بحق مـــن فـــرائـــد الشعـــر العربـــي :

لك البـــر والبحـــر العظيم عبابـــه
فسيان اغـــمار تخاض وبيـــــد
ومـــا راع ملـــك الروم الا اطلاعها
تنشر اعـــلام لهـــــا وبنـــود

عليهــا غمـــام مكفهــر صبــيره
لـــــه بارقـــات جمـــة ورعـــــود
مواخـــر في طامي العبــاب كــأنه
لعـــزمـــك بأس او لكفـــك جـــود
انافت بهـــا اعـــلامهـــا وسمالهـــا
بنـــاء علـــى غـــير العـــراء مشيــد

مـــن الراسيات الشم لولا انتقالها
فمنهــــا قنـــان شـمـــخ وريـــــود
مـــن الطير الا انهن جـــــوارح
فليس لها الا النفوس مصيـــــد
من القادحات النار تضرم للصلـــى
فليـــس لها يوم اللقاء خمــــــود

اذا زفرت غيظا تـــرامت بمـــارج
كمـــــا شب من نارالجحيم وقـــود
فأنفاسهـــن الحاميات صواعـــق
وافـــواههـــن الزافرات حديـــــد
لهـــا شعـــل فـــوق الغمار كأنهـــا
دمـــاء تلقتهـــا مـــلاحف ســــود
تعانق موج البحـــر حتـــى كأنـــه
سليـــط لها غيه الذبـــــال عتيـــد

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصلـــح مخاطبا المعز مشيرا الـــى ما كان من تغلغل الروم قبـــل ذلك في بـــلاد الشام :

فلا غرو ان اعززت ديـــن محمــــد
فأنت لـــه دون الانـــام عقيــــد
غضبت له ان ثل في الشام عــرشه
وعادك من ذكر العواصـــم عيـــد
وقلت اناس ذا (الدمستق) شكره
اذا جاءه بالعفـــو مـــنك بريـــد
تناجيـــك عنه الكتب وهـــي ضراعة
ويأتيـــك عنه القـــول وهـــو سجود
اذا انكرت فيها التراجـــم لفظـــه
فادمعـــه بيـــن السطـــور شهود
ليالـــي تقفو الرسل رسل خواضع
ويأتيـــك من بعد الوفـــود وفـــود

انتصـــارات

ويمضـــي الاسطول العربـــي في اداء رسالته ، وتجوب قطعـــه البحـــر المتوسط متحدية كل من تحدثه نفسه بالشر ، وتعلـــن سفنـــه بنفسها عـــن نفسها ، ثم تلتقـــي علـــى غير موعد بسفـــن الاعداء فلا تلبث ان تصطدم بها ، ويتهاوى الفـــريقان في نار الوغى ويتجالدون اعنف جلاد ، تحفز الروم ثارات متأصلة واوتار دفينة .. وتحفز العرب اخطار منتظرة وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم الى الوطـــن العربـــي العزيز ويتخيلون ماذا سيحل بتلك الارض الطيبة ، اذا هم تزحزحوا عـــن موقفهم او تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبرين وينطلقون مهلليـــن فتنجلي المعركـــة عن نصرهم البحـــري

الحاسم في معركة المجاز . ويكون الشاعر معهم بكل شعوره وكل جوارحه ، متلهفا لمعرفة الخبر الاخير ولما يبلغ اذنيه نبأ الفوز ينطلق مزهوا متغنيا بالبطولات :

يوم عريض بالفخار طويل
لا تنقضي غرر لـه وحجول
مسحت ثغور الشام ادمعها به
ولقد تبل التراب وهي همول
قل للدمستق مورد الجمع الذي
ما اصدرته له قنا ونصول
سل رهط (منويل) وانت غررته
في اي معركة ثوى منويل
منع الجنود من القفول رواجعا
تبا لـه بالمنديات قفول
وبعثت بالاسطول يحمل عدة
فأثابنا بالعدة الاسطول
ادى الينا ما جمعت موفرا
ثم انثنى باليم وهو جفول
ومضى يخف على الجنائب حمله
ولقد يرى بالجيش وهو ثقيل
لم يتركوا فيها بجمجاع الردى
الا النجيع على النجيع يسيل
نحرت بها العرب الاعاجم انها
رمح أمق ولهذم مصقول

ثم ينثني الى مدبر ذلك كله وقائد النصر ومعد الاسطول ومهيىء الجيش ، الى المعز :

لا تعدمنك امة اغنيتها
وهديتها تجلو العمى وتنيل

وتتكرر معارك الاسطول العربي وتتكرر انتصاراته فيحرص الشاعر على الاشادة بالاسطول :

وسفن اذا ما خاضت اليم زاخرا
جلت عن بياض الصبح وهي غرابيب
تشب لها حمراء قان اوارها
سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

وتلتقي جيوش الروم واساطيلهم بجيوش الفاطميين البرية واساطيلهم اكثر من مرة وتقع المعارك البرية والبحرية في اوقات متقاربة وينتصر الفاطميون وتحمى بانتصاراتهم ديار الاسلام والعروبة فيقول ابن هانىء مشيرا الى ان الروم كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط ، تجول فيه اساطيلهم وتصول بلا رقيب ولا منافس ، والى ان جيوشهم البرية كانت كذلك :

لو كان للروم علم بالذي لقيت
ما هنئت ام بطريق بمولود
القى « الدمستق » بالاعلام حين رأى
ما انزل الله من نصر وتأييد
فقل له حال من دون الخليج قنا
سمر واذرع ابطال مناجيد

ثم يخاطب المعز :

ذمـــوا قنـــاك وقد ثارت اسنتهـــا
فمـــا تـــركـــن وريدا غـــير مورود
حميتـــه البر والبحر الفضـــاء معا
فمـــا يمـــر بـــاب غير مســـدود
قد كانت الروم محذورا كتائبـــها
تدنـــي البلاد علـــى شحط وتبعيـــد
وشـاغبـــوا اليـــم ألفي حجة كملا
وهـــم فوارس قاريـــاته الســـود
فاليـــوم قد طمست فيـــه مسالكهم
مـــن كـــل لاحب نهج الفلك مقصـــود
هيهـــات راعهـــــم في كل معتـــرك
ملـــك الملوك وصنديد الصناديـــد

مـــن الاندلس الـــى افريقيـــة

ابن هانـــي اشبيلـــي المولد اندلسي النشأة فقد ولد سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ في قرية سكون من قرى مدينة اشبيليـــة وكان صديقا لوالي اشبيلية مقربا اليه . وكان الحكـــام في الاندلس لا يحبون الدولة الجديدة التـــي اخذت تشب ويقوى ساعدها في افريقيـــا فأخذوا يعملون علـــى زعزعتها ٠ ولم يتورعوا عـــن التحالف مع الاجنبي للقضاء عليها(١).

وكان هوى ابـــن هانـــي مع الفاطميين وقلبه متجها

---

١ ــ يقول الدكتور حســـن ابراهيم حسن عـــن كتاب المجـــالس والمسايرات المخطوط : (... فاوضح اعتمـــاد حاكم الاندلس عبد الرحمان الناصر الاموي علـــى الروم في صراعه مع الفاطميين ...)

اليهم ، وكان كفيره يرى في شباب دولتهم ما يمكن ان يعيد الشباب الى الوطن العربي . ويبدو انه كان لا يتورع عن الجهر بآرائه والدعوة اليها ، مما لم يكن يخفى على الحاكمين ، فدبروا له تهمة الاخذ بالفلسفة ، وهي تهمة كانت هناك في ذلك الوقت كافية لاستحلال الدماء . ويبدو ان صديقه الوالي الاشبيلي قد احس بما يدبر للشاعر في الخفاء فنصحه بترك اشبيلية فأخذ الشاعر بالنصيحة واتجه الى العدوة الافريقية حيث اتصل في المسيلة بجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية والي المسيلة(٢) فلم يجد جعفر هدية يقدمها لخليفته اثمن من هذا الشاعر ، فاوفده اليه . وكان المعز في امس الحاجة لمثل ابن هانىء ليكون لسانه الناطق في تطور دولته

---

٢ ــ المسيلة :قاعدة المغرب الاوسط ، او ما كان يسمى ببلاد الزاب ويطلق عليه الان اسم (الجزائر) . وهذه المدينة هي احدى المدن التي انشأتها الدولة الفاطمية في اول قيامها ، اختطها ولي عهد هذه الدولة محمد بن عبيد الله المهدي . وكان ابوه قد وجهه الى اقليم الزاب ليقربه سلطانه ويقمع بعض الفتن الناشبة فيه حتى اذا فرغ من شانه وتم له ما اراد ، اختط هذه المدينة لتكون قاعدة هذا الاقليم بدلا من مدينة طبنة ، وعهد الي علي بن حمدون (والد جعفر) الاندلسي ببنائها ، ثم اطلق عليها اسم (المحمدية) نسبة الى ولي عهد المهدي ، الى جانب اسم المسيلة، ذلك الاسم الذي يرجع ــ فيما نحسب ــ الى اصل قديم . ولم تلبث هذه المدينة أن نمت وازدهرت وخاصة في عهد اميرها جعفر بن علي بن حمدون ، وقد آلت اليه امارتها بعد ابيه الذي تولى ــ كما مر ــ بناءها ، وكان معتزا بها فجعلها مناط همته ووجه اليها طموحه كله حتى استطاع ان يجعل منها مركزا من اول المراكز الادبية في المغرب العربي تحفيا بالادب وتشجيعا للادباء ورعاية لهم واستثارة لمواهبهم . وفيها برزت شاعرية ابن هانىء .

وتقدمها ، وليكون وسيلته الاعلامية ، واذاعته القوية ، فاحتفى به وقربه اليه وظل ابن هاني يسجل انتصارات المعز ويعدد وقائعه الى ان خطا المعز خطوته الحاسمة فارسل قائده جوهرا لضم مصر الى خلافته ودخل جوهر الاسكندرية متقدما الى العاصمة فأذاع ابن هاني النبأ بهذا الشكل :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟
فقل لبني العباس قد قضي الامر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تسير به البشرى ويقدمه النصر

نهاية الشاعر

ويتهيأ المعز للذهاب الى مصر وانشاء عاصمته الجديدة (القاهرة) ثم يمضي اليها على ان يلحقه شاعره ليكون هناك كما كان هنا المذيع البليغ . وكان حكام الاندلس متابعين لخطر الشاعر عالمين بما فعله شعره للدولة المتقدمة وما يمكن ان يفعله بعد ان تطورت من حال الى حال . ورأوا في قلمه خطرا لا يقل مضاء عن السيف فقرروا حرمان الدولة الحديثة منه فأرسلوا اليه من اغتاله وهو في الطريق الى مصر عند برقة سنة ٣٦٢ وهكذا انتهى هذا الشاعر الفريد نهاية اليمة غير متجاوز مراحل الشباب. ولا شك انه لو قدر له الوصول الى مصر لترك في احداثها وحياتها وطبيعتها الشيء الكثير الثمين .

حمزة بن عبد المطلب

عم النبـــي ورضيعـــه

حمزة بن عبد المطلب من الابطال الذين اعتز الاســـلام بهم ، ولو قدرت له الحياة المديدة لكان له من الشأن ما يبلـــغ به ارفع منزلة في الكفاح الاسلامي الطويل ، ولكن شاء الله ان يقضـــي في مطالع الدعوة الاسلامية بعد ان ابلـــى فـــي نصرتها ما لم يبل مثله انسان اخر .

رضيـــــع النبــــي

وقد كان قريبا من النبـــي حبيبا اليه ، كما كان هـــو متفانيا في الاخلاص لمحمد (ص) تفانيا قل مثيله . وقد نشـــأ هو والنبـــي معا في ســـن واحدة او متقاربة واختلف فـــي تحديد الفارق في السن بينهما . فقيل انه اسن من النبي(ص) بسنتيـــن وقيل باربع سنيـــن وقيل انهمـــا في سن واحدة .

علـــى ان الثابت ان ثويبة مولاة ابي لهب ارضعتهـــما بلبـــن ابنها مسروح ، فكانا اخويـــن من الرضاعة . واستدل بعضهم بذلك علـــى تساويهمـــا في الســـن ، ولكن اخريـــن ردوا علـــى هذا بان هذه الاخوة الرضاعية لا تؤدي حتمـــا الـــى هذا الاستنتاج . فقال احدهم انه يمكن ان يكـــون اخاه من الرضاعة بلبـــن مسروح بن ثويبة ويكون مع ذلك

اكبـــر منه . ولكن حتـــى الذيـــن قالوا بذلك اختلفـــوا في تحديد الفارق ، اهـــو اربع سنيـــن ، ام سنتان . فقـــال الاخيرون لا يصح ان يكون الفارق اربع سنيـــن اذ ما دام ثابتا ان الرضاعة كانت بلبن مسروح فلا بد ان يكون الفارق سنتيـــن ، لانه لا رضاع الا في حولين(١) . ولكن المخالفين لذلك ردوا بانه يمكن‌ان يكون ارضاعها حمزة في اخر سنته في اول ارضاعها لابنها . وارضاعها للنبي (ص) في اول سنته في آخرارضاعها ابنها فيكون اكبر من النبي باربع سنين(٢) .

وكان بينه وبيـــن النبـــي (ص) قربـــى اخرى ، فأم حمـــزة هـــي هالة بنت اهيب بـــن عبد مناف بن زهرة . وام النبـــي (ص) هـــي امنة بـــن وهب بن عبد مناف فهمـــا ابنتا عم .

اخـــوته

وكان حمـــزة واحدا من ثلاثة عشر ولدا لعبد المطلب . علـــى ان بعضهم يقول انهم كانوا عشرة ، وبعض قال احد عشر . وايا كان عددهم ، فقد ادرك الاسلام منهم اربعة شذ واحد منهم عـــن الطريق السوي فلم يسلم ، بل قاوم الاسلام ما وسعتـــه المقاومة ، ذاك هو ابو لهب . واستقام ثلاثة على الطريـــق فاسلموا ، وهم : ابو طالب والحمـــزة والعباس . وكان لكل واحد منهم مواقفه في الدفاع عن النبي ونصرته ، فحمـــاه ابـــو طالب الحمـــاية المنيعة ولم ينل النبـــي اذى

---

١ ــ ابن عبد البر في الاستيعاب .
٢ ــ اعيـــان الشيعة .

الا بعـــد موته ، وناضل دونه الحمزة اي نضال ، وعضده العبـــاس في بيعة العقبة وكان عينه في مكة .

اســـلامـــه

كان اسلام حمـــزة في السنة الثانية من البعث(١) وقيل بل كان ذلك بعد دخول النبي (ص) دار الارقم في السنـــة السادسة . وكان اسلامه فتحا عظيما اذ قوي به المسلـــمون وتباشروا بذلك اي تباشر لما كان يتمتع به حمـــزة من بسالة وحمية واقدام وراي واخلاص . ومما وصف به انه كان « اعز فتـــى في قريش واشد شكيمة » .

اما السبب المباشر في اسلامه فذلك ان ابا جهل مر بالنبـــي (ص) عند الصفا فآذاه وشتمـــه ونال منه بعض ما يكـــره من العيب لدينه والتضعيف لامره ، فلم يكلمه النبـــي (ص) . ثم انصرف ابو جهل الـــى ناد من قريش عند الكعبـــة فجلس معهم . وكانت مولاة لعبد الله بـــن جدعان في مسكن لها تسمع وترى ما فعل ابو جهل ، فلم تطق صبرا ، ولـــم تستطيـــع ان تقف في وجه ابي جهل . فلم يلبث حمزة ان اقبل من قنص له متوشحا قوسه . وكان من عادته اذا عاد مـــن القنص ان يقصد الكعبة فيطوف بها ،وكان اذا فعل ذلك لم يمـــر على ناد من اندية قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم .

فلما مر بالمولاة ــ وكان النبـــي قد رجع الى بيته ــ قالت المولاة : يا ابا عمارة لو رايت ما لقـــي ابن اخيك محمد

---

١ ــ الاستيعـــاب .

انفا من ابـــي الحكم بـــن هشام . وجده ها هنا جالسا فاذاه وسبه وبلـــغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فغضب حمـــزة ومضـــى مسرعا يسعى دون ان يقف علـــى احد ، حتـــى اذا لقـــي ابا جهل اقبل نحوه حتـــى اذا قام علـــى راسه رفع القوس فضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال : اتشتمه ؟ فأنا علـــى دينه ، اقول ما يقول ، فرد ذلك علـــي ان استطعت .

فقامت رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا ابا جهل فقال ابـــو جهل : دعوا ابا عمـــارة فاني والله قد سببت ابـــن اخيه سبا قبيحا .

هكذا اعلن حمزة اسلامه ، ويقول ابن اسحاق : (فلما اسلم حمـــزة عرفت قريش ان رسول الله (ص) قد عز وامتنع وان حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه) .

شعره عنـــد اسلامه

ان لحمزة بعض الشعر في بعض الاحداث . ومما رواه صاحب الدرجات الرفيعة ان حمزة قال حيـــن اسلم مـــن ابيـــــات :

حمـــدت اللـــه حيـــن هدى فؤادي
الـــى الاسلام والديـــن الحنيـــف
اذا تليـــت رسائلـــه علينـــــا
تحـــدر دمـــع ذي اللـــب الحصيـــف
فلا والله نسلمـــــــه لقـــوم
ولمـــا نقـــض منهـــم بالسيـــوف

اول قـــائد

ومنذ الساعة التـي اسلم فيها حمزة وقف نفسه على خدمة الاسلام والدفاع عـن كيانه بكل قوتـه واصبـح حصنا حصينا للمسلمين يلوذون به عند الشدائد . وحين اذن النبـي (ص) بالهجرة هاجر حمـزة فيمـن هاجر مـن المسلمين ، ولما استقر المقام بمحمد (ص) في المدينة وبـدأ النظام الاسلامـي يتكامل وتتجمـع قواه كان من الطبيعـي ان تكون لحمـزة المكانة الرفيعة فلم تمض بضعة اشهـر علـى النزول في يثرب حتـى اصبح حمـزة القائد الاول في الاسلام ، فقد عقد له النبـي لواء ابيض واسلم اليه امـر سريـة من المسلميـن ليتقدم بهم الى « سيف » البحـر علـى طريق القوافل القرشية فكان هذا اللواء اول لـواء عقـد في الاسلام وهذه السريـة اول سرية وهذا القـائد اول قـائـد .

فـي بـدر

وفي بدر حين برز عتبة بـن ربيعة وابنه الوليد واخوه شيبة ودعوا الـى البراز ، خرج اليهم ثلاثة فتيان مـن الانصار هم معاذ ومعوذ وعوف بنو الحـارث ، فـرفض القرشيون مبارزتهم وقالوا ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمد اخرج الينا اكفاءنا من قومنا . فقال النبي (ص) لعبيدة بن الحارث بن المطلـب وحمـزة بـن عبد المطلب وعلـي بن ابي طالب : قوموا فقاتلوا بحقكم اذ

جاءوا بباطلهم ، فمشـى هؤلاء الثلاثة الـى العدو متمثلة بهم عظمة الاسلام ونخوته وبسالته ، فلما صـاروا ازاء القرشيين قال عتبة: تكلموا نعرفكم ، فان كنتم اكفاءنـا قاتلناكم . فقال حمزة : انا حمزة بن عبد المطلب اسـد الله واسد رسوله . فقال عتبة كفؤ كريم ، وانا اسد الاحلاف ، ومن هذان معك ؟ قال : علي بن ابي طالب وعبيدة بن الحارث بـن المطلب .قال: كفؤان كريمـان .

اللحظة التاريخية الحاسمة

كانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة في تاريـخ الاسلام ، فها هـي قريش عدوة الاسلام بعدتها وعديدها ، وها هـو الاسلام بمـا تجمع لديه من قوة . ها هما يقفـان لاول مرة وجها لوجه . وهاهم اكفاء ثلاثة في قريش الجبارة يتقدمون الصفوف متحدين الدعوة الاسلامية وقوتها العسكرية .. فما هو المصير ؟ اتنتصر قريش فتفت في عضد المسلميـن وتزلزل معنوياتهم فلا يقوون علـى الصمود ؟ ام ينتصـر المؤمنـون فيوهنـون عزائم قريش ويكسرون جبروتها فتولى الـدبـر ؟

ستة رجال في صفين مختلفيـن ، عليهم يتوقف مجرى التاريخ ، وتطلع الكون كله الـى تلك اللحظة الرائعة ، فاما ضربات ثلاث من ها هنا من هذا الصف المؤمن تحط علـى هذه الرؤوس الشامخة فتحيلها هباء تعلو بعده كلمة الحـق وينتشر نور الهدى . واما ضربات ثلاث من الصف الاخر تحيل الفجـر المشرق الـى ليل دامس .

اول نصر في الاسلام

واسرع علي فأردى الوليد وهما اصغر القوم سنا ولعلي خمس وعشرون سنة . والتقى سيف عبيدة سيف شيبة وهما اسن القوم ولعبيدة سبعون سنة ، فهوى السيفان كل على هدفه ، فاصاب سيف عبيدة رأس شيبة ففلق هامته ، واصاب سيف شيبة ساق عبيدة فقطعها وسقطا جميعا . وغالب حمزة عتبة وهما اوسط القوم ، ولحمزة سبع وخمسون سنة ، فصمد عتبة وجالد طويلا ثم سقط .

ثم حمل حمزة وعلي عبيدة فوضعاه بين يدي النبي (ص) فقال عبيدة : لو كان ابو طالب حيا لعلم اني اقررت عينه حين قال :

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا
ولما نطاعن دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله
ونذهل عن ابنائنا والحلائل

ثم حمل عبيدة فمات في طريق العودة الى المدينة .

في احد

يصف ابن الاثير خروج النبي الى احد وصفا يرينا ان امر الجيش الاسلامي كان الى حمزة وانه كان قائده الفعلي باشراف النبي (ص) ، فقد قال ابن الاثير :

ان رسول الله (ص) لما خرج الى احد خرج حمزة بالجيش بين يديه .

وكانت نار الثأر تغلــي في صدر هند بنت عتبة زوجة ابــي سفيــان فاستعظمت مقتل ابيها وعمها واخيها بايدي الهاشميين مضافا الــى قتل ولدها حنظلة خلال المعركــة بيــد علــي بــن ابي طالب ، فدبرت مع (وحشــي) ان يقتل اما محمــدا او حمــزة او عليا ، وجعلت له علــى ذلك جعــلا ، ويبدو ان اكثر من موتور واحد قد ساهموا في اغراء وحشــي بقتل واحد من هؤلاء الثلاثة .

فاجاب وحشــي : اما محمــد فقد علمت اني لا اقدر عليــه لان اصحابه لن يسلموه ، واما حمزة فوالله لو وجدته نائما ما ايقظته من هيبته ، واما علــي فألتمسه . قــال وحشــي : « فكنت يوم احد التمسه . فبينا انا في طلبه طلع علــي رجل حذر كثير الالتفات ، فقلت ما هذا بصاحبــي الذي التمس ، اذ رأيت حمزة يفرى الناس فريا ، فكمنت له الــى صخرة . ثم اقبل علــي مكبا حيــن رآنــي ، فلما بلغ المسيل ، وطــىء علــى جرف فزلت قدمه . فهززت حربتي حتــى رضيت منها فاضرب بها في خاصرته حتــى خرجت من مثانته . وكر عليــه طائفة من اصحابه فاسمعهم يقولون : ابا عمارة ، فلا يجيب ، فقلت قد والله مات الرجل ، وذكرت هندا وما لقيــت على ابيها واخيها . . وانكشف عنه اصحابه حيــن ايقنــوا بموته ولا يرونني » .

واقبل وحشــي علــى هند يخبرها بما فعل فنــزعت ثيابها وحليهــا فاعطتها وحشيــا ، ثم قالت له ارني مصرعه ، فاراها مصرعه فجدعت انفه وقطعت اذنيه ثم جعلت ذلــك مسكتيــن ومعضديــن وخدمتيــن حتى قدمت بذلك مكة ،

وكانت قد اخذت قطعة من كبد حمــزة فمضغتها فلم تستطع ان تسيغها فافظتها .

رثاء النبــي لحمــزة

ووجد حمزة بعد المعركة ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به ، فحين رآه النبي (النبي) بكى بكاء شديدا وقال : لــن أصاب بمثلك ، ما وقفت موقفا قط اغيظ علي من هذا الموقف .وكان من رثائه له قوله : يا عم رسول الله واسد الله واسد رسوله ، يا حمــزة يا فاعل الخيرات يا كاشف الكربات ، يا حمــزة يا ذاب يا مانع عــن وجه رسول الله .

فــي المدينــة

ولما رجع النبــي (ص) والمسلمون الى المدينة مر بدار من دور الانصار فسمع البكاء والنوائح علــى القتلــى ، فتذكــر النبــي انه هو وحمــزة وبنــي هاشم غربــاء الدار ، وان الهاشميات بعيدات المنازل هناك في مكة ، قد حيل بينهــن وبيــن رجالهــن ، وان قريشا العاتية قــد مزقت شمل هذه الاسرة الكريمة ، وان حمــزة النازح الغريب لا اهل له هنــا في هذا البلد الطيب .

فعاد النبــي (ص) انسانا بكل ما فــي الانسان مــن رقة وحنــان وعاطفــة ، وثارت شجونه كأكرم ما تثــور شجون الرجل النائي عــن دياره المفجوع باحبائه ، فذرفت عينــاه بالبكــاء ، وقال مضمنا كلمته كل مــا يمكــن ان تتضمنه الكلمات من معانــي الحزن المشوب بالتحسر علــى

امــة تقاتل رجلا جاء يدعوها الـــى فلاحها وعزتها ، ثـــم تفجعه باحب الناس اليه واكرمهم عليه . قال : (اما حمزة فلا بواكـــي له) .

وفهم بعض السامعيــن الكلمة علـــى معناها القريب، ولم يدركوا ما كان يرمي اليه النبي (ص) من هذا القول ، وحسبوا ان محمدا (ص) يحب فعلا ان يسمع نوح النائحات علـــى عمـــه الحبيب ، فرجع سعد بـــن معاذ الـــى دار بني عبد الاشهل، فأمر نساءهم ان يذهبنفيبكينعلى حمزةفيداره. فلما علم النبـــي (ص) بذلك امر بردهن ، مقدرا العاطفـــة التـــي حملتهـــن وحمات رجالهـــن علـــى ان فعلـــن ذلـــك، فقال : رضـــي الله عنكـــن وعـــن اولادكـــن .

فاطمة تبكـــي عمها

واذا كانت الهاشميات بمجموعهـــن بعيدات عن هـــذا المأتم النبوي العظيم ، فقد كانت هناك هاشمية واحدة قامت مقامهـــن وبكـــت عنهـــن ما اسعفها الدمع ، تلك هي فاطمة بنت محمـــد التـــي قدر لها ان تحمل وحدها منذ طفولتها عبء مشاركة ابيها همومه وأساه ، وان تكون في الشدائد الـــى جانبه مواسيـــة مقاسمة حتـــى لقبها النبـــي (ص) ام ابيها .

ولما بلغها ما حدث خرجت تستقبل اباها وملء عينيها الدمع بكـــاء علـــى عمها العظيم . وروى ابن سعـــــد في الطبقات انها كانت بعد ذلك تأتـــي قبر حمـــزة فترممـــه وتصلحـــه .

مـــراثيـــه

كانت فاجعـــة الاسلام بحمـــزة مبعث شعر كثـــير ساهمت فيه شقيقته صفية بنت عبد المطلب فقالت تـــرثيـــه مـــن قصيـــدة :

وقـــال الخبيران : حمـــزة قد ثوى
وزيـــر رســـول الله خـــير وزيـــر
فيا ليت شلوي عند ذاك واعظمـــى
لـــدى اضبع تعتـــادنـــي ونســـور
اقول وقد اعلى النعي عشيرتـــي
جزى الله خـــيرا من اخ ونصـــير
فوالله ما انساك ما هبت الصبـــا
بكـــاء وحزنـــا محضري ومســـيري
علـــى أســـد الله الذي كان مدرها
يـــذود عن الاسلام كـــل كفـــور

وقال عبد الله بن رواحة من قصيدة مشيـــرا الـــى شماتة هنـــد :

ابـــا يعلـــى لـــك الاركان هـــدت
وانت الماجـــد البـــر الوصـــول
عليـــك سلام ربـــك في جنـــان
مخالطهـــا نعيـــم لا يـــزول
الا يا هاشم الاخيـــار صبـــرا
فكـــل فعالكـــم حســـن جميـــل
الا مـــن مبلـــغ عنـــي لؤيـــا
فبعـــد اليـــوم دائلـــة تـــدول

نسيتم ضربنا بقليب بدر
غداة اتاكم الموت العجيل
وعتبة وابنه خرا جميعا
وشيبة عضه السيف الصقيل

وهام بني ربيعة سائلوها
ففي اسيافنا منها فلول
الا يا هند لا تبدي شماتا
بحمزة ان عزكم ذليل

ورثاه حسان بن ثابت باكثر من قصيدة قال في واحدة منها :

قرم تمكن من ذؤابة هاشم
حيث النبوة والندى والسؤدد
النماقر الكوم الجلاد اذا غدت
ريح يكاد الماء فيها يجمد
والتارك القرن الكمي مجدلا
يوم الكريهة والقنا يتقصد

وتراه يرفل في الحديد كأنه
في لبدة شثن البراثن اربد
عم النبي محمد وصفيه
ورد الحمام فطلب ذاك المورد
ولقد اخال بذاك هندا بشرت
لتميت داخل غصة لا تبرد

معركــة شعريــة

قوبل استشهاد حمــزة بيــن القرشيين بسرور يعادل ما استقبــل به من حزن بيــن المسلميــن ، واكبر السرور كان عند هند بنت عتبة ، فكان ان علت فوق صخرة مشرفة عندما بلغها قتله وصرخت باعلى صوتها :(١)

نحــن جزينـــاكم بيــوم بــدر
والحرب بعد الحــرب ذات سعــر
ما كان عــن عتبة لــي من صبر
ولا اخــي وعمـــه وبكـــري
شفيت نفســي وقضيــة نـــذري
شفيــت (وحشـــي) غليــل صدري
فشكر (وحشـــي) علــي عمــري
حتـــى تــرم اعظمــي في قبــري

فأثار هذا الشعر شاعرة مسلمة هي هند بنت اثالـــة فردت عليها قائلة :

خزيت في بــدر وغـــير بـــدر
يا بنــت غــدار عظيــم الكفـــر
افحمــك الله غـــداة الفخــر
بالهاشميين الطـــوال الزهـــر
بكــل قطاع حســـام يفـــري
حــمزة ليثــى وعلــي صقـــرى

---

١ ــ محمــد بــن اسحــاق .

اذ رام « شيب » وابوك قهـري
فخضبـا منـه ضواحـي النحـل

شعـر حمـزة

لم تشغل الاحداث حمـزة عـن نظم الشعر ، بل يبدو ان الاحداث نفسها كانت هي التـي تهزه الـى نظم الشعـر فقد رأينا ما نظمه عند اسلامه ، وهو اعظم حدث في حياته . ولما تتابعت الاحداث تتابع شعره فيها ، فمـن ذلك ما نظـمه عندما عقد له النبـي (ص) اللواء الاول في الاسـلام وبعثه الـى سيف البحر ، فقد التقـى هناك بابي جهل فقال من قصيدة :

الا يا لقومـي للتحلم والجهـل
وللنقض مـن راى الرجال وللعقل
وللمعجلينا بالمظالـم لم نطـأ
لهم حرمات مـن سوام ولا اهـل
كأنا نبلنـاهـم ولا نبـل عندنـا
لهم غير امر بالعفاف وبالعـدل

فمـا برحوا حتـى انتدبت لغـارة
لهم حيث حلـوا ابتغـي راحة الفضل
بأمـر رسول الله اول خافـق
عليـه لواء لم يكن لاح من قبلـي
عشية ساروا حاشديـن وكلنـا
مراجلـه من غيظ اصحابه تغلي

فقلنـــا لهم حبل الالـــه نصـــيرنا
ومـــا لكم الا الضلالة مـــن حبـــل
فثار « ابو جهل » هنالك باغيـــا
فخاب ورد الله كيد ابـــي جهـــل

فرد عليـــه ابو جهل بقصيدة جـاء فيها :

عجبت لاسباب الحفيظة والجهـــل
وللشاغبينـــا بالخـــلاف وبالبطـــل
اتونـــا بافك كـــي يضلوا عقولنـــا
وليس مضلا افكهم عقل ذي عقـــل
فـــان تبقنـــي الايام ارجع عليـــهم
ببيض رقاق الحـــد محدثة الصقـــل

وقد ابقت الايام ابا جهل كمـــا تمنـــى ولقيهم بالبيض الرقاق في بدر ، ولكن البيض الرقاق لم تغـــن عنه شيئا ، ذلك ان بيضـهم الرقاق قضت عليـــه .

جعفر بن أبي طالب

الرواد المسلمون الاوائل الذين اقبلوا على الاسلام في ضعفه ، موطنين نفوسهم على البلاء والمحنة ، فكابدوا الشدائد والاهوال ، وتحملوا التشريد والترويع ، ثم وقفوا نفوسهم على حمايته ونشره ، ولم يطمعوا بمغنم ولا فازوا بسلطان ، بل كان نصيبهم الاستشهاد ، او الكفاح من جديد لحماية الاسلام من بعض المسلمين .. هؤلاء الرواد الاوائل جديرون بالعناية والدرس ، ليكونوا القدوة والمثل ، لتظل سيرهم امام العيون وملء القلوب ، تلهم الناس الايمان والصبر والتجرد والتضحية ، ومغالبة الظلم ومصارعة الباطل .

ومن اوائل هؤلاء الرواد ، الشهيد جعفر بن ابي طالب ..

ابوه وامه واخوته

كان لابي طالب ستة اولاد : اربعة ذكور وابنتان . والذكور اكبرهم طالب واصغرهم علي ، وبينهما عقيل وجعفر ، وكان كل واحد من هؤلاء يكبر اخاه بعشر سنين ، والبنتان هما جمانة وام هاني ، امهم جميعا فاطمة بنت اسد . وكانت هذه السيدة للنبي (ص) بمنزلة الام ، حين

كفل زوجها ابو طالب ابـــن اخيه محمدا بعد وفاة جده عبد المطلب ، فاحتضنت محمدا (ص) وعنيت به عنايتها باولادها. وقد حفظ النبـــي (ص) لها هذا الجميل فكان يجلها اجـــلال الولد لامه ، ولما ماتت كفنها في قميصه وصلـــى عليها ونزل في قبرها ، ثم خرج وعيناه تذرفان ، وحثا في قبرها . فقيل له : « رأيناك يا رسول الله فعلت علـــى هذه المرأة شيئا لم تفعله علـــى احد » . فقال : « ان هذه المرأة كانت بمنزلة امـــي التـــي ولدتني »(١) وكانت قد اسلمت وهاجـــرت الـــى المدينـــة وفيها توفيت .

وطالب الولد الاكبر لابي طالب كان ممن اكرهتهم قريش من الهاشميـــين علـــى الخروج الى بدر ، هو وعمه العباس وغيرهمـــا . وبعد بدر اختفى خبره فلم يعلم مصيره . ويبدو ان قريشـــا لما قتل زعمـــاؤها الثلاثة : عتبة وشيبة والوليد بايدي الهاشميين ، حاولت الفتك بمـــن اخرجتهم معها مـــن الهاشميين فاغتالت طالبا . فلما احس العباس وغيره بما يجـــري لجأوا الـــى صفوف المسلمين ، فاعتبرهم المسلمون اسرى واعتبرهم النبـــي (ص) كذلك ، واجبرهم علـــى دفع الفـــــداء .

اســـلام جعفـــر

اسلم جعفـــر بعد اسلام اخيه علـــي بقليل ، بيوم او

---

١ ــ الحاكم في المستدرك .

نحـــوه ، وذلك ان ابا طالب ، وكان معه ولده جعفـــر ، رأى النبـــي (ص) وعليا يصليان ، وعلـــي قائم علـــى يمين النبـــي (ص) فقال لابنه جعفـــر : « صل جناح ابن عمك وصلّ علـــى يساره »(٢) فكانت هذه الجمـــاعة اول جماعة اقيمت في الاسلام(٣) .

ومنذ اسلم جعفر حمل عبء الدعوة مع غيره من الابطال ولما اشتد الاذى بالمسلميـــن ورأى النبـــي ان يهاجروا مـــن ديارهم ، اختار جعفـــرا لقيادة قافلة المهاجرين ، وكانـــوا خمسة وسبعيـــن رجلا واثنتـــي عشر امراة ، وذلك في السنة الرابعـــة او الخامسة من النبوة ، وقد خرج جعفـــر ومعه امرأته اسمـــاء بنت عميس ، فولدت له هناك اولاده عبدالله وعونا ومحمدا(٤) . وكانت هذه الهجرة في حياة ابي طالب ، فنظم ابو طالب ابياتا من الشعر ارسلها الـــى النجاشـــي قـــال فيـــها :

ليعلم خيـــار الناس ان محمدا
نظـــير لموسى والمسيح بن مريم

وانك ما تأتيـــك منـــا عصابـــة
بفضلك الا ارجعوا بالتكـــرم(٥)

---

٢ ــ اسـد الغـابـة .
٣ ــ امالـي محمـد بـن بابويـه .
٤ ــ طبقات ابـن سعـد .
٥ ــ الحـاكم في المستـدرك .

المناظـرة امام النجاشـي

ورأت قريش في هذه الهجرة حماية للمسلمين فعملت علـى استرداد المهاجريـن ، وارسلت لذلك وفدا مؤلفا من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة (اخي خالد بن الوليد) ليفاوضا النجاشـي في تسليم جعفر وجماعته . فجرت في مجلس النجاشـي مناظرة طريفة بيـن زعيمـي الفريقيـن اللذيـن جمع بينهما النجاشـي ليسمع من كل منهما ما يقول قبل ان يقرر امرا بشأنهما . وفيما يروي ابـن عساكر كما يقول ابـن كثير ، ان وفد قريش كان يتكلم باسم زعيمها ابـي سفيان ، وان ابا سفيـان ارسل مع الوفد هدية للنجاشـي وبطارقته .

وسأل النجاشـي عمرا عما يقول ، فاجاب عمرو : انه قـد صار اليـك ناس من سفلتنا وسفهائنا ، فارقـوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعـوه ، فادفعهم الينـا ..

ويبدو النجاشـي في هذا الموقف دقيقا وحكيما ، ويظهر وكأنه حاكم من حكام هذا العصر يدقق في طلب تسليم لاجـىء من اللاجئيـن . فهو لم يرفض راسا ، ولم يوافق راسا . بل درس الطلب ثم استجوب زعيـم المطلوبيـن ، ثم اصـدر قراره برد طلب التسليم . فكان بذلك سباقا لمن وضعوا في عهودنا الحديثة اصول تسليم اللاجئيـن بين بلديـن مختلفيـن . بل يمكـن ان نقول انه اول من ميز بيـن المجرم العادي الذي يجوز تسليمه ، وبيـن المجرم السياسي ــ كما نقول في اصطلاحنا اليوم ــ الذي لا يجوز تسليمه،

كمـا سنـرى بعد قليـل .

شرح مبادىء الاسلام

وقد كان عمرو بن العاص بارعا حين اثار امام النجاشي وبطارقته امر اعتناق ديـن جديد . وادرك جعفر ما رمى اليـه عمرو ، فركز جوابه علـى تفصيل امر الديـن الجديد وما يدعو اليه من خير وما ينهى عنه من شر ، فقال مـا خلاصته : ايها الملك ، كنا قوما اهل جاهلية ، نعبد الاصنام ونأتـي الفواحش ويأكل القوي منا الضعيف ، حتـى بعـث الله الينا رسولا منا نعرف صدقه وامانته وعفافه ، دعانـا الـى الله لنوحده ونعبده ونخلـع ما كنا نعبـد نحـن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وامرنا بالمعروف ونهانا عـن المنكـر ، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانـة وصلة الرحم وحسـن الجوار والكف عـن المحارم والدماء ، ونهانا عـن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيـم وقذف المحصنـة وكل ما يعرف من السيئات . وامرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام والصدقة وكل ما يعرف من الاخلاق الحسنة . فصدقنـاه وآمنا به واتبعناه . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عـن ديننا ليردونا الـى عبادة الاوثان ، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالـوا بيننا وبيـن ديننا خرجنا الـى بـلادك .

وكان هذا الدفاع الذي القاه جعفـر عرضا موجزا لاهم مبادىء الاسلام . وقبل ذلك سأل النجاشـي عمرا :

اهؤلاء عبيد لكم ؟ فقال عمرو : لا ، فقال النجاشي : فلكم عليهم دين ؟ قال عمرو : لا .

اذن فاللاجئون ليسوا مجرمين عاديين : فلا هم عبيد آبقون ولا هم مدينون فارون بحقوق الناس ، بل هم (لاجئون سياسيون) ذوو مبادىء معينة اوضحها قائدهم ، وهي مبادىء لا يستطيع اي منصف ان يجعلها سببا في تسليم اصحابها لمن يناقضونها بوثنيتهم . واذا كانت دينا جديدا فليس فيه ما يؤخذ على اصحابه .

وهكذا صدر قرار النجاشي برد طلب الاسترداد . فبرهن بذلك عنى انه على اعلى مستويات الانسانية.

دعوة جديد

ولم يكن عمرو بن العاص ممن يهزمون بسهولة ، متفتق ذهنه عن داهية رأى انها خير ما يرمي به جعفر واصحابه . فعاد يقول للنجاشي : « ان لهؤلاء رأيا في عيسى يخالف ما انت عليه » ، فدعاهم النجاشي من جديد ، فكان وقع هذه الدعوة اليما في نفوسهم ، اذ حسبوا انه قد بدا للنجاشي ما غير رأيه فيهم . وكان جعفر حين تلقى الدعوة الاولى قد عقد مؤتمرا من اصحابه ذاكرهم فيه بما يجب ان يكون عليه جوابهم للنجاشي . وبعد المداولة اقروا كلهم رأي جعفر حين قال لهم : « يجب ان نقول ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .. » لذلك رأيناه حين دخل على النجاشي يسلم عليه تسليما بسيطا ويأبى السجود بين يديه على عادة

جميع الداخلين عليه ، مع انه كان من المحتمل ان يثيره هذا التصرف ويغضبه ويسيء لمصلحتهم . ولكن جعفرا ابى ان يتصرف الا على اساس اسلامي بحت ، وان لا يتنازل قيد شعرة عن مبادئه التي لا تجيز السجود لغير الله . ولم يمض هذا التصرف بلا مناقشة ، فقد تساءل النجاشي عن تصرفهم الذي خالفوا فيه قواعد الدخول على الملوك . فقال جعفر ما مفهومه ان نبينا حدد لنا قواعد السلام بين الناس دون تمييز بينهم وامرنا بذلك فحييناك بالذي يحيي به بعضنا بعضا .. وكذلك رأيناه ايضا في جوابه الاول غير مجمجم ولا موارب ، كما كان حين اجاب عن راي نبيهم في عيسى : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم البتول العذراء ...

فلم يجد النجاشي في هذا الراي ما يمكن ان يؤاخذ به اللاجئون ، فانهم اذا كانوا لا يرون رأي النجاشي في عيسى فانهم لا يقلون عنه احتراما له ولامه ، لذلك ايد قراره الاول بقرار جديد ، ورفض تسليم اللاجئين .

مكة العاصمة

ويظهر مما قاله ابن اسحاق فيما حكاه ابن هشام في سيرته ، ان الامر في مكة كان يدل على ان سلطتين تتنازعان امر مكة ، وان اللاجئين كانوا يمثلون سلطة ، وعمرو بن العاص كان يمثل اخرى ، وان الطلب لم يكن فرديا او شخصيا . فعمرو بن العاص حمل معه هدايا للنجاشي وبطارقته وقدمها باسم ابي سفيان

ممثل السلطة الفعلية . ورأينا ان ابا طالب إرسل للنجاشي شعرا يشرح له وجهة نظر الفريق الاخر في طلب الحماية للاجئين .

وهنا ايضا عندما علم ابو طالب بما كان من امر ارسال الوفد الى النجاشي عاد فارسل اليه شعرا جديدا ضمنه الحنين الى ولده جعفر ، ثم الثناء على النجاشي والاعتماد عليه في حفظ حق اللاجئين في « لجوئهم السياسي » .. ولعل في كل هذا ما يدلنا على طبيعة العلاقات بين مكة وغيرها من العواصم قبل الاسلام وخلال الدعوة الاسلامية ، وعلى ان مكة كان معترفا بها كعاصمة تفاوض وتطالب ، وان قريشا كان مسلما لها بالسلطة في مكة ، وان وفدها كان وفدا (رسميا) معترفا به .

كما قد يدلنا الشعر الذي ارسله ابو طالب مرتين على انه كان للغة العربية ولشعرها وادبها جذور خارج الجزيرة العربية ، والا فلماذا استعمل ابو طالب الشعر ، وكذلك فان ابن اسحق وغيره يرون ان النجاشي طلب من جعفر ان يقرأ له شيئا مما جاء به النبي (ص) فقرأ له صدرا من (كهيعص) وان النجاشي ومن في مجلسه تأثروا بما سمعوا من القرآن .

محاولة انقلاب على النجاشي

ويروي ابن اسحاق عن بعض المسلمين اللاجئين ان محاولة انقلاب جرت بعد هذه الاحداث كانت تستهدف

النجاشـــي نفسه ، ولا يحدثنا الراوي عـــن اسباب هـــذه المحاولة وعمـــا تذرع به الانقلابيون ، بل يكتفـــي بان يصف شعور اللاجئيـــن حيـــن سمعوا بالاخبار ، فيقول بهذا النص وهو يتحدث عـــن حســـن صنيع النجاشـــي : « فوالله انا لعلـــى ذلك اذ نزل به ــ اي النجاشي . رجل من الحبشـــة ينازعه في ملكه فوالله ما حزنا قط حزنا كان اشد من حـــزن حزناه عنـــد ذلك تخوفا من ان يظهر ذلك الرجـــل علـــى النجاشـــي » .

وبالرغم من ان هذا الراوي لا يتحدث عن التفاصيل والاسباب ، فان من غير البعيـــد ان يكـــون المنازع للنجاشي قد استغـــل حماية النجاشـــي لاصحاب الديـــن الجديـــد وجعلها من عوامل ثورته وتحريض الناس عليه . لذلك حزن اللاجئون اولا ثم فرحوا ثانيا . ويدل علـــى ذلك ان بعـــض اعوان النجاشـــي ممن حضر مجلس المناظـــرة لم يكونـــوا راضيـــن عـــن الرعاية التـــي ظفـــر بها اللاجئون مـــــن النجـــــاشـــي .

الرجـــوع مـــن الحبشـــة

ثم مضت الحياة سليمة علـــى جعفـــر واصحابـــه وكانوا يتنسمون اخبار الحجاز ، فعلموا بهجرة النبي (ص) وصحبه الـــى المدينة ، ثم تتابعت انباء الانتصارات الاسلامية فمضت ايام بدر واحد وبني النضير والخندق وبني قريضة واستقـــر امر الاسلام واصبح قوة تحمـــي نفسها واصحابها ثم جاء يوم خيبر ، فاذا بجعفر واصحابه يصلون المدينة يوم

النصر ، فيقول النبي : « لا ادري بايهما انا اشد فرحا : بفتح خيبر ، امبقدوم جعفر » .

قتل رسول النبي

الخطة التي ارادها النبي (ص) لنشر الاسلام لم تكن خطة الفتح والغزو على عكس ما يعتقد الناس وما جرى عليه الحال بعد النبي (ص) . بل كانت الخطة ارسال الرسل والدعاة مزودين بالاسلام بكل ما في مبادئه من حرية وعدالة اجتماعية واخوة ومحبة . وقد رأينا نجاح هذه الخطة في البحرين واليمن مثلا . وفي يقيني انه لو امتدت الحياة بالنبي (ص) لما سلك غير هذا السبيل ولما لجأ الى القتال الا اذا الجىء اليه كما حدث حين ارسل في السنة الثامنة للهجرة رسوله الحارث ابن عمير الازدى داعية الى بلاد الشام فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني احد حكام العرب العامليين تحت سلطة الروم في بلاد الشام . ومن الطبيعي ان لا يسكت النبي لقتل رسوله المسالم .

غزوة مؤتة

لذلك اعد جيشا عدته ثلاثة الاف لتأديب المجرمين ، ووجهه الى البلقاء حيث كان قد وقع الاعتداء ، وجعل للجيش ثلاثة قواد يتناوبون القيادة في حال استشهاد احدهم ، هم جعفر ابن ابي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة . فاجتمع لحربهم جيش مكون من مائتي الف نصفهم

من العرب ونصفهم من الروم ، فابوا ان يرتدوا وفي ذلك يقول عبدالله بن رواحة :

فرحنا والجياد مسومات
تنفس في مناخرها السموم
أقامت ليلتين على (معان)
فاعقب بعد فرقتها جموم

فلا وابي مآب لنأتينها
ولو كانت بها عرب وروم
بذي لجب كأن البيض فيه
اذا برزت قوانسها النجوم

والتقت القوتان غير المتكافئتين واستشهد القواد الثلاثة . وعرف عن جعفر انه اخذ الراية بيمينه فقطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره ، وحاول ان يضم الراية الى صدره بساعديه المبتورين حتى قتل . واجمع المؤرخون على انه وجد في جسده عشرات الجروح ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح . وانتهت الحرب بانسحاب المسلمين .

صدى الاستشهاد

وبلغ النبي الخبر فمضى الى منزل جعفر وسأل زوجته أسماء : اين بنو جعفر ، فجاءته بهم — وهم اطفال — فضمهم وقبلهم ثم ذرفت عيناه فبكى، فقالت اسماء :

يا رسول الله لعله بلغك عن جعفر شيء . قال : نعم انه قتل . ثم قال على مثل جعفر فلتبك البواكي .

مراثيه

قال كعب بن مالك الانصاري يرثيه من قصيدة :

صبروا بمؤتة للاله نفوسهم
عند الحمام حفيظة ان ينكلوا
ساروا امام المسلمين كأنهم
طود يقودهم الهزبر المشبل
اذ يهتدون بجعفر ولوائه
قدام اولهم ونعم الاول
حتى تقوضت الصفوف وجعفر
حيث التقى جمع الغواة مجدل .

وقال حسان بن ثابت من قصيدة :

غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم
الى الموت ميمون النقيبة ازهر
اغر كضوء البدر من آل هاشم
ابي اذا سيم الظلامة اصعر
فطاعن حتى مال غير موسد
بمعترك فيه القنا متكسر .

الزنوج في معركة الاسلام

كرم محمد بن عبد الله (ص) الانسانية كلها فألغى الاضطهاد العنصري الغاء عمليا حين اختار لاقدس مهمة زنجيا اسود اللون ، وجعل منه مؤذنه الذي ينادي المؤمنين للصلوات في اوقاتها الخمس .

هذا الاسود هو بلال الحبشي الذي كان عبدا من عبيد قريش فلم تكد تبلغه الدعوة الاسلامية حتى كان اول الملبين لها ، وتعلم به قريش ، ويعلم به سيده (امية بن خلف) فينصحونه بالعدول عن الطريق الذي مشى فيه فلا يقبل النصيحة ويستمر مسلما مخلصا فيأخذون في تعذيبه العذاب الاليم ، ولكنه لا يزداد الا ايمانا ، ثم يفر بنفسه الى المدينة مع من هاجر اليها ، وهناك صار مؤذن الرسول . ولقد كانت في صوته لكنة فلا يستطيع ان يلفظ الشين لفظا صحيحا ، بل تخرج من فمه وكأنها سين ، فيقول الرسول (ص) ان سينه عند الله شين ..

وعلى صوت بلال الحبشي كان يهرع شيوخ المسلمين وشبانهم الى المسجد ملبين نداء الله يبعثه هذا الانسان الاسود اللون . ولم يكن تكريم لعنصر بلال اعظم من هذا التكريم الذي خصه به رسول الله ، ولذلك فانه لما مات النبي انقطع الى اهل البيت مخلصا لهم ، وفيا لذكرى ابيهم الرسول .

بيــن الجحود والــوفاء

وتدور الايام ويلقـــى اهل البيت محنا وارزاء ، ويبرز الاوفياء ملتفيــن حول الاسرة النبوية عازميــن علـــى الموت دونها اخلاصا لمحمـــد ورسالته . ويقف الحسين في كربـــلاء في اقل من مائة من الرجال كانوا يمثلون في تلك الساعـــــة انبـــل ما في الكون من سجايا ، وهل في الكون انبل من ان يبذل الانساء دمه طواعية وفاء لرجل وثباتا علـــى مبـــــدأ واخلاصا لعقيـــدة .

وتبارى الرجال في التضحيـــة ومضوا يسقطون واحدا بعـــد الاخر . وكان في الركب الحسينـــي رجل بسيط ، لا يحسب اذا حسبت البطولات ، ولا يذكر اذا ذكرت التضحيات، لا يؤبه لرأيه ولا يعد لمهمة من مهمـــات الامور .

كان يؤمر فيلبي الامر ، ويستخدم فيخدم مسرعا ، كان اقصـــى ما يعرفه الرفاق عنه انه خادم امين وتابع مخلص . وما فوق ذلك فليس مما يرد اسمه علـــى البال .

كان رقيقا من اولئك الارقاء السود الذين امتـــلأت بهم قصور العتاة وبيوت الطغاة ، وكانت اية حشرة تلقى عناية اكثر مما يلقاه اي واحد منهم . وكان نصيبه ان وصل الـــى يـــد ابـــي ذر الغفارى صاحب محمد المخلص ، وسمع ابـــو ذر النبـــي (ص) يوصي بالارقاء خيرا ويحض الناس علـــى تحريرهم، ومن اولـــى من ابـــي ذر بتنفيذ وصايا النبـــــي فاعتق ابو ذر العبد (جون) وارسله حـــرا .

واصابت المحنة ابا ذر وطورد واضطهد ومات منفيـــا في الربذة ، وظل جون فقيرا معدما ، فتلقاه اهل البيت بالحنان

والعطف ، فقد كانت فيه ذكريات من صاحب جدهم راوها جذيرة بالوفاء فاحتضنوه والحقوه بشؤونهم يقوم علـــى رعاية بيتهم والعناية باطفالهم وقضاء حاجات رجالهم .

جـــون في كـــربـــلاء

ومشـــى الحسيـــن الـــى كربلاء ، وهذه حال جون ، لا شأن له اكثر من هذا الشأن ، ولا من يفكر بان يكون لجون دور فوق هذا الدور . وكان في حسبان الجميـــع انــــه سيغتنم اول فرصة للسلامة فينجو بنفسه وينشد الخدمـــة من جديد في بيت جديد .

ولكـــن جون بقـــي في ركب الحسيـــن لم يفارقه مع المفارقيـــن ، وثبت مع الرجال المائة الذيـــن ثبتوا حتـــى وصلوا الـــى كربلاء وظـــن الناس ان (جون) سينتظـــــر الساعة الحاسمة ، ثم ينطلق بعدها في طريق النجاة ، ولكن الايام مضت وجون في مكانه لم يبرحه ، وجاء اليـــــوم التاسع من المحرم وجون قائم علـــى خدمة الحسين ، فها هو يصلح له سيفه والحسين يردد تلك الابيات الشهيرة التـــي لم تستطع معها اخته زينب الا ان تذرف دموعها .

اما جون فلم يذكر احد انه انفعل او تأثر او بكـــى ، اتراه لم يفهم ما كانت تعنيه تلك الابيات ؟ اتراه صلب العاطفة متحجـــر القلب الى حد لا يهزه صوت الحسين ينعى نفسه ؟ اتراه في تلك الساعة في شاغل عـــن كل شـــيء الا عن نفسه يفكـــر كيف يدبر وسيلة الخلاص عصر اليوم او صباح الغد ؟

معالم الوفاء

الحقيقة كانت فوق كل تصور .. لم يبث جون ولم ينفعل ولم يتأثر ، لان ما كان فيه كان فوق البكاء والانفعال والتأثر . كان جون وهو يصلح سيف الحسين ، والحسين ينشد ابياته ، كان جون يستعرض في ذهنه كل ذلك الماضي الحافل ، كان يتذكر النبي محمدا (ص) وهو يرفع الانسان الاسود الى اعلى مراتب الكرامة حين عهد الى واحد منهم بوظيفة مؤذنه الخاص وكان يتذكر تلك الالوف من السود التي انطلقت حرة تنفيذا لوصايا محمد . كان كل ذلك يجول في ذهن (جون) مولى ابي ذر الغفاري .

مع سيف الحسين

وها هو سيف الحسين الان في يده لآخر مرة يصلحه له ليقف به الحسين غدا على اعلى قمة في التاريخ فيهز الدنيا كلها لتشهد كيف تكون حماية الهدى والحق والخير ، وكيف تكون البطولات التي لا تبغي الا الاستشهاد ذودا عما تؤمن به وتمتنقه ، وكيف يرفض الاباة الحياة اذا لم تكن كما يريدون حياة الحرية والسعادة للامة ، وحياة الكرامة والحق لهم .

غدا سيلمع هذا السيف الحديدي في كف الحسين ثم ينثلم الى الابد ، ولكن سيف الحق الذي جرده الحسين سيلمع الى الابد دون ان ينثلم ، وغدا سيعلو صوت الحسين بنداء الحرية ثم يصمت الى الابد ، ولكن صوت الحرية الذي انطلق من فم الحسين سيظل مدويا الى الابد .

سكون جـــون

كان جون يلجأ الـــى صمت رهيب ، وظل صامتا حتى دنا الليل ، واصغـــى بكل جوارحه الـــى الحوار البطولـــي الخـــارق الذي جرى بين الحسيـــن وانصاره ، وهو يحرضهم علـــى تـــركـــه وحده والانطلاق في سواد الليـــل ، وهـــم يردون عليـــه واحدا بعد واحد رافضيـــن لاول مرة فيحياتهم اوامره ، ويصرون علـــى ان يلقوا نفس المصير الذي سيلاقيه هـــو .

كان جون في تلك الساعه يجلس في زاوية دون ان يأبـــه له احد ، وكان يود من كل قلبه لو كان لصوت الزنـــوج صوت بيـــن هذه الاصوات ، ولكنه فضل الصمت المطبق .

جـــون البطـــل

وفي الصباح عندما تبارى الابطال المائة متسابقيـــن الى الموت ، ومشـــى كل منهم يستأذن الحسيـــن ويودعه ماضيا الـــى مصيره ، تقدم (جون) ، وهو في كل خطوة من خطواته لا ينفك مصغيـــا الـــى صوت زميله بلال الحبشـــي متعاليا فوق كل اصوات البيض تكريمـــا من محمـــد واعزازا . وربما خطـــر له في تلك اللحظات منظـــر بلال وهو واقف علـــى اشرف مكان واقدس بقعـــة ، علـــى ظهـــر الكعبة حيـــن امـــره محمـــد ساعة فتح مكة ان يصعد فينادي بالاذان . الاسود الذي كان عبدا ذليلا قبل رسالة محمـــد يصعـــد علـــى الكعبة ، وهو في نظر الناس اعز انسان .

دنت ساعة الوفاء لمحمـــد ، دنت الساعة التـــي يرد

فيها هذا الزنجي (جون) بعض الجميل لمحمد ، وهل اعظم في الوفاء لمحمد من ان يموت ذودا عن ابنائه ونسائه وتعاليمه ، وتقدم جون من الحسين وقد انقلب بطلا مغوارا ، وقد تجمعت فيه كل فضائل بني جنسه ، تقدم يستأذن الحسين في ان يكون كفيره من رفاق الحسين .

الكريم الحسب

والتفت الحسين اليه وقد اخذته الرقة له والحنان عليه ، ولم يشأ ان يورطه فيما لا شأن له به ، فقال له : انت انما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا .

ولكن جون البطل اجاب الحسين : انا في الرخاء على قصاعكم وفي الشدة اخذلكم ؟! ثم اردف هذا الجواب بكلمات لم يقصد بها الحسين ، بل اراد ان يوجهها للاجيال الماضية والاجيال الحاضرة والاجيال الاتية ، تلك الاجيال التي لم تر للزنوج الكرامة التي لهم ، فقال : ان ريحي لنتن ، وان حسبي للئيم ، وان لوني لاسود ، افتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي ؟ لا والله لا افارقكم حتى يختلط هذا الدم الاسود بدمائكم .

لقد كان جون يعلم انه اكرم على الحسين من الوف البيض ، وان الحسين اكرم من ان يراه لئيم الحسب نتن الريح . .لم يكن جون في الواقع يخاطب الحسين سبط محمد مكرم الزنوج ، بل كان يقف على ذروة من ذروات التاريخ ليقول للادعياء المفاخرين بالوانهم واطيابهم ، اليكم

هذا الذي ترونه في نظركم لئيم الحسب نتن الريح ، اليكم به اليوم يطاولكم شرفا وحمية وشجاعة ووفاء فلا تصلون الى اخمص قدميه . منكم يزيد الابيض اللون ، المتحدر من عبد مناف ، المضمخ بالاطياب ، ومنكم عبيد الله بن زياد ومنكم شمر ابن ذي الجوشن وحجار بن ابجر وقيس ابن الاشعث وعمرو بن الحجاج ، منكم قبل هؤلاء وبعد هؤلاء كثيرون ، وكلهم يشع بياضا ويعبق طيبا ، وكلهم يجر وراءه حلقات آباء واجداد .

اولئك غدروا بمحمد الذي اخرجهم من الظلمات ، فداسوا تعاليمه وحشدوا الحشود على بنيه ، اولئك يتهيئون الان ليرفعوا رؤوس ابناء محمد على رماحهم . وهذا الزنجي وفى لمحمد الذي حرره واكرم جنسه ، فتقدم ليذودكم عن بنيه وبناته وتعاليمه ، وهو يتهيأ الان ليسفك دمه دون ذلك ، فأيكم اللئيم الحسب ، النتن الريح ، الاسود الوجه ؟ اانتم ام هو ؟

جون يحقق امله

وحقق الحسين رجاء جون فأذن له ، ومشى (جون) مزهوا ببطولته معتزا بوفائه يود لو ان عيني بلال الحبشي تراه في خطواته هذه ، وان زنوج الدنيا يطلون عليه ليروا كيف مثلهم في موكب البطولات وتكلم باسمهم على منبر التضحيات ، وكيف شرفهم ساعة لا شرف الا للنفوس العظيمة .

لقد ضارب جون الحر اولئك العبيد باعمالهم ، السود

بقلوبهم ، وكان له ما اراد . فامتزج دمه الاسود مع اشـــرف دم : مع دم الحسيـــن سبط محمد ومع دماء اهل بيته .

ووفـــى الزنوج لمحمـــد الذي رفع من شأنهم واعلـــى امرهم ، وتحقق ما اراده جون . فلم ينفس عليـــه الحسين بالجنـــة ، ولم يبخل عليه بان يثبت بانه كريم الحسب طيب الـــــريــــــح .

زين العابدين علي بن الحسين

للحسيـــن بـــن علـــي ولدان كل منهما يسمـــى عليا : هما علـــي الاكبـــر وعلـــي الاصغر . والمشهور ان شهيد كربـــلاء هو علي الاكبر . ولكن هذه الشهرة موضع مناقشة فقد قيل ان الاكبر هو علي زين العابدين ،ويبدو ان هذا القول هو الصواب ، لان من الثابت ان الامام محمد الباقر ابن الامام زيـــن العابديـــن ادرك جده الحسين وانه عاش معه ثلاث سنيـــن او اربع سنيـــن . في حيـــن لم يرد ان شهيد كربلاء كان عند استشهاده متزوجا . ومن غير المتعارف ان يتزوج الولد الاصغـــر قبل الاكبـــر .

ولكن الشهرة طاغيـــة ، فما من احد يذكر الشهيد في الخطابة او الكتابة الا ويقرن اسمه بلفظ (الاكبـــر) . وقد علل الشيـــخ المفيـــد في كتابه (الارشاد) هذه الشهرة بانه كان للحسيـــن ولد ثالث هو اصغـــر الاخوة الثلاثة وان الشهيـــد هو الاوسط ولكنه اكبر بالنسبة الـــى الاصغر .

مـــولـــده ووفـــاتـــه

ولد في المدينة ، وفي يوم ولادته وشهرها وسنتها بعض الاختـــلاف ، فمـــن قائل انه ولد لتسع او خمس او سبع خلون من شعبان . ومن قائل انه ولد في منتصف جمادى الاخرة .

وكذلك قيل انه ولد سنة ٣٨ او ٣٧ او ٣٦ من الهجــرة .
وتوفــي في المدينة في المحرم سنة ٩٤ او ٩٥ .

نشـــأتــه

عاش مع جده علـــي بن ابي طالب سنتين او اكثر ، ومع عمـــه الحسن اثنتي عشرة سنة او عشر سنين ومع ابيه الحسيـــن ٢٣ او ٢٤ سنة ، وعاش بعد ابيه الحسين ٣٤ او ٣٣ او ٣٥ سنة .

في كربـــلاء

لم يسلم احد من اهل البيت في كربلاء فقتل حتى الاطفال، فان الحسيـــن حيـــن طلب من اخته زينب ان تريه طفلـــه الصغير عبدالله ليودعه ، واخذه في يديه واومأ اليه ليقبلـــه رماه حرملة بـــن كاهل الاسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه . وكذلك لما رأى عبدالله بـــن الحسن وحدة عمه الحسيـــــن لم يستطع — وهو غلام لم يراهق — ان يصبر فانسل من خيمـــة النساء وانطلق الـــى عمه فلحقته زينب بنت علـــي لترده . فقال لها الحسين : احبسيه . فامتنـــع الغـــلام امتناعا شديدا وجاء يشتد الـــى عمـــه الحسين حتـــى وقف الـــى جنبه وقال : لا افارق عمي .

كان هذا المشهد الانســـانـــي الرائع تتدفق احداثه متتابعة بكل ما فيها من رهبة وعاطفة وجلال : زينب تحـــاول رد الغـــلام ، والحسيـــن يحاول اقناعه بالرجوع ، زينب بكل ما فيها من رقة نسوية انسانية وبكل ما اشتملت علــــــه

جوانحها من حنان القربى تجر الطفل الى الخيمة ، والحسين بكل ما احتواه قلبه الكبير من اشفاق ورحمة يبعد الغلام عنه ، والغلام بكل ما غذي به في بيت النبوة من سمو ورجولة وشمم ، وبكل ما ورثه عن علي وفاطمة من بر ووفاء ونخوة وشجاعة يتملص منهما ويرد عليهما صارخا : لا افارق عمي . ثم يقف الى جنب عمه يحاول لو يستطيع حمل سيف او نقل رمح يدافع بهما عن هذا العم العظيم . ولكنه لا يملك الا قلبه العطوف وجسمه الغض فيتقدم ليشارك بهما عمه الحسين بمصيره .

هذا المشهد الانساني الرائع لم يكن له في قلب ابجر بن كعب من اثر الا اثارة همجيته واستفزاز وحشيته فاهوى بسيفه الى الحسين فصاح الغلام ويلك اتقتل عمي ؟ فازدادت وحشية ابجر وتعاظمت همجيته فترك الحسين واندفع بالسيف الى الغلام سبط محمد بن عبد الله (ص)، فاتقى الغلام السيف بيده فأطنها السيف الى الجلد فاذا هي معلقة فنادى الغلام : يا عماه ، فاخذه الحسين اليه فرماه حرملة بن كاهل بسهم اجهز عليه وهو في حجر عمه .

هكذا كان مصير كل من شهد كربلاء من اهل البيت لم يشفع بأحد منهم سن ولا ضعف .

ولكن زين العابدين سلم ، لانه كان مريضا لا يستطيع وقوفا ولا يطيق حركة ولا يتحمل خطوة ، ومع ذلك فان الذين قتلوا اباه واعمامه واخوته كادوا يقتلونه ، ولكن حميد بن مسلم ظل يقنعهم ويداورهم حتى انصرفوا عنه وتركوه لما به ، وهكذا سلم علي بن الحسين زين العابدين فكان منه وحده نسل الحسين ..

بعـد كـربـلاء

علـى انه تعرض بعد كربلاء لموقف كاد فيه ان يقتـل، وذلك انه بعد ان سيق نساء البيت النبوي مع زين العابدين الـى عبيـد الله بن زياد الـى الكوفة ، وادخل الجميـع عليـه ، تعجب ابن زياد ان يرى بيـن من ادخلـن شابـا سليما . فقال له من انت ؟ قال : انا علـي بـن الحسين فقال ابـن زياد : اليس قد قتل الله علـي بن الحسين ؟ فقال له علـي : قد كان لـي اخ يسمـى عليا قتله الناس . فقال ابن زياد : بل الله قد قتله . فقال علـي : الله يتوفـى الانفس حيـن موتهـا .

فغضب ابن زياد وقال : وبك جراة لجوابـي وفيـك بقيـة للرد علـي ، اذهبوا به فاضربوا عنقه .

فتعلقت به عمته زينب . وقالت يا ابـن زياد حسبـك من دمائنا ، واعتنقته وقالت والله لا افارقه فان قتلته فاقتلني معـه .

وقال له علـي : ابالقتل تهددني يا ابن زياد ؟ اما علمت ان القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة ؟

في دمشق

ساق ابـن زياد نساء البيت النبوي ورؤوس رجالـه الـى دمشق ، وساق معهم زيـن العابدين ، فاعرض علي عمـن رافقوهم من الرجال فلم يكلم احدا منهم بكلمـة حتـى بلغوا دمشق .

وفي دمشق اصر زين العابدين علـى يزيد بان يعـاد

اليهم ما سلب منهم . وكان عجيبا منه ان يهتم بما سلب منهم بعد الاذى الذي جرى عليهم . ولكن زين العابدين قال : اني اطالب بما اخذ منا لان فيه مغزل فاطمة بنت محمد ، ومقنعتها ، وقلادتها ، وقميصها .

الاسلام والرق

الذين يأخذون على الاسلام انه لم يلغ الرق الغاء كاملا يتجاهلون ان الحياة الاقتصادية كانت تقوم في تلك العصور على الرق ، وانه لا يكفي ان يعلن الاسلام الغاء الرق وتحريمه ، بل لا بد في ذلك من التدرج تدرجا لا تضطرب منه الاوضاع الاقتصادية اضطرابا يخربها . والاسلام في كل احكامه كان عمليا واقعيا ، لذلك عمل اول ما عمل على الغاء المنابع الاساسية للرق بحيث يتقلص تقلصا طبيعيا مع الزمن . ثم حض على تحرير العبيد واعلن ان ذلك اكبر مكسب للمثوبات الكبرى ،واعظم ما يتقرب به الانسان الى خالقه . ولست الان بسبيل التوسع في هذا الموضوع . ولكن كان لا بد من هذه الاشارة لنرى كيف طبق الرجال الذين تمسكوا بالاسس الاسلامية تعاليم الاسلام وكيف مشوا في تحرير العبيد الخطوات السليمة .

محرر العبيد

ومن اولى من الامام زين العابدين بالاخذ بحقيقة الاسلام وجوهره اخذا كاملا ، وقد عمل بهذا النهج في كل شؤون حياته لا سيما بشأن الرق بحيث يحق لنا ان نطلق

عليه لقب محرر العبيد .

ففي الوقت الذي كانت تمتلىء فيه قصور الحكام بالارقاء نساء ورجالا وكانت الدولة تسيء تطبيق تعاليم الاسلام، كان علي بن الحسين يقود حملة تحرير الرقيق ويجعل من نفسه في ذلك قدوة للشعب . وكانت خطته كما يلي :

اولا : كان عندما يصل الارقاء الى يده يعاملهم معاملة الانداد ، فاذا اخطأوا لم يعاقبهم ، بل يسجل اخطاءهم في دفتر عنده وينتظر حتى يأتي عيد الفطر فيجمعهم ويعرض عليهم اخطاءهم ملاطفا لهم فيعترفوا بتلك الاخطاء فيقول لهم : عفوت عنكم فهل عفوتم عني ما كان مني اليكم؟ فيقولون : قد عفونا عنك وما اسأت ، فيقول : قولوا اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا . ثم يحررهم ويعطيهم بعض المال ليبدؤوا حياتهم الجديدة .

ثانيا : لم يكن يبقى عنده عبدا سنة كاملة ، بل كان يشتريهم في الشهور التي تسبق رمضان ليسرع في تحريرهم وقت العيد .

ثالثا : وكذلك كان يفعل في عيد الاضحى ، فهو يشتري العبيد وليس له حاجة بهم ، فاذا جاء وقت الحج خرج بهم الى عرفات ، فاذا انتهى الحج حررهم وزودهم بالمال . ولم يكن ينقص عدد المحررين في كل عيد عن العشرين انسانا .

والذي يزيد في تقديرنا لهذا العمل العظيم هو ان علي بن الحسين لم يكن ذا ثروة تساعده على التوسع في هذه الخطة ، بل كانت موارد رزقه محدودة ، فكان ينفق كل ما

يصل الـــى يديه فيهذا السبيل وفي مساعدة ذوي الحاجات كمـــا سنذكـــــر .

مساعـــدته للفقـــراء

كان يخرج في الليل حاملا معه ما استطاع جمعه مـــن المال ، وربما حمل الطعام او الحطب ايضا حتـــى يأتــــي ابواب الفقـــراء ، فيقرعها بابا بابا ، ثم يناول من يخـــرج اليـــه ، ويكـــون مغطيـــا وجهه لئلا يعرفه احد . فلما توفي انقطـــع عـــن الفقراء ما كان يأتيهم فعرفوا انه هو الفاعل .

انســـانيتـــــه

كان هشام بـــن اسماعيل(١) امير المدينة يسىء الـــى علي بن الحسين ويؤذيه اذى شديدا ، فلما عزل امر به الوليد ان يوقف للناس .. فقال هشام ما اخاف الا من علي بـــــن الحسيـــن فكان الناس يمرون به فيشتمونه . فمر به زيـــن العابدين وسلم عليـــه وامر خاصته ان لا يعرض له احد .

ولما طرد اهل المدينة بنـــي امية قبل وقعة الحرة ، اراد مروان بـــن الحكم ان يستودع اهله ، فلم يقبل احـــــد ان يكونوا عنده ، الا علـــي بن الحسين ، فوضعهم مع عياله

١ ــ هو هشام بـــن اسمـــاعيل بن هشام المخزومي . وهو الذي ضرب سعيـــد بـــن المسيب حيـــن دعاه الـــى البيعة للوليد عبـــد الملك لمـــا عقد له ابوه بالخلافة فأبى سعيد ، وقـــال انتظر ما يصنع الناس ، فضربه وطاف به وحبسه . وهكذا انطبق عليـــه القول المأثور (من اعان ظالما سلطه الله عليـــه).

واحسن اليهم مع عداوة مروان المعروفة له ولبيته . وعال في وقعة الحرة اربعمائة امرأة من بني عبد مناف الى ان تفرق جيش مسلم بن عقبة .

وكان يقول لمن يشتمه : ان كنت كما قلت فاسأل الله ان يغفر لي ، وان لم اكن كما قلت فاسأل الله ان يغفر لك . وكان لا يسافر الا مع رفقة لا يعرفونه ويشترط عليهم ان يكون من خدم الرفقة فيما يحتاجونه ، ويقول اكره ان آخذ برسول الله مالا اعطي مثله .

وكان يابى ان يؤاكل امه ، فقيل له يا ابن رسول الله انت ابر الناس واوصلهم للرحم فكيف لا تؤاكل امك ؟ فقال اني اكره ان تسبق يدي الى ما سبقت اليه عينها .

وكان يعجبه ان يحضر طعامه اليتامى والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم ، وكان يناولهم بيده . ومن كان منهم له عيال حمل الى عياله من طعامه .

كانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية

وقد اتخذ من المسجد ومن بيته مكانا يلتف فيه حوله طلاب العلم الوافدون من كل مكان ، وكانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية ، فمنذ سنة ٦١هـ الى سنة ٩٥ ، اي طيلة خمس وثلاثين سنة كان منزله وكان المسجد مدرستين يزدحم فيهما الطلاب عليه ، فبينما كانت الدولة مشغولة باستبدادها واستنزاف دماء الشعب وسلب امواله واضطهاد احراره ، كان علي بن الحسين مشغولا بنشر العلم وبث الثقافة وانارة الافكار وتهذيب

الاخلاق . فكثر تلاميذه والاخذون عنه في انواع العلم . واصبح اولئك التلاميذ وتلاميذهم صفو بناة الحضارة الاسلاميـــة ونخبة رجال الفكر الاسلامـــي والتشريع والادب .

ولقد اخذ عنه علماء الحجاز ومن يأتـــي مـــن البـــلاد البعيـــدة والقريبة في مواسم الحج ودونوا ما اخــذوه عنـــه ورواه عنـــهم الناس .

فممـــن روى عنـــه او روى عمن روى عنه : الزهري، وسفيـــان بـــن عيينة ، ونافع ، والاوزاعـــي ، ومقاتـــل ، والواقدي ، ومحمد بن اسحاق ، والطبري ، وابـــن البيع ، واحمـــد بـــن حنبل ، وابـــن بطة ، وابو داود ، وصاحـــب الحليـــة ، وصاحب الاغانـــي ، وصاحب قوت القلـــوب ، وصاحب شرف المصطفى ، وصاحب اسباب النزول ، وصاحب الفائق ، وصاحب الترغيب والترهيب وغيرهم .

ومن رجاله من الصحابة جابر بـــن عبدالله الانصاري، وعامر بـــن وائلة الكنانـــي ..

ومـــــن التابعيـــن سعيـــد بـــن المسيب ، وابـــــو محمـــد سعيـــد بـــن جبيـــر ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وابو خالد الكابلي ، والقاســـم بن عـــوف ، واسماعيـــــل ابـــن عبدالله بـــن جعفـــر ، وابراهيم والحســـن ابنا محمد بـــن الحنفيـــة ، وحبيب بـــن ابـــي ثابت ، وابو يحيـــى الاسدي، وابو حازم الاعرج ، وسلمة بن دينار . ومن اصحابه ابو حمزة الثمالي، وفرات بن احنف ، وعلي بن رافع، وابو محمد القرشي السدى الكوفـــي ، وجابر بن محمد بن ابي بكـــر وايوب بـــن الحســـن ، والضحاك بن مزاحم الخراساني ،

وطاووس بن كيسان ، وحميد بن موسى الكوفي ، وابان بن تغلب ، والفرزدق الشاعر وغيرهم .

مؤلفاته

من آثاره المدونة والتي تعتبر من اوائل التأليف في صدر الاسلام :

١ ــ الصحيفة الكاملة . وقد استنسخ الناس منها قبل عهد الطباعة نسخا لا تعد ولا تحصى بالخطوط الجميلة النادرة المثيل والمزينة بجداول الذهب . اما في عصور الطباعة فقد طبعت طبعات كثيرة .

وشرحها العلماء شروحا عديدة منها شرح بهاء الدين العاملي المسمى حدائق المقربين . واحسن شروحها شرح السيد علي خان الشيرازي .

وهذه الصحيفة كانت منها نسخة عند ولده زيد الشهيد ثم انتقلت الى اولاده والى اولاد عبدالله بن الحسن . مضافا الى ما كان عند الامام محمد الباقر .

وتعتبر من اعلى درجات البيان العربي باسلوبها ومعانيها ، وهي حرية بدراسات واسعة .

٢ ــ رسالة الحقوق ، وهي من الاعمال الفكرية السامية في الاسلام تحتوي على توجيهات ودراسات وتعليمات وقواعد في السلوك العام والخاص من ادق ما يعرفه الفكر الانساني .

الزعيم الشعبي

ان المزايا التي كان يتمتع بها هذا الامام جعلت منه

زعيمـــا شعبيـــا محبوبا الـــى اقصى حدود الحب ، مهابا الـــى اعـــلى درجات المهابة . والحادثة الاتيـــة وحدها دليل علـــى مـــا كان يكنه له الشعب من حب واحترام وتقدير .

فقد حج هشام بـــن عبد الملك ، وهو الرجل الثانـــي في الدولة ، فطاف بالبيت ، وجهد ان يصل الـــى الحجـــر الاسود فيستلمـــه فلم يستطع لشدة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليـــه ينظـــر الـــى الناس ومعه حواشيـــه واتباعه، اذ اقبل علـــي بـــن الحسيـــن فطاف بالبيت ، ولم يكـــد يطل بطلعته علـــى الجمـــاهير المحتشدة حتـــى تطلعـــت بابصارها اليه ترمقه بنظرات الحب والتقديـــر والاعجـــاب ثم افرجت له بيـــن صفوفها محدقة به احداق الاجـــلال والاكبار . فقال رجل من حاشية هشام من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام متجاهلا : لا اعرفه . وكان الشاعر الفرزدق حاضرا ، فاوحـــى له هذا المشهد وهـــذا التساؤل بقصيدة من احســـن شعره قال فيها :

هـــذا الذي تعرف البطحاء وطأتـــه
والبيـــت يعـــرفه والـــحل والحـــرم
هـــذا ابـــن خير عباد الله كلهـــم
هذا التقـــي النقـــي الطاهر العلـــم
سهل الخليقة لا تخشـــى بـــوادره
يزينه اثنـــان حســـن الخلق والكرم
حمال اثقال اقـــوام اذا فدحـــوا
رحـــب الفنـــاء اريب حيـــن يعتـــزم
يكـــاد يمسكه عرفان راحتـــــه
ركـــن الحطيـــم اذا ما جـــاء يستلم

وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من انكرت والعجم

وقد جرت هذه القصيدة بلاء على الفرزدق اذ امر هشام بحبسه في عسفان بين مكة والمدينة . وارسل اليه زين العابدين بمبلغ من المال فرده وقال انما قلت ما قلته غضبا لله ورسوله فما آخذ عليه اجرا . فقال الامام نحن اهل بيت لا يعود الينا ما اعطينا . فقبله الفرزدق .

جعفر الصادق

قال الحسين بن علي الوشاء وهو يتحدث عن جعفر الصادق : « ادركت في هذا المسجد — يعني مسجد الكوفة — تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد » .

ويقول المؤرخ الهندي السيد امير علي : « ولا مشاحة ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله فاصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى (جعفر) والملقب (بالصادق) وهو رجل رحب افق التفكير بعيد اغوار العقل ، ملم كل الالمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع اول من اسس المدارس الفلسفيية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية » .

هذان قولان لمؤرخين واحد قديم وواحد حديث تقع بينهما اقوال لا تحصى لمؤرخين مروا تباعا من هاتيك العهود البعيدة الى هذا العهد القريب ، وكلها تطبق على ما كان عليه جعفر الصادق من تميز في العلم والفكر والتوجيه السليم والقيادة الحكيمة .

وكي يقول المؤرخ القديم انه ادرك تسعمائة شيخ في مسجد الكوفة يلقون الى طلابهم ما القاه اليهم جعفر الصادق من علم ، فان ذلك يعني ان تسعمائة مدرسة كانت تنعقد حلقاتها في المسجد الجامع مشتملة على طلاب من اقطار شتى ، وافدين الى الجامعة الكبرى للتزود بالعلم الغزير والمعرفة الواسعة . ويوم نعلم ان رجلا هو مصدر التثقيف لتسعمائة مدرسة عالية فأننا ندرك ما كان عليه هذا الرجل من الاحاطة والشمول والحنكة .

عصر الامام الصادق

ولد جعفر الصادق في المدينة العام الثمانين او الثالث والثمانين للهجرة وتوفي فيها سنة ١٤٨ وعمره ٦٥ او ٦٨ سنة عاش فيها مع جده الامام علي بن الحسين ١٢ سنة واياما او ١٥ واياما ومع ابيه الامام محمد الباقر بعد جده ١٩ سنة وبعد ابيه ٣٤ سنة .

وهي بقية ملك هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الامويين. والسفاح العباسي وتوفي بعد انقضاء عشر سنين من ملك المنصور العباسي .

اسرته

هو ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب وامه فاطمة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر وامها اسماء بنت عبد الرحمان بن ابي بكر . ولذلك كان

يقول الصادق : لقد ولدنــي ابو بكر مرتين .

ثقـــافتــــه

لعل اول ما يتبادر الـــى الذهن عند ذكر الامام الصادق ان ثقافته لا تتجاوز المجال الدينـــي ، ولا تتعدى التفســير والحديث والفقه وما الـــى ذلك مما لا بد منه لامام في مثـــل منزلة جعفـــر الصادق ، يفترض فيه ان يكون عارفا بكل مـــا له ارتباط باحكام الشريعة ومشاكلها ..

ولكن الامر كان عند الصادق اوسع من هذا ، فقد احاط احاطة كاملة بعلوم شتـــى تتجاوز الفقه وما اليه وتشتمل على جوانب متعددة من علوم مختلفة كانت في عهده قمة الثقافات العالميـــة . ثم اخذ في تأسيس المدارس المستندة علـــى هـــذه العلوم فرأينا بيـــن خريجي معاهده : الفقيه والمحدث والمفسر والفيلسوف والرياضي والكيماوي والطبيبو الشاعرو الكاتب والمثقف ثقافـــة عامـــة .

وهذا ما جعل ابـــن حجر يقول في كتابه (الصواعق) : نقل الناس عـــن جعفـــر بـــن محمد من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميـــع البلدان .

وجعل الدكتور يحيـــى الهاشمي يقول : ان اسم جابر ابن حيان الكوفـــي ينزل في تاريخ الكيميـــاء منزلة ارسطو في تاريخ المنطق ولم يكن لجابر استاذ غير الامام الصادق .

والعالم الغربـــي هولميارد يقول : ان جابرا هو تلميـــذ جعفـــر الصادق وصديقه وقد وجد في امامه الفذ سندا ومعينا وموجها لا يستغنـــى عنه وقد سعـــى جابـــر لان يحـــرر

الكيميـــاء بارشـاد استاذه من اساطير الاوليــن التــي علقت بها من الاسكندرية فنجح في هذا السبيل الــى حد بعيد .

العوامل التــي جعلت للصادق كل هذا الاثر حتــى ادت الى ان مذهبــا اسلاميــا كبيرا ينسب اليه فيقال عنه المذهب الجعفري ، في حيــن ان جعفر الصادق هو واحد من عدة ائمة لهم من المنزلة مثل ما لجعفر الصادق ولاقوالهم من التقديــر نفس مــا **لاقواله** .

العوامل التــي ميزته هو فجعلت لاسمه هذا الذيــوع واوجبت هذه النسبة اليه هــي انه عاش في فترة كــان فيها اثر السلطة ضعيفا فهــي لا تقوى علــى الاستمرار في اضطهاد الاراء وتكبيل العلماء ، فكان له حرية نسبيــة ادت به الــى الانطلاق العلمــي الواسع الذي شهدنا اثــره .

فقد عاش كمــا راينــا في اواخر الدولة الامويــة في بقيــة ملك هشام بــن عبــد الملك ومن تلاه من الامويين ، وفي هذه الفتــرة كانت الدولة قد اخذت بالانحلال وكــان بعضها قد اخذ يأكل بعضا فانشغلت بنفسها عن غيرها فتنفس الناس بعض التنفس ، واطل بعض النور متسللا من بعــض المنافذ ، فشهدنا بروز العديد من العلــماء الذيــن كــان الاضطهاد من قبل يأخذ عليهم كل سبيل . فرأينا في التفســير والنسب امثال محمد بن السائب الحلبــي والسدّي الكبــير اسماعيل بن عبد الرحمان وابي حمزه الثمالي . وفي الفقه والحديث امثال الامام ابــي حنيفة وتلميذه ابي يوسف والامام مالك بــن انس ومحمد بن عبد الرحمان بن ابي ليلى وفي علوم اللغة امثال معاذ بن مسلم الهراء الكوفي واضع علم الصرف،

وفي الفلك نوبخت وبنيه . وهذا يشمل كذلك اوائل الدولة العباسية ايام السفاح واوائل عهد المنصور حيث كانت الدولة متفرغة لتركيز قواعدها وتثبيت امورها . ولها في هذا ما يصرفها عن اضطهاد الفكر والمفكرين ، كما وقع بعد ذلك لابي حنيفة وغيره من الائمة والعلماء .

هذه الحرية النسبية مكنت الصادق من ان ينطلق في ميدان رحب ويعكف على نشر العلم ويدلي باراء اهل البيت النبوي في التشريع والتوجيه فكانت مدرسته الكبرى التي خرج منها الاساتيذ التسعمائة الذين تولوا انشاء جامعة الكوفة والتدريس فيها ، ثم كانت تلك النهضة العلمية العظيمة التي شملت العالم الاسلامي كله .

يقول الشيخ الازهري الاستاذ ابو زهرة :

« ما اجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر ، كما اجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه ، فائمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه واخذوا ، اخذ عنه مالك واخذ عنه طبقة مالك كسفيان بن عيينه وسفيان الثوري وغيرهم كثير ، واخذ عنه ابو حنيفة مع تقاربهما بالسن واعتبره اعلم الناس لانه اعلم الناس باختلاف الناس »

مدرسة الصادق

كانت المدينة هي مقر مدرسة الصادق واتخذ من المسجد النبوي مكانا للتدريس فأقبلت الوفود اليها من كل مكان ، ويذكر الرواة ان عدد المنتمين اليها بلغ الاربعة الآلاف من اهل العراق والحجاز وخراسان والشام وفيهم من كبار

العلمـــاء والفقهـــاء والمحدثيـــن الذيـــن اصبحوا ائمـــة ومؤسسيـــن لمذاهب اسلاميـــة ، كمـــا فيهم الشعـــراء والادبـــاء .

وعكف طلاب الصادق علـــى التأليف وتدويـــن العلوم، فألف ابان بـــن تغلب (معاني القرآن) والف المفضل بن عمر كتاب (التوحيد) والف جابر بن حيان كتابه في الكيميـــاء . كـــما انصرف غير هؤلاء الـــى التأليف امثال زرارة بن اعين وابـــي بصير ومحمد بـــن مسلم واسمـــاعيل بن ابي خالد وامثالهم حتـــى بلغ عدد المؤلفات اربعمائة كتاب لاربعمائة مؤلف من تلاميـــذ الامام الصادق .

وكان يحض طلابه علـــى التأليف ويحرضهم على التدوين اذ لم يكـــن التأليف متأصلا في البيئات الاسلامية ، بل لا يكاد يكون معروفا ، وكان نادر الحدوث . فكان من منهج الصادق الحث عليه لتترسخ قواعده ويغدو مبدأ عاما ، فكان يقـــول مثلا لاصحابه : اكتبوا فانكم لا تحفظون حتـــى تكتبوا وقال للمفضل بـــن عمـــر : اكتب وبث علمك في اخوانك ، فان مت فورث كتبك بنيك . وقال لاصحابه : احتفظوا بكتبكم فانكم سوف تحتاجون اليها .
فانكم سوف تحتاجون اليها . وهكذا يمكن القول انه هو واضع اساس في التأليف في الاسهام .

كمـــا كان يعنى بتخريج الكتاب والشعراء فممن اشتهر من الشعراء في عصره وبعضهم كان من مادحيه : السيـــد الحميري واشجع السلمـــي والكميت وابنه المستهل واخـــوه الورد وابو هريره الابار وابو هريرة العجلي وجعفر بن عفان والعبـــدي وسليمـــان بن قته العدوي وسديف وابراهيم بن

هرمة ومنصور النمــري .

ويرى بعض الباحثيــن ان اسباب نجـــاح مدرســة الامام الصادق هذا النجاح العظيم يعود الــى ثلاثة عوامل :

١ ـ شخصيــة جعفــر الصادق .

٢ ـ المحتــوى الفكري للمدرسة .

٣ ـ جذور المدرسة الفكرية .

فمــن ناحيــة المحتوى الفكري فان محتواها يمــتاز بالتماســك الفكري الوثيق والترابط فيمــا بيــن افكارها واتجاهاتها ومثل هذا التماسك يشد اتجاهــــات المدرســة بعضها الــى بعض ويؤدي الالتزام باي جزء منه الــى الالتزام بالجزء الاخر فالمدرسة الجعفريةمثلا فتحتباب الاجتهاد وتركته مفتوحا ، وقد كان لهذا العامل تأثير كبير علــى نمو المدرسة بعــد عصر الصــــادق .

اما جذور المدرسة الفكرية فليس الصادق في الحقيقة هو المنشــىء الاول للمدرسة ، بل ان الائمة من آبائه هــــم المؤسسون الاول ، ولكــن المدرسة انطلقت في عهـــــده انطلاقهــــا الواســـع .

فمنذ عهــد الامام زيــن العابديــن علــي بن الحسين كانت المدرسة قد تركزت وامتدت اثارها الــى جميع انحــاء العالم الاسلامــي ـ كمــا رأينا في مقال سابق ـ ثم جــاء الامام محمــد الباقــر بــن علــي بن الحسين ، فمضــت المدرسة في طريقها الصاعد مؤلبة حولها رواد العلم من كل مكــان ، بالقدر الذي سمح لها به الجو الارهابــي المسيطر ، ولما تولــى الزمام جعفــر الصادق ، وكانت ظروف الدولة

لا تسمح لها بالتضييق الشديد استطاع الصادق ان يفعل ما فعل .

المبادىء الكبرى التي اعتمدها الصادق

١ ــ كل ما فيه خير للمجتمع فهو حلال ، وكل من اضطر الى شيء فهو له مباح ، فالجائع الذي تضيق به سبل العيش لا يعاقب على السرقة ، والمدين الذي يعجز عن الوفاء لا يحبس ولا يحجز له ما لا بد له منه من مسكن ومأكل وملبس.

٢ ــ لكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للالزام والالتزام بما له وما عليه . والشرط الرئيسي لصحة الالزام والالتزام ان يكون العمل حقا للملتزم وسائغا في نفسه لا يستدعي ضررا على من الزم او التزم ولا على غيرهما . فكل معاهدة تخرج عن اختصاص المتعاهدين او تضربهما او باحدهما او بغيرهما او تكون مجهولة الحقيقة فهي تضليل يجب الغاؤها . وكل تجارة او زراعة او صناعة فيها شائبة الضرر فهي فاسدة . وكل من نذر او اقسم او عاهد الله أن يفعل ما يضربه ، وبغيره فنذره وقسمه وعهده لغو .

٣ ــ في الفقه : شدد في الطلاق واشترط فيه حضور شاهدين عدلين ، وان يجري عند مرجع صالح بصيغة معينة ، وضيق دائرته الى اقصى الحدود بفرضه القيود الصارمة على المطلق والمطلقة وصيغة الطلاق وشهوده . ولم يجز وقوع الطلاق ثلاثا بلفظ واحد .

وفي القضايا الاخرى لم يأخذ بالقياس واجاز الوصية لوارث واعتمد في الارث قاعدة الاقرب فالاقرب فجعل

الاولاد والاباء اولى بالارث من الاخوة والاجداد ، والاخوة اولى من الاعمام والاخوال . فالبنت عنده تحجب عمها كما يحجبه الابن من غير فرق . وكذلك اعتمد نفس القاعدة في النفقات(١) .

٤ ـ الثقة بالانسان ، فقد جاء في اقواله : « بني الانسان على خصال فمهما بني عليه فانه لا يبنى على الخيانة والكذب ».

وكل من يدين بدين يرتب على اعماله اثار الصحة ما دامت موافقة لما يعتقد ، وان خالفت الاسلام .

الصادق رائدا اجتماعيا

اذا كان الصادق قد عني بالتعليم فهو لم يهمل التربية بل قد عني بها اشد عناية ، وكانت تربيته من نوع التربية الاجتماعية التي تحاول ان تخلق مجتمعا كريما اصيل الاخلاق متماسك الجوانب ، ويمكن تلخيص منهجه بهذه الجملة التي قالها لاصحابه فيما كان يقول لهم من مناهجه التربوية : (كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا ليقول الناس رحم الله جعفر بن محمد ، لنعم ما ادّب اصحابه) .

وقال لهم : اوصيكم بتقوى الله واداء الامانة لمن ائتمنكم وحسن الصحبة لمن صحبتموه وان تكونوا لنا دعاة صامتين. فقالوا : وكيف ندعو ونحن صامتون ؟ قال : تعملون

١ ـ اهل البيت .

بمـــا امرناكم به من العمـــل بطاعة الله وتعاملون النـــاس بالصدق والعدل وتؤدون الامانة وتأمرون بالمعروف وتنهـــون عـــن المنكـــر ، ولا يطلع الناس منكم الا علـــى خير ، فـــأذا راوا ما انتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا اليه .

وله في النهـــي عنالتعصب والعصبية قول هو خير ما يقال في هذا الموضوع ، بل لو انه اتخذ مبدأ انسانيا ونفذ على حذافيره علـــى نطاق عالمـــي واسع سواء بيـــن الافـــراد او الجماعات والدول لنجتالانسانية منكثير من الشرور التي لا يبعثها الا التعصب الاعمـــى .

قال : (ليس من العصبية ان تحب اخـــاك ولكـــن العصبيـــة ان ترى شرار قومـــك خيرا من خيار غيرهم)

وقد بدات في عصره تطغـــى الروح الانهزامية في المجتمع بدعوى الزهـــد والايغال في التصوف والاستغراق بـــــه استغراقا يخرجه عـــن حقيقته الخيرة . لذلك كان يحث على الجديـــة في الحيـــاة ، والكفاح من اجل العيش الكريم . فكان من اقـــوالـــه في ذلك : (ان الله يحب الجمـــال والتجمـــل ويبغض البؤس والتباؤس ، فان الله اذا انعم علـــى عبـــــده بنعمة احب ان يرى عليـــه اثرها) ، قيل له كيف ذلك ؟

قال:ينظف ثوبه ويطيب ريحه ، ويجصص داره ويكنس افنيتـــــه .

وقد كان كثيرا ما يحلـــي وعظه بالنكتة والطرفة كمـــا قال حيـــن مر به رجل وهو يتغدى فلم يسلم ، فدعاه الـــى الطعام ، فقيل له : السنّة ان يسلم ثم يدعـــى ، وقد تـــرك السـلام علـــى عمـــد فقال : هذا فقه فيه بخل .

وكانت انسانيته تبلغ اسمى الحدود . فقد دخل عليه مرة سفيان الثوري فرآه متغير اللون فسأله عن ذلك ، فقال : كنت نهيت ان يصعدوا فوق البيت ، فدخلت فاذا جارية من جواري ممن تربي بعض ولدي قد صعدت في سلم والصبي معها ، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيرت وسقط الصبي في الارض فمات . فما تغير لوني لموت الصبي وانما تغير لوني لما ادخلت عليها من الرعب . وكان قد قال لها مرتين : انت حرةلوجه الله لا بأس عليك .

الصادق والشعر

لقد مدح جعفر الصادق بشعر كثير ومن اشهر مداحه السيد الحميري ومما قيل فيه ما قاله عبدالله بن المبارك :

انت يا جعفر فوق المدح والمدح عناء
انما الاشراف ارض ولهم انت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الانبياء

على انه هو نفسه كان يقول الشعر احيانا فمن ذلك قوله :

لا اليسر يطرؤنا يوما فيبطرنا
ولا لازمة دهر نظهر الجزعا
ان سرنا الدهر لم نبهج لصحته
او ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا
مثل النجوم على مضمار اولنا
اذا تغيب نجم آخر طلعا

وفي البيت التالــي دلالة علـــى الحياة العلمية التـــي كـــان يحياها مع تلاميذه بين الامـــلاء والتدوين والتأليف مما لا بد فيه يومذاك من وصول المداد الـــى الانامل والايدي والملابس :

لا تجزعـــن من المداد فانـــه
عطر الرجـــال وحليـــــة الاداب

ولما مات وحمل الـــى البقيع انشد ابو هريرة العجلي:

أقول وقد راحـــوا به يحملونـــــه
علـــى كـــاهل مـــن حامليـــه وعاتق
اتـــدرون ماذا تحملون الى الثـــرى
ثبيرا ثوى من راس علياء شاهـــق
غـــداة حثا الحاثون فوق ضريحـــه
ابا واولـــى كان فـــــوق المفـــارق

الخليل بن احمد الفراهيدي

مدون اللغة العربيـــة

المبدعون في كل امة قلة يجود بهم الزمن بين الحــــين والحين . وفي تاريخنا بعض من هؤلاء ممن عاشوا لمبدأ ولرأي ولفكرة ، زاهديــن ببهارج الحياة وزيف العيش ، ممـــا يغري غــيرهــم .

وفي الذروة منهم الخليل بــن احمد الفراهيدي(١) الذي اسبغ علــى اللغة العربية من الفضل ما جعله من اخلــد الخالدين في تاريخنا العلمــي .

الفقر والحرمان ثم الرحيل

ولد الخليل في البصرة سنة ١٠٠ هجرية وتوفــي سنة ١٦٠ . وفي قول انه عاش اربعا وسبعيــن سنة . ومضت حياته الاولــى في مسقط رأسه كفاحا في سبيل العلم وانكبابا علــى البحث والدرس ، مع فقــر طاغ يهد العزم ويقصم الظهــر ، فرأى ان يترك البصرة الــى بلد آخر يستطيع ان يجمع فيه بيــن ما هو في سبيله من انصراف الــى المعرفــة وبين ما يكفل له العيش الكريم ، وامضــى في ذلك عزمه ودنا

---

١ ـ الفراهيدي : نسبة الى فراهيد بطن من ازد عمان .

يوم نزوحه عـــن البصرة ، وعلم البصريون بذلك فخرج لتشييعه ثلاثة الاف رجل ما فيهم الا محدث او لغوي او اخباري ، فلما صار في المربد ، قال يا اهل البصرة : يعز علـــي فراقكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلاء(٢) ما فارقتكم ..

ويعلق علـــى ذلك مؤرخ بقوله : فلم يكـــن فيهم من يتكفـــل له بذلـــك .

فانت ترى ان الذيـــن اهمهم رحيله وساءتهم هجرته لم يكونوا الا من صنفه علمـــاء يعيشون للعلم والفكر ، فليـــس فيهم صاحب سلطان ولا كانز اموال ، ولعل هؤلاء المشيعيـــن لو استطاعوا الرحيل مثله لرحلوا هم ايضا كما رحل .ولذلك لا مجال للعتب عليهم بان لم يوجد بينهم من يتكفل له كل يـــوم بكيلجة باقلاء ، واذا شئنا التعبير باصطلاحنا الحديث قلنا : من يتكفل له (بطبق من الفول) .

هكذا كانت تمضـــي حياة المفكريـــن والعلماء في ظـــل الحكم الفردي الاستبدادي الغاشم الذي انتهـــى اليـــه العالم الاسلامي منذ العام «٤١» الهجري وهكذا كان رجل مـــثل الخليـــل بن احمد لا يستطيـــع أن يجد في يومه كيلجة باقلاء ، ولا يستطيـــع واحد من ثلاثة آلاف عالم ان يضمـــن له ذلك .

واننا لنطأطيء لراس اجلالا لاؤلئك العلماء في تلـــك العصور الذيـــن استطاعوا ان يصمدوا للطغيـــان ويصبروا علـــى الحرمان فيكونوا هم وحدهم مظهر حضارتنا وحقيـــقة تاريخنـــا . واذا كان لنا ما نفاخر به في ماضينا فهـــو تراثهم الذي خلفوه وكفاحهم الذي واصلوه اما المتسلطون فهم سبتنا

---

٢ ـ الكيلجة : كيل كـــان معروفا لاهل العراق . والباقلاء : الفول .

التــي منهــا نبــرا .

في خــراسان

مضــى الخليل عن البصرة مغذا السير حتــى اناخ في خراسان ، ويقول مؤرخ : « فأفاد فيها اموالا » . وهنا نتساءل عــن حقيقــة هذه الاموال وعــن مصدرها ؟

اكبر الظــن انها انمــا تعد اموالا بالنسبة لما كــان فيه بالبصرة ، لا بالنسبة الــى ما يمكن ان تكون عليه الاموال وأما سببهــا فهو قطعا سبب كريم .

ودليلنا علــى ذلك ان سليمــان بن علي والــي الاهواز ارسل الــى الخليــل طالبا اليــه ان يؤدب له ولده ، فاخرج الخليــل لرسول سليمــان خبزا يابسا وقال ما دمت اجده فلا حاجة لــي الــى سليمان فقال الرسول فما ابلغه عنــك ؟ فقــال :

ابلغ سليمــان انــي عنه في سعــة
وفي غنــى غير انــي لست ذا مال
شحــا بنفســي ، اني لا ارى احدا
يموت هزلا ولا يبقى على حــال
فالرزق عــن قدر لا العجز ينقصــه
ولا يزيد لك فيــه حول محتــال
والفقر في النفس لا في المال تعرفــه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال(١)

---

٣ ــ ياقــوت الحمــوي .

لقد رفض الخليل دعوة والـــي الاهواز وما فيها مـــن الرفاه والنعيم لانها ستستعبد نفده وتقيد فكـــره وتجعـــله واحدا من حاشية المسيطريـــن ، وهو قد اعد نفسه لما هو اسمـــى من ذلك ...

ويزيد مؤرخ آخر علـــى ما مر ناسبا القصة لا الـــى سليمـــان بـــن علـــي بل الـــى سليمان بن حبيب الازديوالي فارس والاهواز ، ويقول انه كان قد عيـــن للخليل راتبا ، ثم كتب اليـــه يستدعيـــه فكتب الخليـــل جوابه الابيات المتقدمة فقطـــع عنـــه سليـمـان الراتب(٤) فانشد الخليل هذيـــن البيتيـــن :

ان الـــذي شـــق فمـــي كـــافـــل
للـــرزق حتـــــى يتوفـــانـــــي
حـــرمتنـــي مالا قليـــلا فمـــــا
زادك فـــي مـــالك حرمـــانـــــي

فبلـــغ البيتان سليمـــان فكتب اليه يعتذر واضعف له الراتب فقـــال الخليـــل :

وزلـــة يكثـــر الشيطان ان ذكرت
منهـــا التعجـــب جاءت من سليمـــانا
لا تعجبـــن لخير زل عـــن يـــــده
فالكوكب النحسيسقي الارض احيانا

وهكذا نـــرى ان الوالـــي عيـــن راتبا للخليـــل املا بان يغريه بان يصبح من الاتباع المشيديـــن به فارسل يستدعيـــه فرفض الخليـــل الدعوة لانه يعلم مرماها ، ولمـــا

٤ ــ الفلاكة والمفلوكون .

ذهبت الغاية من دفع المال قطعة الوالي ، ولما سمع الشعر خاف مغبة الهجاء فعاد يضاعف المال اتقاء للهجو لا تقديرا للعلم

ومن العجب ان هذا الفقير القانع كان بعلمه سبب الغنى للناس وهو في فقره وخصاصته . قال النضر بن شميل : اكلت الدنيا بعلم الخليل بن احمد وكتبه وهو في خص لا يشعر به . وقال ايضا : اقام في خص بالبصرة لا يقدر على فلس ،وعلمه قد انتشر وكسب به اصحابه الاموال .

ويصفه النضر قائلا : كان الخليل اشعث الراس شاحب اللون شعث الهيئة منخرق الثياب منقطع القدمين مغمورا في الناس لا يعرف .

وانها لمأساة العلم في تلك العصور ان يكون مثل هذا العالم العظيم على هذه الصورة الشوهاء من شحوب وتشعث وانخراق وتقطع ، وان يزويه الفقر والحرمان فيجهل مكانه ولا تعرف مكانته .

الشكل

لم يكن الخط في صدر الاسلام معجما ولا مشكولا . ولما فشا اللحن وفسدت السلائق كان لا بد من معالجة ذلك بوسيلة ما فابتكر ابو الاسود الدئلي المتوفى سنة ٦٩ ه طريقة توضح صحة الكلمة فجعل علامات للحركات الثلاث، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته ، والضمة نقطة بين يديه وجعل التنوين نقطتين .

ولجعل الحركات بارزة للقارىء فضل ان يكتبها بمداد يخالف المداد المكتوبة به الكلمات . ولا يزال مثال لهذا التشكيل موجودا في قرآن منسوب الى خط علي بن ابي طالب عليه السلام تحتفظ به المكتبة الرضوية في مدينة مشهد بايران ..

وحتى هذا الوقت لم يكن في الكلمات من اعجام فلم يلتبس الامر على القارىء ، ولكن لما وضع بعد ذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر نقط الاعجام اشتبه الحال لعدم امكان التمييز بين نقط الاعجام ونقط الشكل ، فكان لا بد من حل ، فكان الخليل بن احمد صاحب الحل حيث وضع الشكل بصورته المعروفة حتى اليوم واضاف اليه اشارة المد واشارة الشدة ، كما وضع اشارة خاصة للهمزة ولالف الوصل . فكان مجموع ما ابتكره ثماني علامات ، كلها حروف صغيرة او ابعاض حروف بينها وبين ما دلت عليه اجلى مناسبة بخلاف علامات ابي الاسود فانها مجرد اصطلاح لم يبن على مناسبة بين الدال والمدلول ..

وقد الف الخليل كتابا مفصلا في هذا الموضوع ، ولا تزال قاعدته هي المعمول بها لم يزد عليها احد شيئا .

العروض

علم العروض مما ابتكره الخليل ولم يسبقه اليه سابق، وقد ملأ بوضع قواعد هذا العلم فراغا في اللغة العربية كان من الواجب ملؤه ، فقد كان الشعر بدون قواعد تربط اوزانه وتحدد اركانه ،فحصر الخليل اقسامه في خمس

دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرا .

ومن اروع ما في هذا الموضوع انه جاء دقيقا كاملا لـم يستطـع احد بعده ان يستدرك عليه شيئا او يزيد امرا ، اذا استثنينا من ذلك البحر الذي زاده تلميذه الاخفش وسماء (الخبب) علـى ان لهذا البحـر اصلا عند الخليل .

ومن الطرائف التـي وقعت له وهو يعاني تركيز بحور الشعـر ان ولدا له دخل عليه وهو يقطـع بيتا من الشعر فذعـر مما سمع وخرج الـى الناس يقول ان اباه قد جـن . وقرا رجل عليه العروض فلم يفهم فقال له الخليل : قطع هذا البيـت :

اذا لـم تستطـع امرا فدعه
وجاوزه الـى مـا تستطيـع

قال الخليل : فشرع الرجل في تقطيعه علـى مبلـغ علمـه ثم قام فلم يرجع الـيّ . فعجبت من فطنته لما قصدته في البيـت مع بعـد فهمـه .

الموسيقـى

هذا الفقير المعدم المنصرف الـى البحث والكشف لـم ينس الموسيقـى فجعلها بعض همه فألف فيها كتابا جمع فيه اصناف النغم وحصر انواع اللحون وحدد ذلك كله ولخصه وذكـر مبالغ اقسامه ونهايات اعداده ، فصار كتابه المرجـع العربـي الاول لكل طارق لهذا الموضوع . وقال بعـض الباحثيـن ان مهارة الخليـل في علم الالحان هـي التـي اعانتـه علـى علـم العروض .

كـتاب العيـــن

كمـــا انه لم يكـــن في اللغة العربيـــة حتـــى عـــصر الخليـــل قواعد للشكل والعروض ولم يكن فيها مؤلفات في الموسيقـــى ، كذلك لم يكـــن فيها معاجم لمعرفة صحة الكلمات ومعانيها . بل الاصح ان نقول ان اللغة العربية لم تكن مدونة قبل الخليـــل ، فهو المدون الاول لها وواضع اول معجم فيها.

ومن بعد الخليـــل جاء الازهري ، فألف كتاب التهذيب ، وابـــن سيده فألف كتاب المحكم ، ثم الجوهري فألف كتاب الصحاح ، واذا كان المؤلفون لم يزيدوا شيئا علـــى ما وضع الخليل في الشكل والعروض فان كتب اللغة اخذت بعد الخليل بالتطور والتحسن حتـــى كان كتاب الصحاح المتقدم ذكـــره فكان اسهل ترتيبا لانه راعـــى ترتيب الحروف الهجائية في اول الكلمـــة واخرها وتبعه المؤلفون علـــى ذلك . واستغنـــى الناس بهذا عـــن كتاب العيـــن ، ولكن بقـــي فضل الابتكار للخليـــــل .

خطتـــه في كتاب العيـــن

كان السبب في تسمية الكتاب بالعيـــن ان الخليل احتار باي حـــرف يبدأ كتابه ، اذ كان عليه ان يبدأ بحرف الالف ثم ما يليـــه من الحروف ، ولكنه رأى ان حرف الالف حرف معتـــل فلم يجـــز الابتداء به ، ولما فاته حرف الالف وهو اول الحروف كره ان يجعل الثاني اولا وهو الباء الا لسبب ، وبعد استقصاء وجد ان مخرج الكلام كله من الحلق فجعل اولاها بالابتداء به ادخلها في الحلق ، وقد وجد ان العيـــن اقصاها في الحلق ،

فجعل حرف العيـن الحرف الاول ، ثم ما قرب مخرجه منهـا بعـد العيـن .

ويبدو ان الكتاب سمـي كتاب (العين) لان اول حرف كان فيه هو حرف العيـن ، ولكن من غير المعلوم ما اذا كان هـو نفسه سمـاه هذا الاسم ام ان بعض من جاء بعـده هو الذي سمـاه .

ضجة حول كتاب العين

لم يسلم هذا الكتاب من تنازع فيه ، فقد وجد من يقول انه ليس للخليل اصلا ، ومن يقول انه ابتدأ به واكمله غيره وان كل ما له فيه هو ما جاء عـن حرف العين وان الليثبن نصر بـن سيَّار هو الذي اكمـله .

والذيـن قالوا هذا القول رووه بحكايات مختلفة ، ومما قيل في ذلك : ان الخليل كان منقطعـا الـى الليث بـن رافع بـن نصر بـن سيار ، وكان هذا اديبا بارعا يكتب للبرامكة ، فاهداه الخليـل كتاب العيـن ، فعكف عليه مطالعة وتنقيبا ، واشتـرى يوما جارية جميـلة اغارت زوجته فارادت هـذه اغاظتـه فلم تجد اجدى من ان تتلف الكتاب الذي كـان لا يفارقه فاحرقته ، وان الليث اعاد كتابة نصف الكتاب ــ وكان الخليـل قد مات ــ من حفظه ، واجتمـع مع فريق من الادباء علـى اكمـال الباقـي علـى نسق النصف الاول (٥) وقيلت اقوال كثيرة غير هذا .

---

٥ ــ ياقـوت الحمـوي .

علـــى ان هذه الاقوال لا تكاد تثبت امام النظر الثاقب المنقب . وقد اجتهـــد فريق من العلماء في الاستدراك علـــى الكتاب ، كمـــا فعل ابو عمـــر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب الذي كتب (فائت العين) وابـــو غالب ابـــن التبانـــي الذي كتب (فتح العين) وغيرهما . كمـــا ان هناك من الف مدخلا له وهو النضر بـــن شميل ، ومن اختصره وهو محمـــد بـــن الحســـن الزبيدي وابو الحسن علـــي بـــن القاسم الخوافـــي .

مؤلفات اخرى للخليـــل

للخليل العديد من المؤلفات ومعظمها يدخل ضمن المواضيع التـــي استنبطها . من ذلك : ١ــ كتاب زبدة العروض توجد منه نسخة خطيـــة في المكتبة الفاضلة بايران ٢ــ كتاب في الامامة ٣ــ كتاب الايقاع ٤ــ كتاب النغم ٥ــ الجـــمل ، اي جمل الاعراب في النحـــو ٦ــ الشواهد ٧ــ النقط والشكل ٨ــ كتاب في معانـــي اسمـــاء حروف الهجاء ، ومنه نسخة في مكتبة لندن ونسخة في مكتبة برلين . وهذا الكتاب طريف ، اذ انه اشار فيـــه الـــى ان لكل حرف من حروف الهجاء معنـــى خاصـــا فمعنـــى التاء مثلا : البقرة تحلب يقول الشاعر :

انا فارس الهيجاء في كل حومة
وانت ابن تاء تحلب التاء دائبـــا

ومعنـــى الراء : القراد . ومعنـــى الزاي الرجـــل الاكول . قال الشاعـــر :

اذا اختلــف السراة يكون راء
وعنــد الاكــل زاي جنطــري

ومعنـــى الصاد : الديك المتمرغ بالتراب قال الشاعر :

وانـــي اذا ما غبـــت عني ميتم
كأنـــي صـــاد في الثـــرى يتململ

ومعنـــى الذال : عرف الديك ، قال الشاعر :

بـــه وهـــن يلـــوح بحاجبيـــه
كذال الديـــك يأتـــلـــق ائتلاقـــا

وهكذا حتـــى اتـــى علـــى جميع حروف الهجاء فيحـــدد معنـــى كل حرف . وربمـــا كان هذا الكتاب مستلا من كتاب العيـــــن .

شعــر الخليــل

كان الخليـــل شاعرا ويصفه صاحب شذرات الذهب بانه شاعر مطبوع مفلق ، ويقول آخر انه كان ينظم البيتيـــن والابيـــات . ومن شعره قوله :

وما هـــي الا ليلـــة بعـــد ليلـــة
ويـــومالى يوم وشهر الـــى شهر
مراحـــل يدنين الجديد الى البلى
ويدنيـــن اشـــلاء الكرام الى القبر

الادريسي وخريطته وكتابه

عندما نجا ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب من مجزرة فخ الرهيبة لم يكن احد يحسب انه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذي صار لها ..

ولكن ادريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنا تاريخيا كبيرا امتدت اثاره عدة قرن وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير .

وليس القصد من هذه الكلمة تدوين ما قام به ادريس ثم اعقابه من نضال مستميت في سبيل نشر الاسلام في افريقيا وتوطيد قدم العروبة فيها ، فذلك له مكان آخر غير هذا المكان .

ولعل افضل ما قيل عن الدولة الادريسية هو ما قاله الدكتور حسين مؤنس : « ما زالت الدولة الادريسية تنتظر من يكتب تاريخها ويحدد دورها في بناء المغرب العربي . ولا زال اصحاب كتب التاريخ الاسلامي العام ينظمونها في سلك الدويلات التي تقاسمت نواحي المغرب الاسلامي ابتداء من منتصف القرن الهجري الثاني جاعلين اياها صنوا لدولة بني الاغلب او دولة بني رستم التاهرتيين أو حتى دولة بني مدرار اصحاب

سجلماسة . ويفوتهم في اثناء هذا العرض السريع المتواضع ان يتبينوا مكانها كحجر الزاوية في بناء اسلام المغرب وعروبته وما قامت به من دور عظيم في مد رقعة الاسلام في شمال المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط ــ الى ان يقول ــ : وما بذله امراؤها من جهد في ارساء اسس الاسلام الصحيح وتثبيت دعائم العروبة ولغتها وثقافتها في بلد اصبح بفضل الادارسة الدرع الواقي للجناح الغربي من مملكة الاسلام » .

هذا القول الموجز يتضمن حقيقة كبرى من حقائق التاريخ ، ويشير اشارة بليغة الى جوهر الامر في واقع الادارسة وحكمهم في شمال افريقيا ، ويدعو دعوة جهيرة الى العناية بتاريخ تلك الحقبة من حياة الاسلام والعروبة ..

لقد كان من ثمار نجاة ادريس ووصوله سالما الى افريقيا ان نبغ من اعقابه انسان فريد ، سادلا بالسلطة والحكم ، وخلد لا بالفتح والقهر . انسان هو في تاريخنا الثقافي وميراثنا الحضاري من القمم الشوامخ . ذاك : ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي ، الذي اشتهر باسم : الشريف الادريسي ، وقد يعرف بالشريف الصقلي المولود سنة ٤٩٣هـ (١٠٩٩ ــ ١١٠٠) والمجهول سنة الوفاة ، على العكس من نظرائه النابغين الذين تجهل على الاغلب سنة ولادتهم ، وتعلم سنة وفاتهم . على انه وجد من يناقش في سنة الولادة نفسها ، اذ ان تعيين هذا التاريخ منسوب الى الراهب الماروني ميخائيل الغزيري الذي

نظـم فهرسا لاتينيا لمخطوطات الاسكوريال . وقد ذكـر سنة ولادة الادريسي دون ان يحدد المصدر الذي اعتمـد عليه في ذلك ومن هنا وجد من لا يستطيع الجزم بهذا التاريخ . علـى اننا لا نحسب الغزيري يمكن ان يكون قد تساهل في وثاقة مصادره . بل يمكـن ان نعتمـد على قوله ، وان كنا نأخذ عليه تهاونه في تعيين المصـدر .

بنو حمود اجداد الادريسي

هم من احفاد ادريس ينتمـون الـى جـدهم حمـود المنتمـي نسبه الـى مؤسس الدولة الادريسية واذا كانـت الدولة الادريسية قد قامت في الشمـال الافريقـي وانتـهت فيـه ، فانـه قـام لفـرع من فروعها ، فرع بنـي حمـود دولة اخـرى لا في افريقيـا بل فـي الاندلس عاشت ردحا من الزمن ثم انتهت الـى الزوال .

ذلك انه حيـن كانت الدولة الاموية في الاندلس تمشـي الـى نهايـتها ، كان في الاندلس اثنان من آل ادريس قدما اليـها مع من قدم من البربـر ، فاشتهـرا فيها وعرفـا بما كانا يبديانـه مـن شجاعة واقدام في مختلف الاحداث ، مما مهد لهمـا وراثة الدولة الاموية الزائلة .

وكان الادارسة قد تمـكن حبهم في قلوب البربر وغدت لهم عليهم رئاسات وزعامات ، كان منها رئاسة الاخويـن ، علـي والقاسم ابنـي حمـود بن ميمـون بن احمـد بـن علـي بـن عبيد الله بـن عمر بـن ادريس ، حيـث كان ينقـاد لهمـا البربر في بلاد غمارة من الريف . ولما وقعت

الفتنة بين اموي الاندلس وثار سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على المهدي محمد بن هشام في جنود البربر وزناتة ، كان علي بن حمود واخوه القاسم في جملتهم ، وجرت خطوب واحداث دخل بعدها المستعين وجماعته مدينة قرطبة عنوة سنة ٤٠٣هـ ثم تغلب البربر على الامر فدعا علي بن حمود واخوه القاسم الى نفسيهما فعضدهما الكثير من البربر وتعصبوا لهما فاقاما خلافة جديدة في الاندلس خلفت الخلافة الزائلة ،وتولى امرها علي بن حمود سنة ٤٠٨ وظلت هذه الخلافة قائمة حتى بويع آخر خليفة فيها سنة ٤٥٩ . وبعد هذا الخليفة تقاسم ملوك الطوائف الاندلس الى ان تغلب عليهم المرابطون .

تشتت الادارسة

وبعد هذا تفرق الحموديون الادريسيون في انحاء المغرب ووصل بعضهم الى جزيرة صقلية على انه كان في تونس ادريسيون عرفوا بآل الصقلي اختصوا بصناعة الطب وتوارثوها خلفا عن سلف ، ويرى الشيخ محمد رضا الشبيبي انهم من ذرية صاحبنا الشريف الادريسي . واذا كان هؤلاء المتأخرون عرفوا بآل الصقلي — وهم يقيمون في تونس — فان في ذلك اشارة الى نسبة اجدادهم من قبلهم ، اولئك الذين نزلوا صقلية وكان لهم فيها شأن بارز ، ولكنه محاط بالغموض ، مجهول التفاصيل . ولعل الدكتور حسين مؤنس هو اول من حاول ازالة هذا الغموض والتغلغل الى قلب

الحقيقة فوفق الى الكثير من ذلك توفيقا يسجل له ويشاد به .

الشريـــف الادريســـي

والمعروف ان الشريف الادريســـي هو من اهل سبتـــة ثم انتقـــل بعد ذلك الـــى صقلية حيث اتم فيها عمله الجغرافي الكبير . وما دام قد وجد في تونس بيت ادريســـــي يعـــرف بآل الصقلـــي وينسب الـــى الشريف الادريســـي ، وما دام الشريف الادريسي نفسه كان يطلق عليه فيما يطلق من الالقاب لقب الصقلـــي فهل ان هذه النسبة وهذا اللقب قد لحقـــــاه بعد وصوله الـــى صقليـــة ، ام ان الامر كما يرى الدكتور حسين مؤنس من ان آل الشريف الادريسي كانوا ممـــــن استقروا اولا في صقليـــة ثم نزح من نزح منهم الى سبتة حيث كان هذا البلد منبتا للشريف الادريســـي منه انطلق في سياحاته الـــى المشرق والمغرب ثم استقـــر من جديد في صقلية ؟

ان المنطق السليـم يؤيد ما رجحه الدكتور حسيـــــن مؤنس ، فلم يكـــن لقب (الصقلـــي) ليقرن الـــى اسمـــه لمجرد اقامته الاخيرة في صقليـــة ، بل ان هذا اللقب كـــــان يلحـــق باسرته التـــي ينتمـــي اليـــها والتـــي استمـــد منها لقبـــه . وهذا اللقب انمـــا الحق بالاسرة ليميزها عن غيرهـــا من الادارسة الذيـــن قدر لهم ان يتفرقوا في اكثـــر من مكان واحــــــد .

الـــرحـــالـــة

كتب على الشريف الادريســـي ان يفارق وطنه سبتـــة

فيرحل طورا الى الشرق وطورا الى الغرب ، ولا شك ان هذا الترحال قد افاده بعد ذلك في عمله الجغرافي الكبير ، وكان له منه معوان في استجلاء الكثير من الحقائق التي اثبتها سواء في كتابه او خريطته .

وقد عبر عن غربته الطويلة وتنقله بين البلاد ، وحياة القلق التي كان يحياها بين حل وترحال بهذه الابيات الجميلة :

ليت شعري اين قبري ؟
ضاع في الغربة عمري
لم ادع للعين ما تشتاق
في بر وبحر
وخبرت الناس والار
ض لدى خير وشر
لم اجد جارا ولا دا
را كما في طي صدري
فكأنني لم اسر
الا بميت او بقفر .

واخيرا ينزل صقلية موطن ابائه ويعود الى الارض التي نزح عنها اسلافه ، حيث كان لا يزال من الحموديين جماعة في صقلية نزحوا اليها بعد زوال سلطانهم في الاندلس وتفرقهم في البلاد . واذا كان الادريسي ينزل صقلية هذه المرة ليقيم فيها ، فقد كان قد طرقها من قبل في طريق عودته من المشرق ونزل على اقربائه الحموديين فيها . اما هذه المرة فقد جاءها مجيبا دعوة حاكمها رجار الثاني

كبير النورمان ليقوم بعمـــله العلمـــي الضخم ، متفرغا له تفـــرغا كاملا ، محاطا برعاية رجار وتشجيعه ، ومعرفته ..

رجـــار والادريســـي

كان رجار الثانـــي معنيا بالجغرافيا محاولا الوصول الى ادق المعلومات فيها . ولم تكن وسائل الوصول الـــى هذه المعلومات ميسورة في ذلك الحيـــن ، فكان يستدعـــي اليـــه العلمـــاء الباحثيـــن مستعينا بمـــا يعلمونه ، مدونا ما يصل اليـــه من الحقائق . وكان الـــى جانبه في كل ذلك الشريـــف الادريســـي يحاور ويساجل ، حتـــى انقضت خمس عشـــرة ســـنة تجمـــع في خلالها الكثير من المعلومات ، واصبح لدى الادريســـي من المادة ما يستطيـــع معه ان يباشر العمل في خريطته العتيـــدة .

ولم يقتصر عمـــله في بلاط رجار علـــى الخريطة وحدها، بل كان انتاجه في تلك الفتـــرة خصبا منوعا لا يزال حتـــــى اليوم وسيظل الى ما بعد اليوم مثار الاعجاب . ومن المؤسف انه قـــد ضاع في غمار الزمن جزء مهم مما حققه الادريسي من الاعمـــال ، ذلك انناعرفنـــا مما ذكره ابو الفداء انه كان له كتاب الممالك والمسالك ، كمـــا عرفنـــا من غيره ان هذا الكتاب الف لا لرجار نفسه بل لولده (ولهلم) الذي حكم من سنة ١١٥٤ الـــى سنة ١١٦١ .

وفيمـــا عدا الجغرافيا فقد الف كتابا ممتعا في علـــم النبات سمـــاه (جامع اشتاب النبات) يصفه الشيخ محمـــد رضـــا الشبيبـــي بانه يورد فيه اسمـــاء النباتات في لغـــات

عدة قد يوصلها الـى اكثر من عشر لغات شرقية وغربية .

ويقول الشبيبـي : ومن هذا الكتـاب يستنتـج ان الادريسـي حاذق في علم النبات والمواليد وعلوم الطبيعـة والطب اكثر مـن حذقه في ناحية الجغـرافيا والبلدانيات . والكتاب يدل علـى علم واسع وتحقيق بالغ ، وهو مـن المخطوطات النـادرة .

اما ثمـة تأليفاته الجغرافيـة فهـو كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كان شرحا الخريطة وتعليقا عليهـا . ويقع الكتاب في جزئيـن كبيريـن . ويقول محمـد عبدالله ماضـي : انه اختصر فيمـا بعد تحت الاسم عينه ، وانه اطلع علـى نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهـد الشرقـي بهامبورغ مطبوعة في روما سنة ١٥٩٢ .

خريطة الادريسـي اول خريطة

سبق خريطة الادريسـي العالميـة خريطة تعود الـى عهـود قياصرة الروم ، لها من العمـر ضعف ما لخريطـة الادريسـي اذ وضعت في العام ٣٦٥م وعرفت باسم خريطـة (بوتينجـر) ، ولكنها خريطة محدودة الفائدة لم يقصد بها الا بيـان طرق المواصلات ، وقد زالت المدن التـي ورد ذكرها فيهـا ولا يعرف لها اليوم من اثر . وهناك خريطة لبطليموس تسبق خريطة الادريسـي بالف عام ولكن ليس لها شمـول خريطة الادريسـي ، اذ ان غاية ما يستفاد منها هو ان تعطي فكـرة عامة عما كان عليه العالم القديم .

تصور الادريسي للارض

الارض في تصور الادريسي تختلف عما شاع عنها في اواخر القرون الوسطى من انها مسطحة تقوم على سطح الماء ، فالادريسي يتصورها كرة بيضاوية الشكل محاطة بالماء من كل جانب حيث يغمر الماء نصفها وينحسر عن النصف الاخر ، وينقسم هذا النصف الى قسمين : شمالي هو وحده المعمور ، وجنوبي غير معمور ويفصل بينهما خط الاستواء .

وبناء على هذا التصور وضع الادريسي خريطته فشملت القسم المعمور وحده • ومن البدهي ان نقول انه لم يقسم الارض حسب التقسيم الذي نعرفه في هذا العصر ؛ اى الى القارات الخمس المعروفة ، لان بعض هذه القرارات لم يكن معروفا يوم ذلك كأمريكا واستراليا ، وكذلك فان هذا الاصطلاح لم يكن معروفا وانما اخذ به بعد ذلك ، ولكن الادريسي اخذ بتقسيم الارض الى اقاليم سبعة ، على ما كان مصطلحا عليه يومذاك .

يقول محمد عبدالله ماضي : « ومما يذكر للادريسي بالاعجاب والفخر انه حاول بتقسيمه الأرض الى الاقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها ، وانه افلح في محاولته هذه الى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص في الوقت الحديث يطأطئون الراس له اعجابا وتقديرا » .

البحار

لم يكن اصطلاح (المحيطات) معروفا في تلك العصور

وباستثناء المحيط الاطلسي ، فان تلك المحيطات لم تكن تذكر علـــى اساس كونها بحارا محيطة ، وذلك لان بعضها مثلا لم يكن معروفا اصلا كالمحيـــط الهادي ، وبعضها الاخر كـــان ينظر اليـــه علـــى انه بحر مثله مثل كل البحار كالمحيـــط الهنـــدي .

اما المحيط الاطلســـي فقد كان وحده الذي ينظر نظرة فيها الكثير من الرهبة والتوجس ، والتطلع الى المجهـــول المخيف . ومن هنا اطلقوا عليه اسم (بحر الظلــــمات) وحسبك بهذه التسميـــة دليلا علـــى شدة هذا البحر وتوغله في الشمـــول والاحاطة . ولا احسب ان المقصـــود بالظلمات هنـــا : الظلمـــات المادية وحدها التـــي كان يقرن بها هذا البحـــر يومذاك ، بل ربمـــا كان المقصود ايضا الظلمـــات المعنوية التـــي تعنـــي جهل حقيقة ما وراءه ، ومـــا يخفيـــه من عوالم ليس من المستطاع معرفة كنهها ، فهـــي ظلمـــات في ظلمـــات . ظلمات تخيف وترهب وظلمات تحير وتثير .

واذكـــر اننـــي عبـــرت هذا البحر منذ اكثر مـــن عشريـــن سنة ، عبرته سبحا في الفضاء وتدفقا في السماء ، في قلب طيـــارة تنداح فوقه موغلة اي ايغال . فكتبت عنه فيمـــا كتبت اقول : « ... لم اكبر رواد البحار كما اكبرتهم وانا فوق البحار ، ولم اعلـــم عظمة ماجلان وكولومبس كما علمتها وانا في الطائرة فوق الاطلانطيك ، فما اصلب اولئك الرجال الذيـــن غالبوا هذه الامواج وغلبوها باضعف سلاح واقل عتاد ،و ما امضـــى عزائمهم وهم يجوبون هـــذه المتاهات لا الـــى بلد يعلمونه ولا الـــى مرفأ يقصدونـــه

بل الى المجهول يستطلعونه .. ان المحيط لمخيف في اقوى البواخر وامضى الدوارع ، وانه لعنية، في اقدم الطائرات واعظم الجاريات ، وانه لبغيض مملول حتى وهو طريقك الى بونس ايرس ونيويورك ولندن ، فما بالك اذا كان المركب فيه الخشب الرقيق والحبل الدقيق والشراع الصفيق، واذا كنت تسير فيه لاعلى طريق ولا الى طربق ، بل تخرج من ضيق لتدخل في ضيق يشاحنك فيه حتى الصديق ويخاصمك حتى الرفيق .

هذا هو بحر الظلمات اليوم فكيف قبل اليوم ؟

لذلك افرد هذا البحر وحده واطلق عليه هذا الاسم ولم يدخل في تقسيمات البحار الاخرى التي اعتمدها الادريسي ، اذ قسم البحار الى سبعة : ثلاثة منها متفرعة من بحر الظلمات او مما تفرع عنه ، وهي : بحر الشام او بحر الروم (المتوسط) وخليج البندقية (الادرياتيك) وخليج النطاس (الاسود) . ثم بحر الهند (المحيط الهندي) او البحر الفارسي ، وبحر السويس او بحر القلزم (الاحمر) المتفرعان من بحر الهند .

والبحر السابع بحر لا يتفرع من غيره ولا يتصل بأي بحر هو بحر قزوين (الخزر) . اذن فهذه بحار سبعة على عدد الاقاليم السبعة ، وهي التي اعتمدها الادريسي في خريطته .

على انه لا بد لنا من القول ان الادريسي لم يقتصر في تقسيمه للاقاليم على عدها سبعة ، بل انه قسم كل واحد من هذه السبعة الى عشرة اقسام متساوية وبذلك اصبحت الاقاليم سبعين اقليما .

نزهـة المشتـاق

ولاجل شرح كل ذلك وجعله واضحا كل الوضوح ،ولاجل الوصول الـى الغاية التـي وضعت من اجلها الخريطة وهي تعميـم المنفعة والوصول الى الحقيقة ، والازدياد في المعرفة، لاجل ذلك وضع الادريسـي كتابه العظيم (نزهة المشتاق في اختـراق الآفـاق) ليكـون دليلا للخريـطة ومرشـدا للمستطلـع فيها . لهذا رأينا الادريسـي في كتابه يتحـدث عـن الاقاليم السبعيـن حديثا مطنبا ويصف مواقعها وصفا دقيقـا ، ويحدد اماكـن الجزر والبلاد ويدل عليها ، ويشير الى الجبال والانهار فضلا عن المدن . وعدا هذا فهـو يتكلم عـن الدول في كل اقليـم وعن السكان واجناسهم ، ولا يهمل تقاليدهم وعاداتهم . كمـا لا يهمل ذكر ما عرف به المكـان من نبات وحيوان ، ومافي ذلك من منافع طبيـة او خصائص طبيعية . واذا كان الادريسـي ـ كما قال عنه الشبيبي ـ حاذقا في علم النبات والمواليد والطبيعة والطب ـ فان هـذا الحذق لم يتجل في كتابه (جامع اشتات النبات) وحده ، بل لقد تجلـى كذلك في (نزهة المشتاق) تجليا بينا واضحا .

وعلـى ما وصف به (نزهة المشتاق) فان من العسير تلخيصه ، واظهار واقعه في سطور محدودة ، وهو « كتاب ضخم يقع في جزئيـن كبيري الحجم » كمـا قيل عنه .

الخريطة الفضيـة

اراد رجار ان يكون عمل الادريسي عملا ثابتا دائما ،

فتفتق ذهنه عن طريقة يحفظ بها الخريطة حفظا مستمرا ، فلا يذهب بها كر الايام وتعاقب السنين ، فاشار بان تحفر الخريطة على لوح من الفضة وعهد الى الادريسي بانجاز ذلك بعد ان وضع بتصرفه مقدار اربعمائة الف درهم فضية ــ كما يروي خليل الصفدي ــ وامده بامهر الصناع . ولكن الادريسي لم يحتج من الفضة الا اقل من ثلث المبلغ حتى خرجت الخريطة الفضية في شكل مائدة مستطيلة قدر طولها بثلاثة امتار ونصف المتر وارتفاعها بما يقرب من المتر ونصف المتر ؛ ــ على ما يروي محمد علي ماضي عن « ميللر » وانتهى العمل بها كله في العلم ١١٥٤م . وبعد ستة اسابيع من انجاز ما اراد رجار الثاني انجازه سواء في الخريطة او الكتاب او المائدة الفضية مات رجار .

واذا كان هذا قد اراد حفظ الخريطة فاشار بصنع المائدة الفضية ، فان الامر كما قال الشاعر : (وتقدرون فتضحك الاقدار) . ذلك انه في عهد ولهلم ابن « رجار الثاني» وبعد وفاة رجار بست سنوات (١١٦٠) هاجم الثوار القصر الملكي فكان نهب الناهبين ، وكان فيما نهب : المائدة الفضية التي كسرها الناهبون واقتسموها فيما بينهم مغنما ماديا تافها ، وقضوا بفعلتهم على ذلك المجهود العلمي الفني الرائع . وبذلك لم تسلم الا خريطة الحائط والا خريطة الكتاب الموزعة في السبعين القطعة حسب السبعين الاقليم . ثم فقدت خريطة الحائط فلم تعرف بعد وظلت خريطة الكتاب . وهي الخريطة التي نظم اجزاءها وجمع قطعها المستشرق الالماني « كونراد ميللر » ثم طبعها لاول مرة سنة ١٩٢٨ طبعة ملونة فاخرة .

لقد ظلت خريطة الادريسي المرجع الوحيد لكل المؤلفين في الجغرافيا فعليها اعتمدوا ومنها استمدوا . وظلت نبراسا لكل العاملين في هذا المجال .

وما اجدر الادريسي هذا العالم العامل بالاشادة به والاشارة اليه كواحد من اعظم من انجب العرب في كل العصور . وما احرى علماءنا الجغرافيين في هذا العصر بان يدعوا للتعريف به والاحتفال بذكراه ووضع الدراسات المفصلة عن عمله العلمي الكبير .

ولا اعرف احدا عني بذلك عناية الاستاذ محمد علي ماضي في بحث ممتع له في مجلة الرسالة القاهرية عهد ازدهارها وتوسع انتشارها . كما ان المستشرق الالماني كونراد ميللر كان صاحب الفضل الاول في كشف الغبار عن خريطة الادريسي وبعثها من مرقدها ونشرها في كل مكان .

جعيفران الموسوس

لم يعن مؤرخونا الاولون بتدويـن الحياة الشعبيـة تدوينا يصور لنا ملامحها الصحيـحة ويرينا كيف كانـت تنقضـي امور الملايين من الناس الذيـن هم من غير طبقـة الحكـام واضرابهم .

وابو الفرج وحده تعدى في السرد امور الخلفاء والملوك والوزراء ، وتغلغل في الحياة الشعبية فجاء (مقاتل الطالبيين) و (الاغانـي) في الكثير مما فيهمـا صورا مجلوة لكثير من الافراد من طبقات لم تظفـر من غير قلمه بالتقصـي ،فعرفنا منه سير كثير من الاحرار والمناضليـن والعلمـاء ، ومـن الشعراء غير شعراء الملوك ، ممن آثروا الحياة البسيطة الوادعـة . وعرفنـا منه الكثير عن الوشائج الاجتـماعية والروابط بيـن الناس ومحيطهم ، وعرفنا الكثير من العادات والتقاليـد والامزجـة .

وممن عرفناهم اكثر ما عرفناهم من مطالعاتنا فيالاغاني شاعـر مسكيـن اضطهده عصره وخذله محيطه فعاش فقيرا يائسا ، ومضـى محروما ملاحقا ، الـى ان ادى الامر لان يرمـى بالجنون ويوصف بالموسوس حتى اصبحت هـذه الصفة ملازمة لاسمه لصيقـة بحياته . ذلك هو جعفـر بن علـي ، الذي اشتهر باسم (جعيفران الموسوس) .

بلــده ومــولده

هو بغدادي ولد في بغداد ونشأ بها ، وليس من يعنى لا بتاريخ ولادته ولا بتاريخ موته ، فقد كان اهون علــى اهل زمانه من ان يفكر منهم واحد بالسؤال عن اليوم الذي ولد فيه هذا الموسوس او ان يسجل احد اليوم الذي مات فيه .

ولكننا نعلــم انه ادرك عصر الامامين موســى الكاظم وعلــي الرضا . والاول ولد سنة ١٢٨ وتوفــي سنة ١٨٣ والثانــي ولد سنة ١٥٣ وتوفي سنة ٢٠٣ . ولنا بعد ذلك ان نقدر متــى ولد ومتــى مات ..

هــو كمــا قلنــا بغدادي المولد والنشأة . ولكــن يبدو ان بغداد نبت به ففارقها الــى سامراء وسكنها ، وهذا ما نص عليه ابو الفرج في الاغانــي ، ولكــن لم يقل لنا ان كان قد ظل في سامراء حتــى توفــي ام لا .

هل هو مجنــون حقا ؟

ابو الفرج يؤيد اختلاط عقله ووسوسته ، ولكنه لا يقول بجنونه المطبق ، بل بجنون يعاوده بين الحيــن والحين . ومما وصف به : « كان اديبا شاعرا مطبوعا ، وغلبت عليه المــرة السوداء فاختلط وبطل في اكثر اوقاته ومعظــم احواله . ثم كــان اذا افاق ثاب اليه عقله وطبعه فقــال الشعــر الجيد » . اما هو نفسه فيرى ان ما يوصف بــه من الجنون انمــا هو محنة من المحــن نزلت به فهو ينكر على الناس هذا الوصف فيقول :

قــالــوا علــي كذبــا وبطــلا
انــي مجنــون فقــدت العقــلا

وذلك ان صديقا له روى عنه فقال : جاءني جعيفران فقال : « استوجب العالم مني القتلا » فقلت ولم يا ابا الفضل ؟ فنظر الي نظرة منكرة خفت منها وقال : (لما شعرت فراوني فحلا) ثم سكت هنيهة وقال :

قالوا علي كذبا وجهلا
اني مجنون فقدت العقلا
قالوا المحال كذبا وجهلا
اقبح بهذا الفعل منهم فعلا

ثم ذهب لينصرف ، فخفت ان يؤذنيه الصبيان ، فقلت اصبر فديتك حتى اقوم معك فأنك مغضب ، واكره ان تخرج على هذه الحال ، فقال : سبحان الله اتراني انسبهم الى الكذب والجهل واستقبح فعلهم ، وتتخوف من مكافاتهم ، ثم ولى وهو يقول :

لست براض من جهول جهلا
ولا مجازيه بفعل فعلا
لكن ارى الصفح لنفسي فضلا
من يرد الخير يجده سهلا

قصة جنونه

عزوا ذلك الى قصة نسبوا فيها اليه عملا غير اخلاقي ادى الى ان يوصي ابوه بحرمانه من ارثه ، فلما مات الاب سعى الوصي فاستصدر حكما من القاضي بهذا الحرمان . قالوا : « فوسوس جعيفران واختلط منذ يومئذ » .

حديثه عـــن ماساته

وان صحت هذه القصة فهو نفسه يكرر الحديث عـــن مأساته ، ويفصلها تفصيلا لا مزيد عليه ، تفصيلا مروعا يرينا الحقيقة عارية صريحة . فحرمانه من المراث سبب له الفقر، والفقـــر سبب له الهوان ، والهوان اغرى به الناس ، حتى لقد شاع جنونه فبلـــغ الصبيان . واية فرصة للصبيان اثمن من متهم بالجنون يعبثون به ويصيحون وراءه ويتضاحكون عليـــــه .

واي رجل يستطيـــع ان يصـــمد لجمـــوع الصبيـــان المنطلقـــة في الازقـــة عاطلة لاهية ، تفتش عما تقتل بـــه وقتها وترفه به فراغها .

اي رجل يستطيـــع ان يحتفظ بالعقل اذا مر في الطريق فتناولته سخريات الولدان وهزؤهم وتداولته ايديهم بالصفق ، وانامِلهم بالرشق ، وشفاههم ببذيء النطق .

ولا ننســـى ان للصبيان من يغريهم ولهم من يدلهم اذا تاهوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، لان له مصلحة في ان يضيع عقل الشاعر ويضطرب فكره .

تحدث جعيفران عـــن مأساته بلسان فصيح وعقل صحيـــــح :

رايـــــت النلس تدعـــوني
بمجنـــون علـــــى حالـــــي
ومــــا بـــــي اليـــوم من جـــن
ولا وســـــواس بلبـــــال

ولكـــن قولهـــم هـــذا
لاهـــلاســـــي واقـــلالـــي
ولـــو كنـــت اخـــا وفـــر
رخيـــا نـــاعـــم البـــال
راونـــي حســـن العقـــل
اهـــل المنـــزل العـــالـــي
ومـــا ذاك علـــى خيـــر
ولكـــن هيبـــة المـــال

وهل ابلغ في البيـــان من هذا البيان ، على انه في ابيات اخرى ، كان اكثر انطلاقا بل كان علـــى شيء كثير من الفلسفـــة التـــي شاء ان يأخذ بها نفسه فلا يبالـــي بمـــا يقولون ، وان كانت مظاهر عدم مبالاته هي في بواطنها مبالاة اي مبـــالاة .

وهل اكثر في انشغال بالك من ان تشغل بالك بان لا ينشغـــل ؟

رايـــت النـــاس تـــرميـــ
نـــي احيـــانـــا بـــوســـواس
ومـــن يضبـــط يـــا صـــاح
مقـــال النـــاس في النـــاس
فـــدع مـــا قـــالـــه النـــاس
ونـــازع صفـــوة الكـــاس
فتـــى حـــرا صحيـــح الـــود
ذا بشـــر وايـنـــاس
فـــان الخلـــق مغـــرور
بامثـــالـــي واجنـــاســـي

يحيـونـــي ويحـبونـي
علـــى العينيـــن والــراس
ويـــدعـــونـــي عزيـــزا غـــ
ـــير ان الـــذل افلاســـي

ومن هذه الابيات نستدل علـــى ان الناس لم يكونوا كلهم قساة عليه ، فقد كان فيهم من يدرك حقيقة امره ويؤمن بعقلـــه فان كلمة (احيانا) التي اوردها في البيت الاول ترشد الـــى ذلك ، كمـــاان مخاطبته لنفسه بان يدع (ما قالـــه الناس) وان (ينازع صفوة الكاس) :

فتـــى حـــرا صحيـــح الـــود
ذا بـــــر وايـنـــــاس

يدل علـــى انه لم يكـــن يعدم بين الفينة والفينة مثل هـــذا الفتـــى الحر .

ثم هذا البيت الحكيـــم :

ومـــن يضبـــط يـــا صــــاح
كـــلام النـــاس في النــــاس

ولكن بعض من كانوا يجالسونه ،انمـــا كانوا ينشدون متعـــة المجلس وفكاهة الحديث ، ويستطيبون بان يعبثـــوا به ويتضاحكوا منه ، انهم لم يكونوا يجالسونه علـــى انـــه شـاعـــر قريـــن لهم في المجلس ، بل علـــى انه مسلاة .

حضر يوما مجلسا ثم قام لحاجة له فقال بعض مـــن حضر : اي شـــيء معنـــى عشرتنا هذا المجنون ، والله ما نأمنه وهو صاح . وفطـــن جعيفران للمعنـــى فاقبـــل عليهم منشـــــدا :

وندامى اكلوني
اذ تغيبت قليلا
زعموا انى مجنون
ارى العري جميلا
كيف لا اعزى وما أبـ
ـصر في الناس مثيلا
ان يكن قد ساءكم قر
بي فخلوا لي السبيلا
واتموا يومكم
مركم الله طويلا

وهكذا بلغت القسوة ببعض جلاسه ان يستنفدوا اطاريفه حتى اذا غاب بهتوه واستغابوه ، وقد كان اذكى من ان يفوته معنى نظراتهم ومرامي همساتهم . ثم اننا نرى من هذه الابيات انه كان يعيش بالي الاثواب في شبه عري وقد اراد إن يسخر من الناس كما سخروا منه ، فلم ينسب عريه الى الفقر ولا الى الجنون ، بل الى انه فوق هؤلاء البشر ، فلا يجد مثيلا له يستحق ان يستتر منه ويتكلف له اللباس .

مع ابي دلف

ولقبل يوما على ابي دلف العجلي ، ومدحه بشعر جميل ، فامر له بكسوة وبالف درهم .. فلما جيء بالدراهم اخذ منها عشرة وقال : تأمر القهرمان ان يعطيني الباقي مفرقا كلما جئت لئلا يضيع مني . فقال للقهرمان

أعطه المال ، وكلما جاءك فاعطه ما شاء حتى يفرق الموت بيننا فبكى جميفران وقال :

يموت هذا الذي اراه
وكل شيء له نفاد
لو غير ذي العرش دام شيء
لدام ذا المفضل الجواد

وظل ابو دلف على احسانه اليه وصيانته له حتى افترقا بالموت . فكان مما انشده لابي دلف :

يا معدي الجود على الاموال
ويا كريم النفس في الفعال
قد صنتني عن ذلة السؤال
بجودك الموفي على الامال
صانك ذو العزة والجلال
من غير الايام والليالي

وهكذا نرى ان ذاك الجافي المتوحش الذي يرى ان الناس لا يستحقون ان يواري سوأته عنهم ، يعود هنا انسانا رقيق الحاشية سهل الجانب ، ان الحاجة قد اوقفته على الابواب بعقله وكرامته فثار لهما ، حتى اذا وجد من صانهما له شكر ذلك شكرا عديم النظير .

ولا ندري من سبق صاحبه الى الموت ، امات جميفران قبل ابي دلف ، ام مات ابو دلف قبله فابتذله السؤال من جديد ؟

صاحب نكتة بارعة

وهذا الشاعر البائس الحزين الشريد كان اذا اراد

النكتة بلغ فيها الغاية ، فقد تقدم من ابي يوسف القاضي بدعوى في شيء كان في يده من وقف ، وكان القاضي اعور ، فقضى القاضي عليه ودفعه عن الوقف . فقال له : اراني الله ايها القاضي عينيك سواء . فأخذه القاضي الى داره واطعمه واعطاه دراهم . ثم سأله : ماذا أردت بدعائك ؟ اردت ان يرد الله علي ما ذهب من بصري ؟

فقال : والله لئن كنت وهبت لي هذه الدراهم لاسخر منك لانت المجنون لا أنا . اخبرني كم من اعور رأيته عمي؟ قال : كثير ، قال فهل رايت اعور صح قط ، قال : لا ، قال : فكيف توهمت عليّ الغلط . فضحك وصرفه .

خاتمة المأساة

وصورة موته تختم مأساة حياته خاتمة من جنسها ، فهي ترينا هذا الشاعر عليلا وحيدا في علته ، لا عائد له ولا طبيب ، ولا زائر ولا قريب ، تطحنه الاوجاع طحنا فلا يقر له قرار ، ويأخذ يدور في الدار ، ويظل يدور فيها حيران موجعا حتى يهوي ميتا .

وهو في كل ذلك لا يرى غير الشعر متنفسا لكربه، فينشده وصفا لحياته وتعبيرا عن الامه وغربته وسهاده ووحشته .

حدث عثمان بن محمد عن ابيه قال : كنت اشرف مرة من سطح لي على جعيفران وهو في داره وحده ، وقد اعتل وتحركت عليه السوداء فهو يدور في الدار طول ليلته ويقول :

طاف بــه طيف مــن الوسواس
نفــر عنــه لـــذة النعـــاس
فمـــا يرى يأنـــس بالاناســـي
ولا يلــذ عـــشرة الجـلاس
فهـــو غريـــب بيـــن هذي الناس

حتـــى اصبح الصباح وهو يرددها ، ثم سقط كأنه بقلة ذابلـــــة .

ومن العجيب ان هذا المتحدث لم تتحرك شفقته ولم يثر حنانه ، فينزل الى هذا المريض فيسأله عما يشكو او يواسيه بكلمة طيبـــة او لمسة حانيـــة ، بل ظل طول الليل ينظر اليه ويستمـــع له حتـــى هوى امام عينيه .

« فهو غريب بيـــن هذي الناس »

هكذا صرخ جعيفران في آخر ساعة من حياته ، وما كان اصدقـــه صارخا .

ولكـــن تـــرى ، اكانت غربته هذه غربة العاقل بيـــــن المجانيـــن ، ام غربة المجنون بيـــن العقـــلاء ؟

الايوان بين شاعرين

— ١ —

وقف البحتري على ايوان كسرى وقفة طويلة جالت فيها عيناه في جوانب الايوان وتطلعت الى نقوشه وصوره وترامت في جوانبه واركانه فادهشته فخامة البنيان وروعة الفن وجلالة الصنعة ، فاستوحى خياله واستنطق شاعريته فجاءنا بقصيدته السينية الخالدة التي اشتهرت كل الاشتهار .

وكما وقف البحتري على الايوان كذلك وقف عليه بعد البحتري شاعر عربي شهير فارسل بطرفه الى سوامقه الشاهقة وتلفت الى بقاياه الهائلة فهاجت شاعريته وفاضت قريحته فارفد الادب العربي بقصيدة لم يكتب لها من الشهرة ما كتب لقصيدة البحتري فظلت في ديوان الشاعر مغمورة بين قصائده الكثيرة قل ان يذكرها ذاكر او يشير اليها مشير ، وهكذا تواتي الحظوظ شعرا فيحلق في الاجواء وينتشر في الافاق . وتعاكس شعرا فينزوي بين طيات الاوراق لا يرفع راسا ولا يسمع همسا فيضيع اي ضياع ! ويا لله وللحظوظ في الحياة كم رفعت وكم وضعت وكم دفنت وكم نشرت !..

هذا الشاعر الذي عنيته هو الشريف الرضي فقد

تقاذفته النوى حتى حطت به على ايوان كسرى فنظم قصيدة من أجمل قصائد الشعر العربي ولكنها ــ ويا للاسف ــ ظلت مهملة اهمالا شائنا فلم تجد بين كتاب العربية ونقادها من اولاها عناية او اشار اليها اشارة مع ما فيها من الاحساس العميق والشعور السامي الذي يرفع صاحبها الى اسمى المراتب بين شعراء الامجاد العربية.

وقف الشاعران على الايوان وتطلع كل منهما اليه بعينين تختلفان عن عيني الاخر ونظر اليه كل منهما بفكر يباين فكر الاخر ، واثار الايوان في نفس احد الشاعرين غير ما اثار في نفس الشاعر الاخر فجاءت قصيدتاهما متباينتي الروح والعاطفة والغاية. فالبحتري كان وقوفه على الايوان شاعرا فحسب لم يهج فيه الايوان الا عاطفة الشعر فوصف ما شاهد وصف الشاعر المجيد الفنان فابدع في الوصف ما شاء الابداع واوحى له خلو الايوان من بناته وانقراض جماته عاطفة الاسى العميق فقال :

اتسلى عن الحظوظ وآسى

لمحل من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالي

ولقد تذكر الخطوب وتنسي

وهم خافضون في ظل عال

مشرف يحسر العيون ويخسي

مغلق بابه على جبل القـ

بق الى دارتي خلاط ومكس

فهو في هذه الابيـات متذكـر معتبر يتأسـى عـن الجدود العاثرة بالطلول الداثرة فيذكـر آل ساسـان وحياتهم الهنيئة في ظل الايوان وعيشتهم الرغيدة في ابهائـه وما كان لهم من سلطان اي سلطان ٠ ثم هو يقارن بيـن هذه الاطلال الساسانيـة الضخمة وبيـن الاطلال البدويـة التـي شغلت شعراء الجاهليـة فوقفوا عليها وبكوهـا وفاض شعرهم بالتغنـي بها وترديد ذكرها فكأنما يريد ان يقول ان مثل هذه الاطلال هـيالتي يجب ان تشغل الشاعر فيعوج عليـها ويستنطقها اخبار الظاعنيـن لا اطـلال القفار البسابس التـي لم يكـن لها ان تشغل الشعـراء ذاك الاشغال :

حلـل لـم تكـن كاطـلال سعدى

في قفـارمـن البسابس ملـس

ثم يندفع الشاعر بوصف خلو الدار واقفارها حتـى كأنها ارماس او مآتم بعـد اعراس ٠

ثم يشير الـى ما تدل عليـه هذه الاثار من عجائـب مشيديها وابداع موجديها ثم يسهب بوصف ما فيها من النقوش والصور الماثلة مجيدا في ذلك كل الاجادة :

وهـو ينبيـك عـن عجـائب قوم

لا يشـاب البيـان فيهم بلبس

فاذا ما رايـت صـورة انطـا

كيـة ارتعت بيـن روم وفـرس

والمنايا مواثـل وانـو شـر

وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على اصـ
فـر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه
في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوي بعامل رمح
ومليح من السنان بترس

وفي هذه الابيات تستدل على ما كان عليه الايوان من فن رائع كانت تتجلى فيه صور المعارك الحربية بين الروم والفرس وصور المدن التي وقعت فيها المعارك وصور ملوك الفرس بالبستهم الزاهيةيقودون جيوشهم المنتصرة وصور المتقاتلين هذا يهوي برمحه وذاك يتقي بترسه الى غير ذلك من المشاهد المتنوعة . ويبلغ اعجاب البحتري بهذه الصور والنقوش اقصى الحدود حتى ليحسبها اشخاصا حية وحتى انه ليمعن في هذا الحسبان فيغالط نفسه فيتقدم اليها ويلمسها ليتأكد من خمود الحياة فيها :

تصف العين انهم جد احيا
ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس

ثم يمضي البحتري على هذا النسق في الوصف والشعور والتوجع في تسعة ابيات ينتقل بعدها الى ما اصاب الايوان من كوارث وارزاء ثم لا ينسى ان يعزيه عما نزل به مشيرا الى ان ذلك لا يعيب عظمته الخالدة ما دام لا يزال مشمخرا عالي الشرفات .

عكست حظه الليالي وبات الـ
مشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلدا وعليه
كلكل من كلاكل الدهر مرس
لم يعبه ان بز من بسط الديـ
باج واستل من ستور الدمقس
مشمخرا تعلو له شرفات
رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـ
صر منها الا غلائل برس

وبعد ذلك يظهر البحتري دهشته فيسائل نفسه ايستطيع الانسان ان يبدع هذا الابداع ام هي بدائع الجن للانس :

ليس يدرى اصنع انس لجن
سكنوه ام صنع جن لانس

ومهما يكن من امر فهو يؤمن ان الباني لم يكن ملكا خاملا ولا انسانا حقيرا بل هو بان كانت تغص نواديه بالوافدين وتعج مقاصيره بالقيان والمغنين وهو من هؤلاء الملوك الذين سادوا الزمن فعنا لهم وانقاد اليهم فعاشوا حياة كلها رغد وهناء ورفاه وصفاء :

فكأني ارى المراتب والقوم
اذا ما بلغت اخر حسي
وكأن الوفود ضاحين حسرى
من وقوف خلف الزحام وجلس

وكـــأن القيـــان وسط المقـــا
صـــير يرجحـــن بيـــن حو ولعـــس
وكـــأن اللقـــى اول مـــين ام
س ووشـــك الفـــراق اول امـــس

وبعد كل هذا يبرز البحتـــري شاعرا فحسب لا يهمه من كل ما راى الا انه مظهـــر حسي يهز النفوس الشاعرة الحساسة فتبكـــي العز الزائل والملك الهاوي وتشيـــد بذكر الامجاد ايا كانوا :

عمرت للسرور دهرا فصـــارت
للتـــعزي رباعـــهم والتاســـي
فلهـــا ان اعينهـــا بدمـــوع
موقفات علـــى الصبابـــة حبـــس
ذاك عندي وليست الـــدار داري
باقتراب منها ولا الجنس جنســـي

ثم يعقب علـــى ذلك ببيته الختامـــي الذي يظهـــر فيه مذهبه الشعـــري الانسانـــي :

وارانـــي من بعد اكلف بالاشـــ
راف طـــرا مـــن كل سنـــخ واس

— ٢ —

يستهل الشريف الرضـــي قصيدته استهلالا فروسيـــا جميـــلا تتجلـــى فيه روحه الوثابة وتبرز سجاياه الشمـــاء بل تبدو احساساته المكبوتة وعواطفه المقهورة . فالرضـــي فتـــى ملء برديه الرجولة التواقة الـــى العلياء الطمـــاحـــة الـــى المجـــد وقد اجتمـــع له من كريم نسبه ونبل خلالـــه وسمـــو مكانته ما جعله يانف حياة الدعة والخمـــول وعيش

الصغـــار والهوان . وتحكم في عصره بالناس من هم دونـــه كفاءة وشهامة وحسبا ونسبا فحاول ان يشق طريقه فاقعده الزمن وردته ظروفه فظل مهضوما مغيظا يفرج كرباتـــــه بالشعـــر :

قـــربـــوهـــن ليبعـــــدن المغارا
ويبدلـــن بـــــدار الهـــون دارا
واصطفوهـــــن لينتجـــن العلـــى
بالعوالـــي لا لينتجـــــن المهـــارا

انه يترنم بالخيل ويهتف باسمها ويصـــــرخ برهطـــــه ليقربوهـــا اليـــه !.... وماذا في الخيل ؟... ان فيـــها مظاهـــر القوة والعظمة ، مظاهر النضال والكفاح مظاهـــر الفروسيـــة الباسلة . والشريف يرى نفسه رجل الخـــيل المغيرات وقد حيل بينه وبيـــن اعنتها فهو يزفر من اعمـــاق صدره هذه الزفرة الحماسية جامعا فيها ما يتأكل نفســــــه من الحرمان المرير ومضمنا لها ما يجول في خاطره من التوثب الـــى معالـــي الامور فهو وقد وقف علـــى ايوان كسرى لا يتغزل بالحسان الساحرات ولا يستبكي للاطلال الداثـــرات بل يفتتح قصيدته بدعوة الخيل لا للتسلـــي باعنتها ولا للتلهي بصهواتها بل للغارات البعيـــدة ولتبدل له بدار الهــــون التـــي تأويـــه دار العز التـــي يطمـــح لها فهو يرى انـــــه انمـــا يحيـــى في دار الذل ومنزل الضيم بالرغم مما كـــان يحاط به من تكريـــم واعظام . وماذا يغنيه هذا التكريـــــم والاعظام اذا كان لا يزال بعيدا عـــن مطامحه العليا . واذا كان غيره يسمـــوه مرتبة وسلطانا ..

وتـــراه في البيت الثانـــي يعلن زهده بالمادة فهو لا يريد

الخيل لتنتج المهار بل لتنتج له العلى .

وبعد ان يمضي الرضي في واحد وعشرين بيتا يضمنها نوازعه وخواطره يصل بنا الى ذكر الايوان . فيخبرنا انه نزل فيه دارا لم تكن دار ذل وان بناته كانوا ذوي مجد رفيع استقلوا فيه عن الناس وشغلوه عن ان يعار لغيرهم :

قد نزلنا دار كسرى بعده
اربعا ما كن للذل ظوارا
اسفرت اعطانها عن معشر
شغلوا المجد بهم عن ان يعارا
تصف الدار لنا قطانها
المعالي والمساعي والنجارا

وهنا يتجلى انصافه واعترافه بالحق فهو بالرغم من نزعته القومية المتحمسة لا يبخس الناس اشياءهم ولا يغض من ذوي المواهب بل يتكلم عن الناس بما كانوا عليه فقد وصفت له الدار قطانها فهي باذخة البناء رحيبة الفناء وهي محكمة الصنعة متقنة العمل وهي في كل ذلك ناطقة بوصف من ابدعوها وحلوها تخبر عنهم بلسان فصيح ولغة واضحة .

ثم نراه يلم بما اصاب هؤلاء القطان من نزول عن مجدهم واضمحلال لامرهم فهو يرى ان الدهر استرد منهم ما اعارهم ليعيره الى غيرهم فكانما نعم الحياة عاريات يجود بها الدهر على ناس ثم يبدو له فيستردها ليجود بها على آخرين وهكذا تتداول الامم المجد فيما بينها .

آل ساسان جدا الخطب بهم
واسترد الدهر منهم ما اعارا
بعدما شادوا البنى ترفعها
عمد المجد قبابا ومنارا
كل ململوم القرى صعب الذرى
يزلق العقبان عنه والنسارا

ثم ينتقل الى وصف الايوان كما رآه في عهده ولكنه لا يصف لنا صوره ونقوشه ولا يتحدث عن عجائب صنعه وبدائع فنه بل ان ذلك لا يشغل ذهنه ولا يثير اهتمامه فلا يسترسل كالبحتري في وصف دقائقه بل يعطينا صورة اجمالية عنه تمثلا النفس رهبة ووحشة :

حمل الدهر الى ان رده
ضاغط العبء ضلوعا وفقارا
مطرقا اطراق مأمون الشذا
غمر النادي حلما ووقارا
او مليك وقع الدهر به
فاماط الطوق عنه والسوارا
اوهنت منه الليالي فقرة
لا يلاقي وهنها اليوم جبارا

اذن فلم يكن يهم الرضي ان يستوفي وصف الايوان فنحن لا نستطيع ان نتعرف من قصيدته الى حال الايوان يومذاك ولا الى ما كان لا يزال ماثلا من زخارفه فكأن الرضي لا يعنيه ان يسهب في ذلك بل هو يريد ان يستخرج العبرة من موقفه هذا فيتحدث عن حملة الدهر على الايوان حتى تركه « ضاغط العبء

ضلوعا وغفارا » .

ثم يصوره تصويرا فنيا رائعا يتخيله مطرقا برأسه اطراق الذي كان له صولة فزالت وأمن الناس نفعه وضره فهو مطأطئ الهامة اسفا على ماضيه وتفكرا بحاضره ، ولكن هذا الاطراق المحزن لا يذهب بوقاره وحلمه فهو — على شجاه — يملأ النادي حلما ووقارا . وهو على ما نزل به لا يزال محتفظا بجلاله وهيبته . ثم يشبهه بملك وقع الدهر به وحلت كوارثه في ساحته فسلبته ملكه واماطت عنه تاجه وذهبت بطوقه وسواره فهو لا يزال كما كان رجلا كامل الهيبة ولكنه عاطل من حلل الملك وحليه وكذلك الايوان فهو لا يزال قصرا شامخا ولكنه خال من كل ما كان له من شأن .

وهذه الابيات هي كل ما يظفر به الايوان من الشريف الرضي من الوصف ثم ينتقل بعدها الى ما يريده من اغراض قومية فيسائل اين معالي الايوان الجمة واين حماه الافيح واين رجاله الذين غلبوا الناس :

اين لا اين المعالي جمة
والجمى افيح والبراي مغارا
ورجال شدخت اوضاحهم
غلبوا الاعناق منا واسارا

فيجيب عن ذلك بجواب تتجلى فيه نزعته القومية ومبدأه الاسلامية واضحة جلية :

عمروا لم يعلموا ان لنا
نجائز الامر عليهم والامارا

ثم هو يشير الـــى ما كانت عليه الامم المجاورة للعرب من النظـــر اليـــهم بنظـــر الاستهانة وقلة الاكتراث غـــير عالمة بما وراء هذا الهمـــود من الاندفاع العجيب ولا حاسبه بان تلـــك الامة الممزقة الرأي المقطعـــة الاوصال ستهـــب هبـــة تدهش الدنيـــا :

قـــدروا جد نـــزار واقفـــا
ومشـــى الجد فمـــا عزوا نزارا

ثم يصف الوثبة العربيـــة العظيـــمة وما رافقها من بطولات وتضحيات وكيف اذهلت الناس فعنوا لها مستسلمين.

لاونوا لما راوا مـــن دونـــهم
واديا يلقـــي به السيل غمـــارا
عاينوا الضرب دراكا في الطلـــى
يعجل الناس والطعن بـــدارا

ثم يشبه العرب بالاسد يهب مصحرا بعد طول الحذر :

اصحر الليث الغفرنـــى فانثنـــى
يطلب اليربوع في الارض وجارا

وبعد هذا الاعتزاز بقومه والتفاخر بامته يتحدث عمـــا افضت اليه نهضة العرب وعن رسالتهم الاسلامية التـــي حملوها الـــى الافاق تجلو دياجير الشرك وتمحو معـــالم الوثنيـــة وتنشر التوحيد حيث حلت :

قهـــروا الشرك علـــى اعقـــابه
بعدما استقدم غيا وضرارا
واثـــاروا الديـــن من مربضه
واطـــاروا عن مجاليه الخمارا
داينوا المجد باطراف القنـــا
فغـــدا عينـــا وقـــد كان ضمارا

المرأة في حياة المتنبي وشعره

هل كان للمرأة في حياة المتنبي اثر من بعيد او قريب وهل كان لها في شعره توجيه خاص ، وهل بدت على هذا الشعر صبغة لها مساس او بعض مساس بها ؟

لا بد لنا قبل التوغل في الجواب من ان نفرق في موضوعنا بين المرأة اما وبينها زوجة او حبيبة ، اذ لكل اثره الخاص وناحيته التي لا تشبه ناحية الاخر . فماذا كان تأثير الام على المتنبي ؟ كل ما عرفناه عن ام المتنبي انها كانت همدانية صحيحة النسب من صلحاء النساء الكوفيات(١) ومهما اراد الدكتور طه حسين ان يحيط بمولد المتنبي من الشذوذ(٢) ومهما اردنا ان ندفع هذا الشذوذ فلا ريب انه لم يكن لأم المتنبي اي اثر لا في حياته ولا في شعره ، بل ان المتنبي الذي تغنى بجدته لم يشر الى امه اشارة ولم يولها ذكرا . والدكتور طه حسين محق حين يقف طويلا امام هذه الظاهرة فيتساءل عن السر فيها . ولكننا لا يمكن ان نذهب معه الى النتيجة التي وصل اليها من ان ذلك انما كان لان مولد المتنبي كان شاذا ! ولماذا كان شذوذ مولد المتنبي هو السر في ذلك ، ولا يكون السر فيه هو ان

---

١ ـ انساب السمعاني وتاريخ بغداد .
٢ ـ مع المتنبي .

المتنبي لم ينعم بتلك الام ففقدها قبل ان يعرفه المجتمع وينغمس في الحياة ؟ اكبر الظن ان ام المتنبي قد فارقت الدنيا قبل ان يقدر لابنها التعرف عليها والتمتع بعطفها وحنانها فتركته لامها ، فكانت امها له اما ، وكانت عاطفة البنوة ملتهبة فيه لجدته ، لانه لم يعرف غيرها اما ، واذا لم يكن الامر كذلك فلماذا يذكر المؤرخون شوق جدته اليه ولا يذكرون شوق امه ، ولماذا يعنى برثاء جدته ولا يعني برثاء امه ؟

ومهما كان مولد المتنبي شاذا — على رأي الدكتور طه حسين — فان هذا الشذوذ لن يحول دون شوق الوالدة الى ولدها ولن يحول بين رثاء المتنبي لامه لو كانت هذه الام حية عندما كان ابنها شاعر العرب ومهما يكن من امر فالذي لا ريب فيه هو ان ام المتنبي بعيدة عن كل اثر في حياته وشعره ، وقد حلت محلها في هذا الاثر امها فكان من تأثيرها في شعره تلك القصيدة الرثائية الخالدة التي قيل عنها : (انه ورد عليه كتاب من جدته تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة فانحدر الى بغداد ، وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتابا يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها)(١) .

ونحن لا تهمنا العلة التي ماتت بها الجدة ولا فرق لدينا اذا كانت هذه العلة هي الفرح او الحزن او اية علة اخرى ما دامت قد ماتت قبل ان يراها ابن ابنها وبعد

---

١ — الديوان ..

ان اوشك ان يراها ، وقد كان المتنبي وهو الشاعر الحساس الملتهب الشعور المتأجج القلب كان حريا به ان يخلد هـــذا الموقف الرائع بمثل ما خلده به من الشعر الذي لا نزال نحس فيه احزان المتنبـــي وآلامه والذي لا يزال علـــى تطـــاول العهـــد به مضرب المثل في الاســـى العميـــق والشجـــن الدامـــي ، ومن ذا الذي لا يهزه هذا القول :

احن الـــى الكاس التي شربت بها
واهوى لمثواها التراب وما ضمـــا

واذا كان المتنبـــي ينادي بانه يحن الى الكأس التي شربت بها جدته فما كان ذلك لان الجدة قد ماتت وملكه عليها الحزن فحسب ، بل كان ذلك لان نفس المتنبـــي كانت فيذلك الحين قد امتلأت همـــوما ،ولان الـــزمـــن كـــان قـــد جرعه امر الغصص ، ولانه كان قد رأى بعينيه انهيار آماله في الحياة واهل الحياة ، ولانه كان قد وصل الـــى حال اصبح يحـــن معها الـــى ورودكأس المنية ، ثم فوجـــىء بمـــوت القلب الذي كان يرى انه وحده يخفق بحبه ، وانه وحده الذي يستروح اليه ويعتمـــد عليـــه فصاح من اعمـــاق قلبـــه في ساعة يائسة (احن الـــى الكأس التي شربت بها) وها هو نفســـه يزيد هذه الفكرة وضوحا وجلاء فيقول :

عرفت الليالـــي قبل ما صنعت بنا
فلما دهتنـــي لم تزدني بها علما

فهو قد قاســـى من صروف الليالـــي ما جعله ســـيء الظـــن بها وما جعله لا يترقب منها الا الشر ، فلما اتته هذه الداهيـــة لم يفاجأ بها ولم تزده علما بمـــا يحمله له الزمن من خبايا المصائب والمحن . ثم هوذا يمعن في الايضاح والجلاء

فيصور خيبة امانيـه وتلاشي احلامه ، فلا ولاية ولا سلطان ولا حشم ولا اتباع بل حظ عاثر ويأس قاتل :

طلبت لها حظا ففاتت وفاتنـي
وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما

وهكـذا بعـد ان طوف في البـلاد وراء (الحظ) ، فاته هذا الحظ وفاتته كذلك هذه الجدة الرؤوم ونحن نلمس في عجز البيـت حسا من الندم الخفـي علـى تلك المغامرات والضرب في الفلوات وراء الحظ المنشود ونلمس روحا مـن الاسف المكبوت علـى ان لا يكون قد قنع فلم يجازف ورضي فلم يندفع ، وعلـى ان لا يكـون قد عاش الى جانـب تلك الجدة خلـي البال من المطامح بدلا مـن ان يعيش الـى جانب اولئك الذيـن لم يعرفوا حقه ولم يجيبوا سؤله ، ولا ادل علـى هذا الندم والاسف من البيت الذي يليه :

فاصبحت استسقـي الغمام لقبرها
وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصما

ولا نريد ان نسترسل في النظر بهذه القصيدة ، وانمـا نكتفـي بالقول انها صورة حية لما كانت عليه نفس المتنبـي من الحزن والكمـد ، وانها مظهر واضح لما كان فيه من التبرم بالناس والحياة وان وفاة جدته كانت مفجرا لعاطفته ، فارسل نفسه علـى سجيتها فبكـى فيها بكاء مرا :

حرام علـى قلبـي السرور فانني
اعـد الـذي ماتت به بعدهـا سما
وما انسدت الدنيـا علـي لضيقها
ولكـن طرفا لا اراك بـه اعمـى

فـوا اسفـا ان لا اكـب مقبـلا
لرابتك والصدر الـدي ملئا حزما
وتحدى الناس تحديا صارخا :
لئن لذ يوم الشامتيـن بيومـهـا
فقـد ولـدت منـي لانفهم رغما
تغرب لا مستعظـما غير نفسـه
ولا قـابلا الا لخالقــه حكمـا
يقولون لـي ما انـت كل كل بلدة
وما تبتغـي ، ما ابتغي جل أن يسمى
كأن بنيهـم عالمـون بانني
جلوب اليـهم من معادنـه اليتما
واستهتر بالدنيا وما فيها :
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبـي
ويا نفس زيدي في كرائهها قـدمـا

هذا هو اثر المراة الأم ، او علـى الأصح المراة الجدة ، في شعر المتنبـي ، فما هو اثر الزوجة والمراة الحبيبـة في حياتـه وشعره ؟

اذا كان قد وجد بيـن المؤرخيـن من يذكر ام المتنبـي فيقول انها همدانية من صلحاء نساء الكوفة ، فانه لـم يوجد بينهم من يذكـر زوجته او يتحدث عنها بشـيء ، فنحن لا نستطيـع ان نعرف في اي زمن تزوج المتنبـي ، ولا في اي طور من اطوار حياته ، ولا في اي بلد من البلاد التـي نزلها ، بل ان الغموض ليكتنف هذه النقطة من تاريخه كـل الاكتناف ، وليس لدينا شـيء واضح عنها ، غير انه كـان له ولد سمـاه (محسدا) اما من هـي ام محسد ، وكيف

اتصل بها المتنبي ، واين اتصل ، وكيف كانت حياته معها؟ فانا لا نستطيع الاجابة به على شيء من هذا . فهل عاشت معه في بلاط سيف الدولة ؟ وهل انتقلت معه الى مصر ؟ وهل ذهبت الى ارجان وشيراز ؟ وهل امتدت بها الحياة بعده ام ماتت قبله ؟ كل ذلك لا يجيبنا عنه التاريخ بشيء ، ولكن امراواحدا يستوقف النظر ، هو ان الذين ذكروا مقتل المتنبي ذكروا ان محسدا كان يصحب اباه في عوده من فارس الى العراق ، ولكننا لا نعرف السن التي كان فيها محسد ، كما اننا لا نعرف اين كانت ام محسد في ذلك الحين . على اننا نستطيع التأكد من انها لم تكن تصحبه في تلك الرحلة القانية ، لانها لو كانت تصحبه وقتل زوجها وولدها لسمعنا عنها خبرا ، ولروى ابو نصر الجبلي للخالديين عنها شيئا ، فيا ليت شعري هل كانت لا تزال على قيد الحياة تنتظر اوبة زوجها وولدها وتستعد لاستقبالهما بعد الغياب الطويل ؟ هل كانت ام محسد في الكوفة تترقب عودة ابي محسد ومحسد فتبثهما لواعج الوجد والشوق وتفضي اليهما بما في الصدر من هوى وحنين ؟ ام كانت في مكان آخر تستطلع اخبار الغائبين العزيزين متوقعة ما يحملانه لها من مجد ورفاه ومال ؟ اجل هل كانت حية تنتظرهما ام كانت ميتة من عهد بعيد او قريب فلم يفجعها موتهما الدامي ؟

كل ذلك سر في ضمير التاريخ لم يكشف عنه لاحد .

ولكننا نتساءل : **هل** يمكن ان تموت في حياة زوجها ، ثم لا يرثيها بكلمة ولا يبكيها بقصيدة بعد ان رأينا شدة تفجعه على جدته وطول حرقته لموتها ،و نحن يعنينا في مقالنا هذا ان

نعرف مدى تأثيرها في حياة المتنبي وفي شعره ، وبعد كل الذي مر ندرك اننا لا يمكن ان نجد لها اي اثر في حياته ولا في شعره .

اما ما كان من تأثير الحبيبة في المتنبي فذلك ما سنجيب عليه في مقال تال .

الحب عنـد المتنبي

هل احب المتنبي وهل احس بلواعج الوجد وتباريح الغرام ؟ هل استطاعت امراة ان تخلب لبه وتفتن قلبه، فيشيد بها ويتغنى بجمالها ومحاسنها ؟

اذا اردنا ان نتخذ شعر المتنبي دليلا على ترجيح السلب او الايجاب ، واذا اردنا ان نرجع الى ديوانه لندلي بالجواب ، فاننا نستطيع ان نقول بدون تردد ان المتنبي لم يعرف الحب ولم يعانه ، فالذي يقول :

وما العشق الا غرة وطماعة
يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغرام رمية
وغير بناني للزجاج ركاب

ان الذي يقول هذا القول لا يمكن ان يكون من اهل الحب بل هو من الهازئين بالحب واهله المشنعين عليهم الرامين لهم بالضعف ، فالحب عنده غرة وطماعة ، وليس من رايه ان القلب يرمى من حيث لا يحتسب ، بل من رايه ان القلب هو الذي يعرض نفسه لهذه الغرة والطماعة فيصاب . ولو شاء هذا القلب الا يصاب لما اصيب وهذا قلبه فانه لم يشا ان يصاب فلم يصب . ولم يسكت المتنبي عند هذا القول ، بل ردده في مواضع شتى فقال :

مما اضر باهل العشق انهم
هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعا وانفسهم
في اثر كل قبيح وجهه حسن

فالذي يراه المحبون حسنا فتفنى عيونهم به وتذوب نفوسهم ليس الا الوجوه فقط ، واما النفوس فانها قبيحة لا خير فيها ، ولو انهم اطلعوا على ما وراء هذا الحسن الخادع لما اضربهم عشقهم ، ولكنهم احبوا وعشقوا ، دون ان يمعنوا في التأمل بحقائق الدنيا ، فلم يعرفوا دخائل من احبوا ، ولم يفطنوا الى ما ينطوي عليه من غدر ومخاتلة وخداع . وهذا الراي القاتم متأت ولا شك عن نظرة المتنبي للناس عامة ذكورا واناثا ، فلا تحسب المراة ان المتنبي من اعدائها وحدها ، فهو ثائر على الكون ناقم على البشر جميعا ، لانه يرى نفسه مهتضما مغيظا لا يبل له اوام ولا يجاب نداء ، وهذا الراي هو صدى لرايه القائل :

ومن عرف الايام معرفتي بها
وبالناس روى رمحه غير راحم

وبعد ان يعلن المتنبي رايه في العشق واهل العشق يلتفت الى الغانيات المغريات فيجبههن باعنف القول وامر الكلام ويخاطبهن بقسوة وتحكم بل ساخرا بهن :

تجملوا حملتكم كل ناجية
فكل بين علي اليوم مؤتمن

فلا التهديد بالرحيل ولا الوعيد بالهجر ، استطاع ان يلين قلبه ويميل به الى الهوى بل اعلن بان البين لن يضيره ، وان النأي لن يزعجه . ولماذا يهتم ببعدهن ويشغل نفسه

بهن ، ولماذا يحزن لفراقهن ويأسى على رحيلهن ما دامت مهجته وحدها التي ستتحمل عبء ذلك كله ، وما دام لن يجد لهذه المهجة اذا ذابت شوقا وتلاشت حنينا — لن يجد عوضا عنها في الظعائن وثمنا لها في الهوادج

ما في هوادجكم عن مهجتي عوض
ان مت شوقا ولا فيها لها ثمن

وان الذي يقول :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

والذي يقول عن نفسه وعن الناس :

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

ان الذي يقول هذا القول لا يكون عليه غريبا ان يرى مهجته اسمى من ان يذيبها شوق لمخلوق ، ونفسه اعظم من ان يقتلها حب لانسان .

واذا كنا قلنا آنفا ان المتنبي ناقم على الناس جميعا وان ثورته ليست على المرأة وحدها ، فهذا لا يعني ان ليس له فيها نظرة خاصة فقوله :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

وقوله :

ومن خبر الغواني فالغواني
ضياء في بواطنه ظلام

ان هذا القول صراحة في تخصيصه اياها بالشطر الوافي من حملاته على بني الانسان وصراحة برايه السيء بها ، بل ان هذا القول يضعه في صف خصومها الالداء واعدائها الاشداء . على انه ربما كان احسن وصفها كل الاحسان وانصفها كل الانصاف حين قال :

وان عشقت كانت اشد صبابة
وان فركت فاذهب فما في فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى
وان رضيت لم يبق في قلبها حقد

ولكن المتنبي صاحب هذه الاراء القاسية في المراة والغرام لم يستطع ان يجرد شعره من الغزل فقد افتتح كثيرا من قصائده بالغزل وتحدث عن الحبىو النساء وتظاهر بالهوىو شكوى النوى ، وشارك العاشقين في بث الوجد وذكر الوصل والصد ، حتى انه اغرق في ذلك احيانا اغراقا حاول فيه ان يتسمى بالعاشق كل العاشق :

وما انا الا عاشق كل عاشق
اعق خليليه الصفيين لائمه

وان يجعل عشقه فوق كل عشق :

وطرف ان سقىا لعشاق كاسا
بها نقص سقانيها دهاقا

وان يكون شاعرا غزلا :

احيا وايسر ما عانيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا

فهو يتحدث عن حب قاتل يعجب معه كيف يبقى حيا ، ويتحدث عن بين جار عليه فلم ينصف ضعفه.ولا

يقتصر علــى هذا الحديث الاجمــالــي عــن الحب بل يعود فيخاطب حبيبــة بعينها فيتضرع لها تضرع الولهان :

بما بجفنيك من سحر صلــي دنفا

يهوى الحيــاة واما ان صددت فلا

ثم يسهب بوصف عواطفه الغامضة في عدة ابيــات يصل بعدها الــى ما اراده من مدح احد الناس وينتهــي الامر . وهكذا يبدو غزله بوجه عام ، فهو اما ان يرتفــع قليلا او كثيرا ، ومهما ارتفع او انحط فهو غزل لا طائل تحته، ولا عاطفــة تذكيه ولا شعور يوريه ويسف احيانا كــل الاسفاف فــيقول :

اوه بديــل مــن قولتــي واهــا

لمــن نات والبديــل ذكــراهــا

اوه لمــن لا ارى محاسنهــا

واصل واهــا واوه مــرآهــا

والمتنبــي نفسه يعلــن رايه في هذا الغزل الفاشــي في بعض قصائده ولا يحجم عن ان يقول انه سير علــى سنن غيره من الشعراء ، وان طريقة الشعر قد اقتضت هذا ، وان افتتاح القصائد بالغزل ليس دليلا علــى الحب والغرام :

اذا كــان مــدح فالنسيب المقدم

اكل فصيــح قــال شعرا متيــم

وكأن المتنبــي صاحب الدعوة ضد الحب والمراة قــد خشــي ان يؤخــذ عليــه غزله وان يعتبر تناقضا مع ارائه الصريحة فاعتذر عن هذا الغزل واعلــن حقيقته ، وانه ليس في الواقــع الغزل الذي عرفه الناس ونظمه الشعراء ، بل هو غزل رمزي يخفــي تحته شعورا غير شعور الغرام ،

وحبا لغير المرأة ، وشغفا بغير ثناياها الغر واحداقها النجل ، فبعد ان افتتح قصيدة بالغزل المألوف عاد يقول

حب كنى بالبيض عن مرهفاته
وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير انني
جناها احبائي واطرافها رسلي
عدمت فؤادا لم تبت فيه فضلة
لغير الثنايا الغر والحدق النجل
فما حرمت حسناء بالهجر غبطة
ولابلغتها من شكا الهجر بالوصل

وهو في بيته الثالث عنيف متشدد وفي بيته الاخير مستهزىء بلذائذ الوصال ومستهتر بالهجر لا يرى ان غضب الحسناء وهجرها يمكن ان يحرم المرء اية غبطة ولا ان وصلها يمكن ان يجلب اية سعادة وهذا القسى مظهر من مظاهر ارائه الصلبة . على اننا لا نستطيع أن نجرد جميع غزله من العاطفة والشعور فلا شك ان في القليل من بعضه عاطفة جياشة وحبا نابضا ولكن ليس الحب وليست المرأة هي مصدر ذلك ، بل هي ذكريات ايام سوالف واشواق الى منازل نائية واهل بعيدين كان يقول :

مما لاح برق او ترنم طائر
الا انثنيت ولي فؤاد شيق

او يقول :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى
اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا
فيا شوق ما ابقى ويا لي من النوى
ويا دمع ما اجرى ويا قلب ما أصبى

او يقول :

ليالي بعد الظاعنين شكول
طوال وليل العاشقين طويل
يبن لي البدر الذي لا اريده
ويخفين بدرا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة
ولكنني للنائبات حمول
اذا كان شم الروح ادنى اليكم
فلا برحتني روضةو قبول
وما شرقي بالماء الا تذكرا
لماء به اهل الحبيب نزول

وما ادرانا ان لا يكونوهو يرسلهذا الشعر وامثاله انما يذكر تلك العجوز الذي رأينا اشفاقه عليها وشغفه بها في رثائه لها ، وانه يذكر ايام صباه الماضية في بلده وبين اهله وقومه :

اما الاحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيد دونها بيد

ولا بد لنا ونحن في الحديث عن غزله من ان نلم بالابيات الجميلة التي تغزل فيها بالاعرابيات وعرض بالحضريات :

ما اوجه الحضر المستحسنات بها
كأوجـــه البدويـــات الرعابيـــب
حســـن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البـــداوة حســـن غير مجلـوب
ايـــن المعيز مـــن الآرام ناظـــرة
وغير نـــاظـــرة في الحسن والطيب
افدى ظباء فلاة ما عرفن بهـــا
مضغ الكلام ولا صبـــغ الحواجيب
ومـــن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشيبـــي غير مخضوب

ولا شك ان هذا الغزل البدوي ، والتظاهر بالشغـــف بالاعرابيات انمـــا هو اثر من آثار النقمة علـــى المرأة فقـــد اتخذ من بساطة البدويات وسيلة للحمـــلة علـــى غـــادات المدن وانشغالهـــن بالزينة والتطرية والتجمل فتهكم علـــى اصباغهـــن ومساحيقهـــن ،و هزأ بمضغهـــن الكلام وشبههن بالمعزى ، وعاب عليهـــن تمويه الحقائق وجردهـــن من كل محمـــدة وحسن ، ومع ذلك ومع انه اتخذ الاعرابيات ترسا يتوارى وراءه في الهجوم علـــى الحضريات فان سجيته ابت الا ان تتغلب عليه فلم يستطع ان يترك ثناءه علـــى نســـاء البدو خالصا لا شائبة فيه ، بل عاوده داؤه المزمن في الغضب علـــى الجنـــس البشري والنقمة علـــى بني الانسان فغمـــز من البادية واهل البادية غمزة قاسية :

فؤاد كل محـــب في بيوتهـــم
ومال كل اخيذ المـــال محروب

عندما كان المتنبي طالب وظيفة

يروى انه لما عوتب كافور الاخشيدي علــى عـــدم تلبيــة طلب المتنبــي قال : (يا قوم من ادعى النبوة بعــد محمــد اما يدعــي المملكة مع كافور ؟) .

اما ان ابا الطيــب ادعــى النبوة بعد محمــد فذلك امر لم يثبت ، ودعوى لم يقم عليها برهان . واما ان يدعي المملكــة مع كافور فلا ندري ما الذي ينكره كافور في المتنبي مما يحول بينه وبيــن مشاركته له الولاية في زمن هانت فيه الولايات حتــى وليها مثل كافور ، ولا ندري ما الذي كـــان يريده كافور في الرجل لكــي يصبح اهلا للولاية ، واذا كان احمــد بــن الحسيــن وهو العربي الكريم والعبقري العظيم لا يحســن الولاية فلا ندري من هو في نظــر كافور كـــان يحســن لها !.. وقد كان عيب المتنبــي عند كافور انه : (رأي تعاليه في شعره وسموه في نفسه)(١) ولو انصــف كافور لوجد في هذه الصفات ما يحمله علــى احترام المتنبي واجابة رغباته ،و لكــن الدهر الذي اوصل كافور للحــكم وترك ابا الطيبطريدا من بلد الى بلد يفتش عن الرزقويسعى للكرامة هو دهر يصبح منه تعالــي الشعر وسمو النفس ذنبا

١ ــ الديـــوان .

يعاقب صاحبه بالحرمان وهو دهر فهمه ابو الطيب حق الفهم عندما قال :

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام
ولم ار مثل جيراني ومثلي
لمثلي عند مثلهم مقام
بارض ماا شتهيت رأيت فيها
فليس يفوتها الا الكرام

ومن المؤسف ان فريقا من مؤرخي الادب القدماء والمعاصرين قد تابعوا كافورا في رأيه وانكروا على ابي الطيب تمسكه بطلب الولاية وعدوا ذلك منه اشتطاطا وغرورا لحسبانهم انه طلب الولاية للولاية والحف في السعي لها حبا بالسيطرة والسلطان والواقع ان ابا الطيبو قد رأى من لؤم الزمان ما رأى وعانى من نذالة الايام ما عانى انما كان يطلب (وظيفة) تغنيه عن الوقوف على الابواب وتكفيه مداراة من لا يستحق المداراة وتمنع عنه اذى الطامعين في مدحه ممن لا يستحقون المدح والواقع انه وقد لوحقسيفعند سيف الدولة تلكالملاحقة القاسيةوكابد من شغب الشاغبين كل صعب مرير راح يفتش عن منجى يحفظ عليه رزقه موفور الكرامة عزيز الجانب ولم يجد ذلك الا في عمل يليه فيتخلص به من متاعب الحياة وكوارثها . فهو قبل ان يصل الى سيف الدولة كان قد ذاق من الحياة الامرين فطورد وسجن وكان من تقدير بعض حكام عصره لشعره ان جاد عليه بدينار جزاء انشاده قصيدة في مدحه فلماو صل الى سيف الدولة عرف انه وصل الى

حمى الملك العربي الذي يفهمه ويقدره وعرف انه وصل الى السيد الذي يلذ فيه القول ويطيب لسجاياه المدح وعرف انه وصل الى الرجل الذي كان ينشده ويسعى اليه ... ومن يكون هذا الرجل اذا لم يكن سيف الدولة بطل العرب ورمز سيادتهم وعنوان عزهم في عصره ، فاذا ما مدحه المتنبي واثنى عليه فانما يمدحه ويثني عليه لا متكلفا ولا متصنعا ولكنه يفعل ذلك متأثرا بمناقب هذا الممدوح الذي ذاد عن حمى العروبة و الاسلام اي ذياد . والذي استطاع ان ينشىء الدولة العربية الفتية في ذاك الخضم الاعجمي الزاخر . لقد كانت بطولة سيف الدولة وشخصيته الفذة خير مثير لقريحة المتنبي الفياضة وكانت معارك علي بن حمدان أفضل ما يهيج شاعرية احمد ابن الحسين فحمد المتنبي مقامه وثار لادبه الفذ بهذا الحاكم الألمعي مما ناله من ذلك الحاكم الغبي وحسب أن الامر سيطول به قرير العين رضي النفس ولكنه احيط بالدسائس من كل مكان ووجد المتشاعرون فيه منافسا خطيرا غطى عليهم فاجمعوا امرهم على الكيد له فتحمل ذلك صابرا يعزيه عما يناله انه في جوار الرجل الحبيب الى نفسه القريب الى قلبه ولكنه ضاق آخر الامر ذرعا بما فيه فعول على المجازفة والتخلص من حياة الاتكال .

وقد افصح عن محنته تلك في القصيدة التي ارسلها الى سيف الدولة حينما كتب اليه مع ولده يطلب منه العودة اليه بعد تركه كافور فقال معتذرا عن ذلك :

فهمت الكتاب ابر الكتب

فسمعا لامر امير العرب

اريك الرضا لو اخفت النفس خافيا
ولا انا عن نفسي ولا عنك راضيا
وطوعا له وابتهاجا به
وان قصر الفعل عما وجب
وما عاقني غير خوف الوشاة
وان الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم
وتقريبهم بيننا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه
وينصرني قلبه والحسب

فهو لا يرى في جوار سيف الدولة غضاضة ولا في مدحه مهانة وهو لذلك لا يشكوه ولا يتضجر منه بل يحن اليه ويهواه وانما يخاف الدسائس في البلاط ويخشى وشايات الوشاة ، والعيش بين الدسائس والوشايات عيش اليم والحياة فيها جحيم ولا سيما للاديب الفذ والشاعر المجيد الذي يريد جوا هادئا ينصرف فيه الى شعره وادبه لا الى محاربة الكائدين ومصاولة الشانئين ، وقد حسب المتنبي انه ملاق عند كافور ما يرنو اليه وقد كان كافور هو الخاسر حين خيب به الرجاء واضاع الامل !.

ولم يكن قصد المتنبي لكافور بالامر الهين على نفسه فقد كان يشعر في قرارة ضميره اي مركب خشن اركبه الدهر واي هوان اوصله اليه حين الجاه الى كافور وقد كان يأسى على نفسه اشد الاسى حين اضطر لمدح هذا الرجل الذي شاء الدهر الاعمى ان يوصله الى كرسي الحكم . وحسبك في ذلك ان اول بيت انشده المتنبي بكافور كان هذا البيت الذي يفيض حزنا والما والذي

أعلـن فيه صراحة انه كان يتمنـى الموت قبل ا ن يقف هذا الموقف المـر :

كفا بـك داء ان ترى الموت شافيا
وحسـب المنايـا ان يكـن امانيا
تمنيتها لما تمنيـت ان تـرى
صديقـا فأعيـا او عـدوا مداجيـا

ولا أعرف في الالفاظ لفظا يمكـن ان يعبر عن شعور الرجل الكريم الذي لم يجد بدا من الوقوف علـى ابـواب اشباه كافور تعبير هذيـن البيتيـن الخالديـن ويدل دلالتهما ويكفـي في مصاب المتنبـي ان يكون الداء قد بلـغ بالشـاعر الـى ان لا يرى شافيا منه الا الموت ، وحسبه ان تكون المنايا قدا صبحت امانيه ، لقد تمناها كما تمنـى الصديق الوفـي المخلص الذي لا يخونه عند الشدائد ولا ينساه اذا فرقـت بينهمـا المناصب، لقد تمنـى ذلك فاعياه فتمنـى — على الاقل — عدوا ينسـى عداوته احيانا فيداجيه ويكف عـن اساءته فاعيـاه ايضا فصاح من اعمـاق قلبه (تمنيتها) .. ولقد استطاع انيخرج اروع صورة للحزن العميق بهذه الكلمة الواحـدة (تمنيتها) .

واذكر ان احد النقاد عاب علـى المتنبـي ان يفتتح قصيدة المدح بهذا المطلـع لا سيمـا وهي اول قصيدة ينشدها لهذا الممدوح ، ولكـن المتنبـي كان في ذلك سائرا علـى سجيته معبـرا عـن حقيقته معلنا لشكايته غير مبال بحسن المطلع او قبحه ، ولم يلبث بعد انشاد هذه القصيدة ان همس بينه وبيـن نفسه :

تنبأ بالندم فكان النادم

قلت ان أول شعر انشده المتنبي لكافور كان شعرا تمنى به الموت قبل ان يقف هذا الموقف المر ، وانه شعر ان دل على شيء فانما يدل على ان المتنبي كان في حال من الاسى واليأس لا يأسف فيها على ترك الحياة بل يود لو ان هذه الحياة تركته واراحته من هذا الهوان الذي صار اليه ، فهو اليوم يقف على باب كافور ويتقرب اليه بالاماديح ويصوغ له قلائد الشعر ، وينشده فرائد القصائد ليتفضل كافور فيغنيه عن الناس ، ويسد خلته بعمل مستقر يطمئن اليه في مستقبل ايامه . واي حياة هي هذه الحياة التي تسوقه الى هذه الوقفة المزرية على باب هذا الرجل المتغلب . ولكن ابا الطيب اعتقد انه لم يكن له بد من هذه الوقفة على هذا الرجل فقد ضاق صدره بما لقي من الدساسين عند سيف الدولة فظن انه سيستطيع ان يغيظ سيف الدولة وحاشيته بما سيلقى عند كافور .

واحسب انه قد تعمد ان يقصد الى كافور بالذات بعد تركه سيف الدولة و تعمد ان لا يقصد غيره وان يخصه بمدحه دون الاخرين من امراء عصره ليكون ذلك ابلغ في نكاية سيف الدولة واغاظته :

لئن تركن ضميرا عن ميامننا

ليحدثن لمن فارقتهم ندم

وقد كان موقنا ان كافورا سيقدره قدره وأنه سيرى ان من نعم الله عليه ان يأتيه ابو الطيب فهو لذلك سيجزل له العطاء وسيجيب الرغبات ويحقق الاماني وقد كانت امنيته الوحيدة (ضيعة او ولاية) يتيه بها على الحاسدين ، وما قدر الولاية او الضيعة بجانب قصائده العصماء التي لم كن يحلم بمثلها هذا الامير الجديد المستحدث النعمة ؟!...

ولكن كافور لم يكن عند ظن المتنبي ولم تأت النتيجة كما قدر ابو الطيب بل اصم (ابو المسك) اذنيه عن الولاية وحسب انه يستطيع ان يكسب قلب المتنبي بالمال فاغدقه عليه ، ولكن لم يكن المال هو الذي يطلبه المتنبي فلقد كان يملك منه ما يغنيه في حاضره عن كافور ، واذا لم يكن يملك منه الكثير الفائض فانه لم يكن يريده بهذه الاساليب التي سئمها وعافتها نفسه ، ولم يكن يريده بنفس الطرق التي كان يناله بها في الماضي . لقد كان ابو الطيب يطلب عند كافور المجد والكرامة وكان كافور ابعد الناس عن ان ينيل ابا الطيب المجد والكرامة :

وما رغبتي في عسجد استفيده
ولكنها في مفخر استجده

وظل المتنبي يعرض بامنيته تارة فيقول :

وهبت على مقدار كفي زماننا
ونفسي على مقدار كفيك يطلب

ويصرخ بها تارة اخرى فيقول :

اذا لم تهب أبي ضيعة او ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

ولكـــن لا التعريض ولا التصريح كان يمكن ان يدفع كافورا لتحقيـــق الامنية . وادرك اخيرا ابو الطيب ان كافورا ليس بالرجل المنشود وانه لم يكـــن الامير الذي يستطيـــع ان يغيظ به سيف الدولة ، وان مجلس سيف الدولة علـــى ما فيـــه كان خيرا له من مجلس كافور ، وان اذى الدساسين وهم الحاسدين في البلاط الحمداني هما اهنا للنفس الكريمة من استجداء امثال كافور وان علـــي بن حمدان اذا كـــان قد اصغـــى حينا للوشاة فهو لم يســـيء بشخصه للمتنبـــي اســـاءة تحمـــله علـــى هذا الرحيل غير الحكيم وان سيف الدولة لم يكـــن يستحق ان ينفك عنه المتنبـــي بمثل هـــذه السهولة . ادرك ابو الطيب آخر الامر هذه الحقائق فزفر من اعمـــاق صدره زفرة ضمنها هذا القول الباكي :

عثرت بسيري نحو مصر فلا لعا
بها ولعا بالسير عنها ولا عثـــرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم
واكرمهم طـــرا لا لامهم طـــرا .
فعاقبني المخصـــي بالغدر جازيا
لان رحيلـــي كان عن حلب غدرا

ولم يكن المتنبـــي في هذه الابيات ناطقا الا بما كـــان يحسه في اعمـــاق نفسه ولم تكن هذه الابيات ممثلـــة الا الصورة الصحيحة لما يعتلج في ضميره ولا يمكن ان يقال انه قد قال هذا القول تقربا الـــى سيف الدولة فان الذي لا ريب فيـــه هو ان المتنبي بعد تركـــه مصر قد عول علـى ان لا يعود الـــى حلب وعلـــى ان لا يرجع الـــى سيف الدولة مهما كلفه

الامر ، ولذلك رأيناه لا يجيب دعوة سيف الدولة ويصر على عدم الاوبة متعللا معتذرا ، لانه كان واثقا بان حديث سفره الى مصر ومدحه كافور وخيبته عنده وما مني به من الهوان والضيم سيكون موضع تنادر لخصومه السابقين وسيجدون في كل ذلك ما يغمزونه به في كل ساعة فقد تركهم مستهترا بهم موقنا بنكايته لهم واذا به يعود على اسوا حال لذلك كان من غير المعقول ان يعود المتنبي بعد رجوعه من مصر الى حلب . فهو في ابياته السابقة لم يكن يقصد التقرب الى سيف الدولة بل كان يعبر عن احساسه العميق الصحيح ، لا سيما اذا عرفنا انه لم يظهر هذه الابيات وانها وجدت في رحله بعد قتله

تركت الركائب ضميرا عن ميامنها وفارق المتنبي سيف الدولة وكان الندم الذي تنبأ به ابو الطيب ولكنه لم يكن ندم سيف الدولة بل كان ندمه على ما فوت من ذاك الجوار العزيز . فمنذ الساعة الاولى التي نزل فيها ديار كافور ادرك في قرارة نفسه ان هذه الديار ليست بالديار التي تستطيع أن تغض من ديار سيف الدولة وأنه يوم تعمد ان يأتيها مراغما كان غير موفق في اختياره فتمنى الموت في اول قصيدة ثم تتالت مدائحه فما خلت واحدة منها من التوجع والتألم بل كانت جلها صورا زاخرة بالاسى مفعمة بالهم :

اما تغلط الايام في بان ارى
بغيضا تنائي او حبيبا تقرب

فها هو يذيع بان الايام قد ناءت الحبيب وقربت البغيض ثم يسترسل في ذلك ويزيد مقصده ايضاحا ، ويعلن

عن ذاك الحبيب النائي . ويشير اليه اشارة صريحة :

ولله سيري ما اقل تئية
عشية شرقي الحدالى وغرب
عشية احفى الناس بي من جفوته
واهدى الطريقين التي اتجنب

ويعترف ان من جفاه كان حفيا به ، معنيا بامره وانه قد ضل الطريق يوم هجره وتخلى عنه . وكأنه اراد ان يعتذر عن ذلك وان يذكر ان طموح نفسه وبعد همته قد حملاه على النفرة منه وركوب هذا المركب الوعر فقال :

لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب
فكل بعيد الهم فيها معذب

ثم يعود الى اشجانه ومتاعبه :

الا ليت شعري هل اقول قصيدة
فلا اشتكي فيها ولا اتعتب
وبي ما يذود الشعر عني اقله
ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه
حذائي واشكو من احب واندب
احن الى اهلي واهوى لقاءهم
واين من المشتاق عنقاء مغرب

فنكاد نلمس هذه الاشجان بانفسنا ونكاد نحسها بقلوبنا فما نستطيع الا ان نأسى على هذا الرجل العظيم الذي شاء له الدهر هذا العذاب المرير وما نستطيع الا ان نشاركه النقمة على الزمان واهل الزمان .

وبعد ان يفرغ صبر المتنبي ويوقن ان كافورا انما يخادعه تثور نفسه ثورتها العنيفة ، وتهيج كرامته هيجانها العاصف فيهجو كافورا ذاك الهجاء الخالد الذي امتزج فيه الحزن بالغضب والالم بالاسف والحسرة بالندامة والذي كان فنا فريدا في الادب العربي لا يدانيه فن . وكأن المتنبي بعد هذا الهجاء قد خشي اعتراض المعترضين وتحذلق المتحذلقين وغمز الغامزين فرد عليهم سلفا وقال وما ابلغ ما قال :

وشعر مدحت به الكركدن
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذاك مدحا له
ولكنه كان هجو الورى

ولعمري انه لم يكن اعظم في هجو الورى من ان يقول المتنبي في كافور :

فدى لابي المسك الكرام فانها
سوابق خيل يهتدين بأدهم

وبعد ان امعن في الهجاء واقام الدنيا واقعدها على كافور قال مخاطبا الناس اجمعين :

اخذت بمدحه فرأيت لهوا
مقالي للاحيمق يا حليم
ولما ان هجوت رايت عيا
مقالي لابن آوى يا لئيم
فهل من عاذر في ذا وفي ذا
فمدفوع الى السقم السقيم

اللهم اننا لعاذرون ...

ابن زيدون بين الحياة والشعر

لقد اعتورت حياة ابن زيدون مشاكل سياسية وغرامية كابد فيها عناء جما فكان ينجح حينا ثم يفشل حينا آخر وقد تعاقب عليه هذا النجاح والفشل مرارا عديدة خرج من بينها ابن زيدون الشاعر الفريد .

واذا كان ابن زيدون الرجل لم يفز من دهره بكل ما كان يرجوه واذا كان هذا الدهر قد نغص عليه ساعات الفوز فبينما هو على أريكة الوزارة اذا به في غياهب السجن ، وبينا هو على متع الوصال اذا به على غصص الهجر . اذا كان ابن زيدون الرجل قد لقي في حياته كل هذا فلا ريب أن ابن زيدون الشاعر كان على النقيض من ذلك فقد كان ناجحا جد ناجح وموفقا جد موفق فبمقدار ما كان يصيب ابن زيدون الرجل من هزيمة في الحياة ، كان ابن زيدون الشاعر يسجل نصرا باهرا وفتحا مبينا في الشعر ، وبمقدار ما كان يخبو من ابن زيدون الرجل كان يلمع من ابن زيدون الشاعر .

فهذا السجن الظالم الذي رسف فيه ابن زيدون الرجل بالهوان واحنى من هامته ضراعة وذلا هذا السجن الموحش الذي دفن فيه ابن زيدون حيا فمات قبل الموت وفني قبل الفناء ، هذا السجن نفسه حلق فيه ابن زيدون الشاعر

الـــى الجوزاء ورفع من راسـه الى العلاء ، وهذا السجــن نفسـه خلد فيه ابن زيدون الشـاعر بعد الموت وحيي بعـــد الفنـــــاء .

ولعمــــري ان ما ظفـــر به ابن زيدون الشاعر مـــن الدهــــر ليغفـــر لهذا الدهـــر ما جرعــــه لابن زيدون الرجل غصصا وما البسـه هوانا ، وان ما لهذا الدهـــر من يداي يد على ابن زيدون الشاعر ليمحو ما له من سيــــئات اي سيــئات عند ابن زيدون الرجل وماذا يريد ابن زيدون بعد من دهـــره الذي ظل يشكوه ويهجوه ناقما منه شماسه منكرا عليـــه ظلمــــــه :

فتامـــل كيـــــف يغشـــــى
مقلـــــة المجـــــد النعـــاس
ويفـــت المســـك في التـــــر
ب فيـــــوطـــــى ويـــــداس
فعســـــى ان يسمح الدهر فقد طال الشماس

ماذا يريد منه وقد سمح ولان بعد الشماس فخلق للشـعر العربـــي ابـــن زيدون الشاعر صاحب النونيه العصمـــــاء وحسبه في ذلك منة وفضلا .

ولم يكـــن ابن زيدون في الواقع ليذهب في سوء ظنـــه بدهـــره الـــى ابعد الحدود بل كان يرتجـــي من خـــلال الدياجـــي الحالكة بصيص نور يكشف عنه الضر وكان في كل شكاويه يترقب من الدهـــر احسانا بعد الاساءة :

ان قســـا الـــدهـــر فللمـــا
ء مـــــن الصخـــر انبجـــاس

وهذا الاحسان انمـــا كان يترقبه ويرجوه كرجل ولكن يشاء الدهـــر ان يهبـــه له كشاعر فيكون ارفع قدرا واعظم قيمـــــة .

ولقد كان معظم شعر ابن زيدون وليد ظروفه السياسية او الغراميـــة التـــي تلاعبت به حينا من الدهـــر ووجهته في وجهات شعرية رائعة كانت غنـــاء طورا وبكاء طورا آخر .

فهو باتصاله ببنـــي جهـــور واشتراكه معهم في ثـــورة قرطبة حظي لديهم اي حظوة ووزر لهم ولقب بذي الوزارتين فكان طبيعيـــا وهو الشاعر المجيد ان يمدحهم وهم رؤساؤه واولياء نعمته ومدح الملوك والامراء كانت سنة طبيعيـــة في الشعـــر العربـــي ، واذا كان الشعراء البعيدون عن مجالس الملوك والامراء يتسابقون لمدحهم فان الشعراء القريبيـــن منهم الراتعيـــن في اكنافهم اولى بذلك . وكذلك كان ابـــن زيدون فقد مدح امراء بنـــي جهور بقصائد كثيرة ليس فيها ما يستوقف النظـــر بل جرت علـــى المجرى المعروف عنـــد الشعراء العرب في ذلك الحيـــن من الابتداء بالغـــزل ثـــم التخلص الـــى المدح ووصف الممدوح بالمبالغـــات المتداولـــة التـــي تقال لكل ذي سلطة ونفوذ فهو مثلا يقول في ابـــن جهـــور :

متمرس بالدهر يقعد صرفـــه
ان قـــام في نادي الخطوب خطيبا

ثم بعد ان يغدق عليه كثيرا من امثال هذه الاوصـــاف يشعر بانه قد بالغ علـــى عادة شعراء عصره فيشير الـــى ذلك معتـــذرا :

واذا تفنن في اللسان ثناؤه
فافتن لم يكن المراد غريبا
غالى بما فيه فغير مواقع
سرفا ولا متوقع تكذيبا

ولكننا نستطيع ان نقول له إن ثناءه هذا اذا كان حقيقة غير متوقع في مجلس ابن جهور تكذيبا — ولا شك — متوقع اليوم هذا التكذيب وهو في كل يوم مواقع للسرف .

وعلى هذه الانماط تمضي مدائحه كلها :

ترى الدهر ان يبطش فمنكم يمينه
وان تضحك الدنيا فلنتم لها ثغر

وكما مدح بن جهور رؤساءه الاولين كذلك مدح بني عباد رؤساءه التالين فكانت مدائحه على غرار المدائح الاولى فهو يقول للمعتمد :

اعرض عن الخطرات انك ان تشأ
تكن النجوم اسنة لقناكا

الى غير ذلك من مدائحه في المعتضد والمعتمد ولا ريب ان لابن زيدون في رؤسائه سواء منهم بنو جهور او بنو عباد مدائح صادقة لا يمكن ان تقاس بغيرها فقد كان مصدرها شكران لنعمهم واعتراف بفضلهم فهي تعداد لما اولوه من اياد وتبيان لما غمروه من جميل فهو يقول في بني جهور :

ملوك لبسنا للدهر في جنباتهم
رقيق الحواشي مثل ما غوف البرد
بحيث مقيل الامن ضاف ظلاله
وفي منهل العيش العذوبة والبرد

أليس ابو الحزم الذي غب سعيه
تبصر غاوينا فبان له الرشد
اغر تمهدنا به الخفض بعدما
اقض علينا مضجع ونبا مهد

فهو في هذا القول صادق كل الصدق فان بني جهور في اول عهدهم به رفعوه الى اعلى المناصب واغدقوا عليه اعظم الخيرات فكان مقيل امنه عندهم ضافي الظلال ومنهل عيشه عذب بارد ، ونال لديهم الخفض والدعة .

وكذلك هو ايضا حين يمدح بني عباد يقول للمعتضد :

انى اقوم بشكر طولك بعدما
ملأت يدي من الدنيا يداكا
بردت ظلال ذراك واحلولى جنى
نعماك لي وصفت جمام نداكا
وامنت عادية العدا الاقتال مذ
اعصمت في اعلى يفاع حماكا

وفيما عدا امثال هذه الابيات التي نراها مثبوتة في قصائده المدحية الكثيرة لا نجد في مدحه شيئا جديدا يمكن ان يدل على شخصيات ممدوحيه بل هو مبالغات مبتذلة مكررة تقال لكل ذي حول وطول ولا يشترط فيها الصدق والاخلاص ، ومن الطريف ان ابن زيدون نفسه يعترف بكذبه بمدائحه وانه كان يمدح طمعا ورجاء فاذا انقطع الطمع وذهب الرجاء لم يبق للمدح موضع اما ان يمدح لان الممدوح خليق بالمدح فذاك لم يكن يعرفه هو ولا معظم الشعراء . فانه

بعد ان وقع بينه وبين بنيجهور ما وقع قال مخاطبا ابا الحزم بـــن جهــــور :

قل للوزير وقد قطعت بمدحـــه
زمنا فكـــان السجن منه ثوابي
لا تخشى في حقـــي بما امضيتـــه
من ذاك في ولا توق عتابــــي
لم تخط في امري الصواب موفقا
هذا جزاء الشاعر الكـــــذاب

وكما كان لابن زيدون مدائح في هؤلاء الرؤساء فقـــد كانت له مراثي فيمـــن توفي منهم ومن ينتمـــي اليهم وهذه المراثي لا تنطوي علـــى شـــيء من صدق العاطفة فهي مراث اقتضتها المجاملات والتقاليد يبدؤها علـــى عادة الشعـــراء بالمواعظ والحكم ويتخلص الى المرثي فيصفه بما يقتضـــي المقام ويناسب الحال ، ثم لا يتردد في ان يضيف نفس هـــذه الصفات الـــى مرثي اخر لا نسبة بينه وبين المـــرثي الاول الا نسبة الموت ومن المدهش ان ابن زيدون قد بز غـــيره في هذا الباب فشعراء المراثي يكتفون عادة بترديد المعانـــي الواحدة في كل مرثي لان الهدف مسايرة الظروف لا الاخلاص في العاطفـــة والقول وهذه المسايرة تقتضـــي التهويـــن والمبالغات وسوق المواعظ والحكم عند كل وفاة لا فرق بيـــن شخصيات المتوفين ، وهذا هين في جانب ما اقدم عليه ابن زيدون في هذا الباب فقد فاق في ذلك المتقدميـــن والمتأخرين فانه لم يكتف باعادة المعانـــي وتكرارها بل راح يعيد القصيدة نفسها في اشخاص مختلفيـــن متناقضيـــن مع تغيير ما يجب

تغييره من الفاظ يقتضيها الموقف . فهو مثلا عندما كان يرتع في اكناف بنـي جهور ويعيش في نعمهم كان ملزما عليه ان يرثي امواتهم كما يمدح لحياءهم فماتت لم ابن جهـور فرثاها ابـن زيدون بقصيدة رائية قال في مطلعها :

هو الدهـر فاصبـر للذي احدث الدهر
فمـن شيم الابـرار في مثلها الصبـر

الى اخر التقليد المعروف من دعوة للصبر وتذكير بالموت ثم تخلص الـى للمتوفاة التـي يقول فيها مثلا :

أأنفس نفس في الورى اقصد الـردى
واخطر علق للهدى اهلك الدهر

فام ابـن جهور في هذا البيت هي انفس نفوس الورى واخطر اعلاق الهدى وهي في الابيات الاخرى ذات صفـات لا تقل عـن هذه الصفات وقد كـنا نـرضى مـن ابـن زيدون هذا القول لو انه ثبت عليـه بالرغم مما فيه من الكذب الصراح ولكـن ابن زيدون بعد ان يغضب عليه الجهوريون وينزح الـى اشبيليـة ويتصل ببني عباد ويصفو له العيش في ظلالهم يموت ولـي نعمته الجديد المعتضد ويخلفه ابنـه المعتمـد . والمجاملات هنا تقتضـي الرثاء وانشاد الشعر في المتوفى . وما دامت القضية قضية ظروف مؤاتية ومناسبات موافقة فليرجع الشاعر الـى اوراقه يستخرج منها دفائن المراثي التـي قيلت في حال كهذه وليس اقرب من القصيدة التي نظمها في ام ابن جهور فالمتوفى الجديد امير والمتوفـاة القديمة اميرة ام امير ، وهكذا اخذ ابن زيدون قصيـدتـه في رثاء ام ابن جهور وغير وبدل بعض ابياتها مما لا مناص

من تبديله ، وكان المعتضد ايضا كما كانت ام ابن جهور انفس نفوس الورى واخطر اعلاق الهدى ، ويمضي ابن زيدون بنقل القصيدة كلها مع تبديل اضطراري لبعض الابيات فهو يقول في رثاء المراة الجهورية مثلا :

هنيئا لبطن الارض انس مجدد
بشاوية حلته فاستوحش الظهر
بطاهرة الاثواب قانتة الضحى
مسبحة الاناء محرابها الخدر
حصان ان التقوى استبدت بسرها
فمن صالح الاعمال يستوضح الجهر
يطأطأ ستر الصون دون حجابها
فيرفع عن مثنى نوافلها الستر

وهذا القول لا يمكن ان يقال في رجل والمعتضد لا يمكن ان ينعت بهذه النعوت النسائية البحتة فلا بد من تحوير في مجرى بعض ابيات القصيدة لتأتي مطابقة للمقام وهكذا كان فقد قال في قصيدة المعتضد بدل هذه الابيات :

وابيض في طي الصفيح كأنه
صفيحة مأثور طلاقته الاثر
اعباد يا اوفى الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته الغدر

فمن هذا المثال يتضح ان الرثاء كالمديح في شعر ابن زيدون لم يكن له اية صلة مع قلبه ونفسه ، وعلى ذلك فليست شاعرية ابن زيدون الصحيحة بارزة في هذا النوع من الشعر بل هي بارزة في الناحية الاخرى منه الناحية

التـــي عذبته طويلا فعانـــى اهوال الصدود وغوائل السجن وما الـــى ذلك من مرارات ولوعات وهـــي الناحية التـــي سنعرض لها في مقال اخر

علـــى ان لابن زيدون قليلا من الشعر الرثائي العاطفي الذي قاله في رثاء بعض اصدقائه كقصيدته في رثاء القاضـــي ابـــي بكر بن ذكوان التـــي لا تخلو من عاطفة صادقة وشعور صحيـــح .

غرام ابن زيدون

يقول ابن بسام صاحب الذخيرة في معرض حديثه عن ابن زيدون : (اصبح متيم ذلك الحي وعاشق ولادة لامي . زاد على مجنون ليلى وقيس لبنى) . الى اخر ما قاله ابن بسام على طريقته السجعية المملة .

فمن هي هذه ولادة التي كان لها هذا الدور في حياة هذا الشاعر وكان لها اثر اي اثر في ادبه وطراز عيشه وتفكيره بل هي التي وجهت ابن زيدون هذا التوجيه الوجداني الرائع فحلق فيه ما شاء له التحليق .

ان ولادة هذه هي بنت المستكفي من اواخر الخلفاء الامويين في الاندلس والمستكفي هذا يحدثنا عنه مؤرخ الاندلس الشهير (ابو حيان) فيقول : (لقد اجمع اهل التحصيل انه لم يجلس في الامارة اسقط منه ولا انقص اذ لم يزل معروفا بالتخلف والركاكة مشتهرا بالشرب والبطالة سقيم السر والعلانية ، اسير الشهوة عامل الخلوة ، فلم يكن فيه للخلافة ادنى كفاية وانما ارسله الله على الامة محنة وبلية) .

هذه هي النعوت التي اغدقها ابو حيان على المستكفي ، ولعمري انه لبون شاسع بين هذا الخليفة وبين اولئك الذين رفعوا شأن الاندلس الى الذرا .

اما ابنته ولادة فيقول المؤرخون (انها كانت اديبة

شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الادباء وتساجل الشعراء ، ولقد عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج . وقد ابتذل حجابها بعد نكبة ابيها وقتله فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتجادلهم ويتعشقها الكبراء منهم وكانت على خلق جميل وادب غض) .

ولقد انشطر مؤرخو الادب فيها الى رأيين يقول احدهما بانها كانت مستهترة في حياتها الخاصة كل الاستهتار وانها كانت تكتب على ثوبها ابياتا من الشعر تقول فيها :

انا والله اصلح للمعالي
وامشي مشيتي واتيه تيها
امكن عاشقي من صحن خدي
واعطي قبلتي من يشتهيها

ويقول الرأي الاخر على عكس هذا القول ، وانها كانت على الرغم من تبذل مجالسها عفيفة مصونة ، وكانت علاقاتها بريئة لا تتعدى المطارحات الادبية والمساجلات الشعرية .

وقد ألمح ابن بسام صاحب الذخيرة الى ذلك فقال في معرض حديثه عنها : (على انها سمح الله لها وتغمد زللها طرحت التحصيل واوجدت الى القول فيها السبيل لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها) .

ويقول احمد زكي باشا ان المؤرخين اجمعوا على عفتها وصونها . ودعوى الاجماع هذه دعوى غريبة فان قول ابن بسام وهو اقرب المؤرخين الى عصرها واكثرهم معرفة بدقائق الامور هناك

يناقض قوله كل المناقضة بل ان ابن بسام يتهمها صراحة وان كان اراد ان يجيء بالتهمة ناعمة رقيقة ولكنها على كل حال تهمة !

ونحن لا نستطيع ان نؤمن بهذا الاجماع على صونها . ومن العسير علينا ان نذهب معه الى ذاك الحد بعدما عرفنا عن مجالسها ونواديها . وكيف يريدنا على ذلك وابن زيدون محبها المفتون وعاشقها الموله لا يتردد بالاشارة الى ما كان بينه وبينها والى ما صار بينها وبين مزاحمه ابن عبدوس بعد هجرها له :

لقد قالوا ان ولاده اعرضت عن ابن زيدون حينا من الاحيان ومالت الى مزاحمه ابن عبدوس وكان يلقب (بالفار) فقال ابن زيدون في ذلك :

اكرم بولادة ذخرا لمذخر
لو انها فرقت بين بيطار وعطار
قالوا ابو عامر اضحى يلم بها
قلت الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بان قد صار يخلفنا
فيمن نحب وما في ذاك من عار
اكل شهي اصبنا من اطايبه
بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار

وفي هذا القول ما فيه وما كان ابن زيدون ليقوله لولا انه يعلم من الامر ما يعلم ، وما كان ابن بسام ليقول ما قال لولا ان ذلك كان معروفا ومشهورا .

وعلـــى كل فنحـــن لا يسعنا الا ان نقول مـــــع ابـــن بسام : (سمح الله لها وتغمد زللها) .

اما حب ابن زيدون لها فقد بلغ حده الاقصى وعاد تدلها وشغفا فقد علقها علـــى اعنف ما يعلق المحبون فكان ذلك سبيلا لاذكاء عاطفتـــه واشعال قريحتـــه فجاءنا برائق الشعر وخالد القوافي ، وبرز في ذلـــك ما شاء له التبريز . ولقد كان لهذا الحب العميـــق فضل اي فضل علـــى ادب ابن زيدون وشعره فقد احـــب ونجح ثم فشل ثم نجح وقد تداوله هذا الفشل والنجاح فكان بينهما القيثارةالعامرة تشجي النفس وتهيج القلب اذا ناحت واذا شدت ، فهو طورا شاد طروب يهتف :

مـــا للمدام تديـــرها عينـــاك

فيميـــل من سكـــر الصبا عطفاك

هـــلا مزجت لعاشقيـــك سلافها

ببرود ظلمـــك او بعذب لمـــاك

وها هو طورا باك حزين ينشد :

انا قرانا الاســـى يوم النوى صورا

مكتوبة واخذنا الصبر تلقينـــا

لا اكؤس الراح تبدى من شمائلنا

سيما ارتياح ولا الاوتار تلهينـــا

او ينشـــد :

يـــا نازحا وضمير القلب مثواه

انستك دنيـــاك عبدا انت دنيـــاه

الهتـــك عنه فكاهات تسر بهـــا

فما تمـــر ببال منـــك ذكـــراه

عل الليالـي تبقيني الـى أمل
الله يعلـم والايـام معنـاه

او ينشـد :

يـا دمع صب ما شئت ان تصوبـا
ويـا فـؤادي آن ان تـذوبا
اذ الرزايـا اصبحـت ضروبـا
لـم ار لـي في اهلـها ضريبـا
قد مـلأ الشـوق الحشـا ندوبا
في الغـرب انرحـت به غريبـا
عليـل دهـر سامنـي تعذيبـا
ادنـى الضنا اذ ابعـد الطبيبـا

احب ابن زيدون ولادة فبادلته حبا بحب وما ندري هل صدقت في حبها واخلصت في هواها ؟ ولكننا نعرفه هو محبا صادقا لا يصدف عنها ولا تزيده الايام الا هوى وصبابة . اما هـي فقد سايرته حينا واعرضت حينا اخر ، فقد نال في اول الامر رضاها ووقع من نفسها ووقعت من نفسه وكانت بينهما مزاورات وجلسات . وقد كتبت اليه يوما تضرب له موعدا :

تـرقب اذا جـن الظلام زيارتـي
فانـي رايـت الليـل اكتم للسـر
وبـي منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسـر

وما ندري مقدار ما هذا القول من صدق العاطفة وهل كانت حقا شغوفة به الـى هذا الحد ام انه الشعر ونوازع النفس ، واننا لنشك كل الشك ان يكون بيتها الاخير معبـرا

عـــن حقيقة ما يختلج في قلبها لابن زيدون وان كانت سايرته الـــى حد ما فما نظنها كانت مخلصة لانه كان لابن زيدون شركاء في ذلك القلب الذي ما نحسبه عرف الهوى الصحيح الخالص ، وقد كانت بينهما مراسلات كثيرة وقد كتبـــت اليه ايضـــا :

الاهل لنا من بعـــد هذا التفرق
سبيل فيشكو كل صب بما لقـــي
الـــى ان قالت :
تمـــر الليالي لا ارى البين ينقضـــي
ولا الصبر من رق التشوق معتقي
سقـــى الله ارضا قد غدت لك منزلا
بكل سكوب هاطل الوبل مغـــدق

ولا شك ان في هذه الابيات عاطفة جياشة ولكننا نحسبها عاطفـــة بنت ساعتها اثارتها ذكرى عذبة حلوة ولو كانـــت صادقة مخلصة لما رأيناها ترتمـــي علـــى خصمه ابـــن عبـــدوس .
بلـــى لقد فاز ابن عبدوس حينا بولادة واقصـــى عنها ابن زيدون فوقع ذلك من نفسه امر الوقع لانه كان محبـــا مفتونا فعمل جهده علـــى اقصائها عنه وتفنن ما شاء التفنن وتفتحت قريحته علـــى ضروب من النظم والنثر جد رفيعـــة فكتب اليه رسالته الهزلية الشهيرة علـــى لسان ولادة وقـــد عبث فيها به اي عبث ، فاشتهرت هذه الرسالة في المشـــرق والمغرب وشرحها الكثيرون شروحا مختلفة ، كما انه ارسل اليـــه قصيدة قال فيها :

وغـــرك مــن عهـد ولادة
ســراب تــراءى وبــرق ومض
تظــن الــوفاء بهــا والظنــو
ن فيـها تقـبول علي من فرض
هــي الماء يأبى علــى قـابض
ويمنــع زبــدته مــن مخـض
ونبنتهــا بعــدي استحمــدت
ســيري اليـك لمعنــى غمــض
ابــا عامر عثــرة فاستقــل
لتبــرم من ودنــا مـــا انتقض

ولقد جاء قول ابن زيدون مصداقا لما قلناه عن الشك في اخلاص ولادة في حبها وبيته (تظن الوفاء) والذي يليــه يعبران عن ذلك احسن تعبير . ولقد وقعت رسالــة ابــن زيدون علــى ابن عبدوس وقعا مرا امسك معه ابن عبدوس عــن التعرض لولادة الى ان انتقل ابن زيدون من قــرطبة الــى اشبيليــة .

ولم يكن ابن عبدوس المزاحم الوحيد لابن زيدون على ولادة بل كان له مزاحمون آخرون اشهرهم ابو عبــــد الله البطليموســي وقد كتب اليه ابن زيدون كمــا كتب الى ابن عبــــدوس .

ومن العجيب ان ابــن زيدون بالرغم مما كان يــراه من تقلب ولادة وبذلها الــى خصومه كان لا ينفك عن التعلــق بهــا بل كان ذلك يزيده ولها وشغفا . وفي الواقع فان هذا الحــب قد خلق ابن زيدون خلقا جديدا وكان اثره كبيرا في

مناحيه الشعريـــة ورفعـــه الى تلك المنزلة بين الشعراء .

ولا ريب ان الالم اذا حل بالشاعر الحساس يذكـــي قريحته فتفيض بكل نفيس ثميـــن فلولا الم المتنبـــي النفسي مثلا لما جاء بالروائع الخالدات ولولا شجونه لما انشد تلك الميمية العصمـــاء في حضرة سيف الدولة ولا وسم كافورا بداليـــته الغـــراء .

ولولا الاسر لما راينا روميات ابي فراس الحمـــدانـــي الرنانة ، وبالتالـــي لولا هذا الحب العنيف والهجر الطويل ، والفراق المديد لما تمتعنـــا بروائع ابن زيدون فكانت غـــذاء لارواحنـــا وسميرا في اشجاننا وعزاء في شدائدنا بل لما كان للادب العربـــي تلك النونية الساحرة التـــي لم تستطع حتى اليـــوم قصيدة عربيـــة ان تزاحمها .

صحافيو الماضي

اذا كانت العصور الماضية لم تعرف الصحافة فانها عرفت مظهرا من مظاهرها كان يسد الفراغ الذي تملؤه الصحافة اليوم ان من ناحية الخير او ناحية الشر ..

وما دامت الدعامة الاولى للصحافة هي (الكلام) وحسن استخدامه في الدفاع والهجوم والترهيب والترغيب، فان الاقدمين الذي عرفوا من الكلام افانين عجيبة استغلوها في التاييد والخذلان والمدح والقدح هم كصحافيينا اليوم سواء بسواء ، فقد كان لكل جماعة لسان يدفع عنها ويدعو لها ، ولكل فكرة فم يشيد بها ويزري بخصومها ، ولكل حكومة مؤيدون ومعارضون ، وبين هؤلاء وهؤلاء من يؤيد او يعارض عن عقيدة ومن يفعل ذلك مأجورا فيؤيد فلانا في الحكم ثم يتجنى عليه بعد الحكم ، وينصر عقيدة منتصرة ثم يخذلها اذا انهزمت !. اي ان الامر بالامس كان كما هو اليوم تماما ..

لقد كان الشعراء في الماضي مكان الصحفيين في الحاضر ، فلا بد للحاكمين من دعاية ولا بد للطامعين بالحكم من دعاية ولا بد للثائرين من دعاية ولا بد لكل حزب ولكل فرد من دعاية ، وافضل الدعاة هم الشعراء فان لهم من اساليب الكلام ما ليس لغيرهم ولكلامهم من الاثر ما ليس لاحد ، وقد كانوا يعرفون لانفسهم هذه القيمة فيستغلونها

امضى استغلال ، فمن لم يكن له فكرة خاصة او بالاحرى من لم تكن تهمه الفكرة الخاصة كان يبيع نفسه غاليا فيذ على القصائد الوف الفتانير ويعيش عيشة الاثرياء المنعمين، وهو لا يجد اية غضاضة في ان يذم اليوم من مدحه البارحة ولا ان يفعل العكس ما دام في ذلك مورد رزق ومنبع مال .

ومن كان ذا عقيدة في المدح والذم وهم قليلون كانوا يعارضون الحكم القائم معارضة عنيفة ينالهم بسببها انواع الاذى ولكنهم يصمدون في الميدان حتى النفس الاخير ، وبعضهم كان يعارض يائسا فهو لا يأمل ابدا ان تحكم جماعته ولكنه مؤمن بهذه الجماعة فهو يتحمل كل شيء في سبيلها .

وكما يتعرض الصحافيون اليوم للاعتداء عليهم بالضرب والجرح احيانا فكذلك كان حال الشعراء . ولكن الامر على كل حال لن يصل الى الحد الذي كان يصل فيه مع الشعراء فان اعداءهم لم يكونوا يرضون لهم باعتداء بسيط بل كانوا يطلبون ارواحهم ويفوزون بهذه الارواح . وكلنا نعلم ان شاعر العرب العظيم (المتنبي) قضى بسيف (فاتك الاسدي)وكذلك كان حال ابن الرومي ودعبل الخزاعي وغيرهم ممن شعراء الجاهلية والاسلام .

ولم يكن هؤلاء الشعراء يصطنعون الجد دائما فكما ان في الصحافة اليوم صحافة جدية وصحافة هزلية وصحافة تمزج الجد بالهزل فكذلك كانوا ، وكما ان في الصحفيين من يرى (الكاريكاتور) افضل الوسائل في التعبير عن المقصود فيصور خصومه صورا مضحكة فكذلك كان في الشعراء من يصور الخصوم بأمتع الصور الكاريكاتورية فيخزيهم ويعود عليهم بسوء القالة . واني في هذه الكلمة

سأعرض لصورة او لصورتين مما يخطر على البال الان على ان اعرض في كلمة اخرى لشاعر معارض عنيد كانت وسيلته الوحيـدة في محاربة (الحكومـة) ورجالهـا الصـور الكاريكاتورية العجيبة التـي كان يضحك لها ويعجب بهـا حتـى انصار الحكومة انفسهم .

فمـن الصور اللطيفة تلك الصورة التي رسمها احد الشعراء لامير اسود اللون كان يكرهه الشاعر ويحاربـه فرآه مرة علـى منبر الخطابة وقد لبس علـى جسمه الاسود ثوبا ابيض لم يظهـر منه الا يداه ووجهه فتأمله مليا وانشد :

ترى منبـر العبد اللئيم كأنما

ثلاثة غربـان عليـه وقـوع

ومنها قول الشاعر فيمـن اسمه (عمرو) ويظهـر ان حال عمرو هذا كان كحال من تظاهروا في الزمن الاخـير بالايمـان بالعروبة والوطنية بعد ان كفروا بهما وحاربوهما طوال حياتـهم :

ارفق بنسبة عمرو حيـن تنسبه

فانـه عربـي من قواريـر

وكم فينا اليـوم من هم عرب من قوارير !..

ولعل مما يلحق بهذا الباب قول ذاك الشاعر الـذي هجا محمد بـن يزيد الثمالـي وقبيلته ثمالة بقوله :

سألنـا عـن ثمالـة كل حـي

فقـال القائلون ومـن ثمالـه

فقلـت محمـد بـن يزيد منهم

فقالوا زدتنـا بـهـم جهالـه

ادبـــاء أنتهازيون وآخرون مبعدون

هذه النقمة العارمة علـــى الظلم الاجتمـــاعي ، وهذه الاقلام الفاضبة لما تعانيه الكثرة الكاثرة من حرمان وعقوق واهتضـــــــام .

هذا الغليـــان الذهنـــي التي تتفجر به اقلام الكتاب بيـــن الحيـــن والحيـــــــن .

هذه النقمة وهذا الغضب وهذا الغليان له اشباه في ماضينـــا الادبـــي في كل عصر ، ومن المؤسف ان تاريخنـــا هو تاريخ ملوك وجبابرة ومتسلطين ، لا تاريخ شعب وعباقرة وكادحين ، لذلك ضاعت اصوات الشعب وصرخات المحرومين في غياهب الاهمال ، ولم تصلنا منها الا همسات حفظتهـــا صحف التاريخ لا عمدا ولا قصدا ، ولكن صدفة وعرضا !

فالذيـــن كانوا يكتبون ويدونون كانت تند من اقلامهم جمـــل قد تقصر وقد تطول ، ولكنها في قصرها وفي طولهـــا تشير الـــى ان الشعب كان يحيى غير حياة البذخ والتـــرف التـــي كان يحياها الحكام ومن مت اليهم بصلة او سبب . وان السواد الاعظم كان يكابد في سبيل العيش اشق الاهوال وان رجال الفكر والقلم كانوا بيـــن مدلس متزلف وصولي لا يبالـــي في سبيل الثروة ان يركب كل مركب ، وبين ابي كريم لا يتنزل الـــى دركات الهوان ، فكان حتمـــا عليـــه ان يعيش

عيش الفقـــر ، ويحيـــى حياة الضنك !.

وقد كان لكل ذلك صدى في اقلام الكتاب والشعراء ، ودوي في آفاق الادب تتصادم فيه الافكار وتتناقض الدعوات

والمتتبـــع يجد الكثير من هذا القبيل ، ولعل ما حدث قبل ثمانية قرون بيـــن ابـــن ابـــي حصينة المعري وبيـــن مواطنه ابـــن الزويدة المعري قريب مما نراه يحدث اليوم .

فقد كان ابن ابي حصينة شاعرا اديبا ، ولكنه آثر طريـــق الوصولييـــن الانتهازيين فسعـــى بكل جهده ليكون امـــــيرا فخريـــا فكان له ما اراد بعد ان تذلل بالشـ مر وتضرع وبعد ان اكثر من مثل قوله :

اشنا عداكم واهوى ان ادين لكم

فللعدى دينهم فيكم ولي دينـــي

ثم شجعه وصوله الـــى الامارة الفخرية التـــي لـــم يكن له منها الا اللقب ، شجعه ذلك الـــى الوصـــول الـــى الامارة الفعليـــة بعد الامارة الفخرية ، فقال مثل هذا القول:

ابـــا صالح اشكو اليـــك نوائبـــا

عرتني كما يشكو النبات الى القطر

فهب هبـــة يبقـــى عليـــك ثناؤها

بقاء النجوم الطالعات التي تســـري

فوهبت له الاراضـــي والاموال ثم ولـــي الامـــــارة وشـــارك في الحكـــم .

ولم ير الادباء في نجاح زميلهم مغنمـــا بل عـــــدوه منقصة فنقموا عليـــه طريقه التي سلكها ، وصدف ان توصل الـــى الدخول في الجندية رجل يصفه المؤرخون بانه « مـــــن

رعاع الناس واسافلهم » وكان يلقب بالزقوم ٠ فصار شيئا يذكر في المعرة فقال ابن الزويدة المعري :

اهل المعرة تحت اقبح خطة
وبهم اناخ الخطب وهو جسيم
لم يكفهم تأمير ابن حصينة
حتى تجند بعده الزقوم
يا قوم قد سئمت لذاك نفوسنا
يا قوم اين الترك ؟ اين الروم ؟.

ولما شاعت الابيات وانتشرت ذهب الامير ابن ابي حصينة الى بيت ابن الزويدة يعاتبه ، فقال له ابن الزويدة: الان كان عندي الزقوم ، وقال لي : ان اعظم ما نالني من هجوك هو انك قرنتني بابن ابي حصينة !. فقال ابن ابي حصينة : هذه اشد علي من هجوك !.

على ان هذا الشاعر الانتهازي الوصولي لم يلبث ان وقف مواقف طيبة فرثى ابا العلاء المعري بقصيدة مؤثرة مطلعها :

العلم بعد ابي العلاء مضيع
والارض خالية الجوانب بلقع

ومما يمكن ان يذكر في هذا الموضوع قصة الحسن بن صافي الذي لقب نفسه (ملك النحاة) لتخصصه بعلم النحو، فقد كان يرى انه وهو من رجال الفكر ، منكور الفضل محروم النعمة فصدف ان الامير نور الدين محمود خلع عليه خلعة سنية ونزل ليمضي الى منزله فرأى في طريقه حلقة عظيمة فمال اليها لينظر ما هي ، فوجد رجلا

قد علم تيسا استخراج الخبايا . فنما وقف عليه ملك النحاة ، عرفه الرجل فقال لذلك التيس : ان في حلقتي رجلا عظيم القدر شائع الذكر ، ملك في زي سوقة ، أعلم الناس واكرم الناس واجمل الناس فارني اياه !..

فشق ذلك التيس الحلقة ومضى حتى وضع يده على ملك النحاة !.. فلم يتمالك ملك النحاة ان خلع تلك الخلعة ووهبها لصاحب التيس ، فبلغ ذلك نور الدين فعاتبه ، وقال استخففت بخلعتنا حتى وهبتها لمثل ذلك الرجل .. فقال : يا مولانا عذري في ذلك واضح لان في هذه المدينة زيادة على مائة تيس ، ما فيهم من عرف قدري الا هذا التيس فجازيته على ذلك .

فضحك منه نور الدين وسكت .

هذه ملامح من حياة الادباء والمفكرين في تلك العصور، ومن يحاول استقصاء ذلك يجد لها كثيرا من النظائروالامثال .

الوزير المهلبي

بعض الوزراء الادباء في عصرنا القديم كانوا كالواحة الخضراء في صحراء الحكم الجديب ، فالحكم الذي لم يكن يصله بالشعب الا ما يستطيع ان يستغل به هذا الشعب والحكم الفردي الاستبدادي الذي هان فيه الناس بدمائهم وكراماتهم واموالهم ، هذا الحكم المظلم كان يومض حينا بخيط من النور تقر به العيون وتطيب النفوس ..

الفقير المعدم

فالوزير المهلبي الحسن بن محمد الذي كان اديبا شاعرا رقيق الحاشية ، والذي مضى في يوم من الايام قبل الوزارة في رحلة فاشتهى اللحم فلم يقدر على نيله فقرا وفاقة فقال يائسا :

الا موت يباع فاشتريه
فهذا العيش ما لا خير فيه
الا موت لذيذ الطعم يأتي
يخلصني من العيش الكريه
اذا ابصرت قبرا من بعيد
وددت لو انني مما يليه

الا رحـــم المهيمـــن نفس حــــر
تصدق بالوفاة علــــى اخيـــه

فهز الشعـــر اريحيـــة مسافر في الركب فاشترى له لحمـــا بدرهم وطبخه واطعمه .

هذا الشاعر المعدم حين ولـــي الوزارة في بغداد ، كان كالنبتة الغضة في الرمضاء الوقيـــدة .

حــــوار

فاذا جلس في شهر رمضان والزمان صائف والحر لافح في بلد كالاهواز تنضج حرارته الجلود ، فيلوذ الوزيــــــر ونداماه بمــــا يلطف هواءهم ويلطف اجسادهم من وسائل ذاك العصر(١) حتـــى اذا سمع صوت رجل ينادي على الناطـــف يقول الوزيـــر لجليسه القاضـــي ابـــي بكـــر بن عبـــــد الرحمـــن بن خزيمة : اما تسمع ايها القاضـــي صوت هذا البائس في مثل هذا الوقت والشمس فوق رأسه وحرهـــا تحت قدميــــه ونحـــن نقاســـي في مكاننا هذا البارد مـــــا نقاسيـــه مـــن الحـــر ؟

ثم يأمر باحضار المنادي فيرى امامه شيخا ضعيفا عليه قميص رث وهو بغير سراويل وفي رجله تاسومة مخلقة وعلى رأسه مئزر ومعه نبيخة فيها ناطف لا تساوي خمسة دراهم . فيكتئب الوزير للمشهد الذي كان في الحقيقة صورة الشعب ولكـــن الوزير مع اكتئابه وحنانه يحسب ان الناس يملكـــون من اوقاتهم مثل ما يملك ، فيختارون الساعة التـــي فيهـــا

١ ــ يقول راوي الخبر : ... (ونحن في خيش بارد) والخيش : نسيج من الكتان كان يعلق في مجاري الهواء ويرش بالماء فيبرد ما وراءه .

يعملون والساعة التـــي فيها يقيلون ، يحسب ذلك وينسى لطول ما عرفه من النعيم ان البؤساء لا خيار لهم فيقـــــول للشيـــخ :

الم يكـــن لك ايها الشيـــخ في طرفـــي النهار مندوحة عـــن مثل هذا الوقت ؟ فيتنفس الشيخ ويجيـــب بـــاروع جواب واشجاه : ما اهون علـــى الراقد سهر الساهد . ثم ينشــــــد :

ما كنت بائع ناطف فيما مضى
لكن‌قضت لي ذاك اسباب القضا
واذا المعيل تعذرت طلباتـــــه
رام المعاش ولو على جمر الغضا

يهتـــز للشعـــر

وهنا يذهل الوزير عـــن الموقف كله ولا يذكر الا انـــه اديب شاعر ، وان بيـــن يديه من ينطق بالشعر بعـــد ان اجاب باحســـن النثر ، فلا يسال الناطفـــي عما الجاه الـــى حرفتـــه وساقه الـــى طيته ، بل يسأله : اراك متأدبا فمـــن اين لك ذلك ؟ فيجيبه الرجل : اني ايها الوزير من اهـــل بيت لم يكن فيهم من صناعته ما ترى ..

فيهب الوزير للرجل مائة دينار وخمسة اثواب . ويجعل له ذلك رسمـــا في كل عـــام .

الصاحب القديـــم

اما صاحبه الذي اعانه علـــى القرم فوهب له درهم

اللحم ، فقد ناله الدهـــر هو الاخر بسياط الحاجة ولما علم بما صار اليــه حال الرفيق القديم ، مضـــى الى بابه وجعل وسيلتـــه اليـــه الشعر فكتب اليه رقعة فيها :

الا قل للوزير فــدته نفســـي
مقـــال مذكـــر ما قـــد نسيه
اتذكـــر اذ تقول لضنـــك عيش
الا موت يبـــاع فـــاشتـــريه ؟

لقد تذكر الوزير فدعا بصاحب العسرة ، بعد ان وقـــع في رقعتـــه : (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبـــة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) ونفذ منطوق الاية فوهبه عوض الدرهم سبعمائـــة درهم ، ثم ضاعف له فخلع عليـــه ، ثم زاده فقلـــده عمـــــلا يـــرتفـــق بـــه .

انـــي لعلـــى يقيـــن بان ألمعية الشعر التـــي توسل بها السائل هـــي التـــي هزت المسؤول ، فلو لم يكن الوزير اديبا لاعيت السائل الوسائل التـــي يثير بها في المسؤول ما همـــد مـــــن ذكـــرياتـــــه ، لقـــد كـــان امـــره حتمـــا سيكون امر ذاك الاخر الذي نسيه الرفيق القديـــم حيـــن اناله الدهـــر ما كان يروم ، فلم يجد بدا من ان يقول:

قل للوزير ادام الله دولتـــــه
اذ كرتنا ادمنا والخبز خشكار
اذ ليس في الباب بواب لدولتكـــم
ولا حمار ولا في الشط طيـــار !

تطـــور حيـاتـه

ولد ابو محمد الحسن بن محمد الذي اشتهر باسم الوزيــر المهلبــي سنة ٢٩١ هـ في البصره وعاش حتى سنة ٣٥٢ . وبدأ حياته فقيرا حتى استطاع بكفايته ان يكون وزير بغداد ومدبر الحكم فيها لمعز الدولة البويهـي ولم يطغه الحكم ولم يصرفه في كثير من الحالات عن تحسس حياة الشعبوايثار ذوي المواهب وازالة المظالم، فقد كان مشدودا الـى ماضيه فاستحق ان يصفه ابـن الاثير : « فاحسن السيرة وازال كثيرا من المظالم خصوصا بالبصرة فـان البريديين كانوا قد اظهروا فيها كثيرا من المظالم فازالها » .

المفتـــش

لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه الى (التفتيش) ليعرف حقيقة ما يجري خارج العاصمة فتجول في البلاد على ما يصف ابن الاثير : «فتنقل في البلاد لكشف ما فيها من المظالم وتخليص الاموال » وهذا شـيء فريد يقوم به حاكم في تلك العصور اذ يجعلمن نفسه (مفتشا) جوالا يفاجىء الاداريين في مراكزهم ، ويعرض نفسه علـى الناس ليتقدم اليه ذوو الشكـــاوى ...

علـى ان خير ما وصفه به ابن الاثير قوله : « وقرب اهل العلم والادب واحسن اليهم » . وهذا التقريب والاحسان جعل شاعرا كالحسيـن بـن الحجاج ، يرثيه بعد وفاتـه رثاء لا يدفعه اليه الا الوفاء بل انه رثاه وهو يخشـى الانتقام ويتوقع العقاب لان الامر كان قد فسد بينه وبيـن ولاة الامور

فمات وهم غير راضين عنه . فلما مات قال ابن الحجاج:

يا معشر الشعراء دعوة موجع
لا يرتجى فرج السلو لديه
عزوا القوافي بالوزير فانها
تبكي دما بعد الدموع عليه
مات الذي امسى الثناء وراءه
وجميل عفو الله بين يديه
هدم الزمان بموته الحصن الذي
كنا نفر من الزمان اليه
وتضاءلت همم المكارم والعلى
وانبت حبل المجد من طرفيه

والواقع ان في هذا الرثاء دلالة خاصة فهو ليس رثاء تقايديا كالذي عرفناه من منظوم الشعراء . ذلك اولا: لان الراثي لم يكن يرجو شيئا بل كان يعرض نفسه لنقمة السلطان فضلا عن انه لم يكن للمرثي اهل يتقرب اليهم الرائي بالرثاء ، بل ان ابنه الصبي كان قد اخذ فور وفاة والده وصودر هو ووالدته كما اخذ اهله واصحابه وحبسوا . ثم هذا التفجع المخلص والتوجه بالخطاب الى من يعتبرون المفجوعين الحقيقيين به وهم الشعراء ، ثم الاقرار بانه كان ملجاهم الذي اليه يفرون من الزمان . واذا كان غيرهم من المتسلطين لم يقصروا في اغداق المال على الشعراء المادحين فالفرق بينه وبينهم كما يعرضه لنا ابن الحجاج ، ان الشعراء كانوا يبيعون لغير المهلبي كرامتهم حين يقبضون المال ، اما هو فقد كان يصون لهم تلك الكرامة .

واذا كان هذا حال الشعراء ، فحديث ابـــن الاثير يدل علـــى ان حال العلماء كانت الحال نفسها . فلم يكــن العلماء بحاجة لشـــيء كحاجتهم لذي سلطان يقربهم تقريبا لا يبغـــي منه الا صيانـــة العلم وحملته . ولذلك رأينـــا الخليـــل بـــن احمـــد يرفض دعوة المتسلطيـــن مع فقـــره وفاقته لانه يدرك ان لها اهدافا لا تطيقها نفسه الكريـــمة . ورأينا المهلبـــي يوصف بتقريب اهل العلم والادب .

المســرف

علـــى ان هذا العاطف علـــى الفقراء الحاني علـــى البؤساء المقرب للعلماء والادباء ، كان لا ينســـى انه هـــو الاخـــر متسلط كالمتسلطين فيسرف اسرافا فاحشا كهـــذا الذي تحدث عنـــه في معجم الادباء قائلا : وحدث القاضـــي ابو علـــي التنوخي قال : شاهدت ابا محمد المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة ايام ورد بألف دينار ، فرش به مجالس وطرحه في بركة عظيمةكانت في داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه ، وبعد شربه عليـــه وبلوغه ما اراد منـــــه انهبـــــه ..

ولا شك ان هذا السرف واشباهه هو الذي اضطـــر الشيـــخ البائس الـــى الخروج حمـــارّة القيظ مناديـــــا على الناطف وان الامر كما قال علـــي بن ابي طالب عليـــه السلام : ما رايت اسرافا الا كان وراءه حق مضيع .

شعـــــره

كان المهلبـــي اديبا موهوبا وله شعر جيد لا يتجـــاوز

المقطوعات الـــى القصائد ، وجله شعر ترف تتمثل فيــه حيـــاة المجتمـــع الثري الخلـــي ، وتبدو فيه احيانا روح عدم المبالاة بالشؤون العامة اذا تحققت الامنيات الخاصة ، مما كان طبيعةالحكم منذ اليوم الذي استحال فيه حكم الاسلام الـــى حكم فردي استبدادي مطلق تسخر فيه كل امكانيات المجتمـــع لمصالح الطبقـــة الحاكمة وحدها . ولعل في شعر هذا الحاكم أفضل صورة لحال الحكام منذ العام ٤١ الهجري الـــى عهده وما بعد عهده :

اذا تكامل لي ما قد ظفرت بـــه
من طيب مسمعة او ظرف نـــدمان
وقهـــــوة لو تراها خلت رقتهـــا
ديني وحافز من ان شئت غناني
فمـــا ابـنـــي بمـــا لاقـــى الخليفة من
بغـــي الخصـــي وعصيان ابن حمدان

ومن الطريف ان سريـــة من الجند جهزها معــز الدولة لقتال بعض بنـــي حمدان ، وناط قيادتها بمملوك تـــركـــي جميـــل .فلم يثر اهتمـــام الوزير الشاعر من كل ذلك الاجمال القائد فقال فيه :

طفل يـــرق المـــاء فـــــي
وجنـــاتـــــه ويـــــرق عوده
ويكـــاد مـــن شبـــه العـــذا
رى فيـــه ان تبـــدو نهـــوده
ناطـــوا بمعقـــــد خصـــره
سيفـــا ومنطـــقة تـــــؤوده

جعلـــوه قــائد عسكـــر
ضــاع الرعيــل ومن يقــوده

وصح ما تنبأ به فكانت الهزيمة نصيب القائد الجميل . وقد مرت ابياته التــي تمنى فيها الموت لما يكابده مــن الفقر والخمــول ، وهذه ابيات اخرى نظمها في عهده الاول محروما ضعيفا ، وهــي تصف حجرة له كان يسكنــها . ويتحــدث هو نفسه عمــا كان عليــه وكانت عليه تلـــك الحجرة فيقول : ... فاصبحت يوما وقـــد جاء المطــر وازدادت الحجرة اظلاما وصدري بها ضيقا فقلت :

انا في حجرة تجل عن الوصف ويعمى البصير فيها نهارا
هي في الصبح كالظلام وفي الليل يولي الانام عنها فرارا
انا فيها كأننــي جوف بئـــر
اتقــي عقربــا واحذر فــارا!
واذا ما الريــاح هبت رخـــاء
خلت حيطانهــا تميد انتشـــارا!
رب عجل خرابها وارحنـــــي
من حذاري فقد مللت الحــذار

وهذا الذي يقول هذا الشعر اليائس الكئيب في يــوم مطر ، يقول من بعد في يوم مطر آخر جاء لا بالمطر وحده ، بل بالثلــج بعد المطــر :

الورد بيــن مضمخ ومضــرج
والزهر بين مكلــل ومتــــوج

والثلــج يهبــط كالنثار فقم بنا
نلتــذ بابنــة كــرمة لم تمــزج
طلــع النهار ولاح نور شقائق
وبدت سطور الورد تلو بنفســج
فكان يومك في غلالة فضـــة
والنبت من ذهب علــى فيروزج

وهكذا بعد الحديث عــن العقارب والفئران يعــود الحديث عــن البنفسج والفضة والفيروزج . وبعد الاكتئاب بالغيــوم وما تدجي من الحــجــرات يعود الامر الـــى الانبساط بتلــك الغيــوم وما توحــي من الخيــال الطلق المـــرح :

ويوم كان الشمس والغيم دونهــا
حجاب بــهصينــت فمــا يتهتــك
عروس بدت في زرقــة مــن ثيابها
يجللها فيــها رداء ممســـك

علــى ان هذا الذي كان قد وصل الــى مطامحه من الحياة ، وظفر بكل المنى فقال :

لقد ظفرت والحمــد لله منيتــي
بما كنتاهوى في الجهارة والنجوى
وشارفت جــري الشمس فيما ملكته
من الارض واستقررت في الرتبة العليا

عاد وهو في قمة ظفره وذروة امانيه يقول :

اشكو الــى الله احداثا من الزمن
يبرينني مثل بري القدح بالسفــن

لم يبق بالعيش لـــي الا مرارته
اذا تذوقته والحلو منـــه فنـــــي
يا نفس صبرا والا فاهلكـــي جزعـــا
ان الزمان علـــى ما تكرهيـــه بني

لا تحسبـــي نعمـــا سرتك صحبتها
الا مفاتيـــح ابواب الـــى الحزن

هكذا يؤكد لنا ان الظفر الحقيقي ليس هو الظفر بالمنى المادية التـــي ليست الا بهارج زائفة لاغناء فيها عند النفوس الطـــامحـــة الـــى الرســـالات .

ومن العجيب ان هذا الذي تمنـــى الموت فقرا وخمولا ، يتمنـــاه اليـــوم غنـــى واشتهارا فقد كتب الـــى بعـــض الرؤساء(١) بيتين يرى بعضهم انهمـــا له ويرى اخرون انهما لابي نواس ، وانه ليس له منهمـــا الا التضمين وايا كان الامر فهمـــا يمثلان حاله في ساعة مـــن ساعات عهـــده الجديد وما اعتقد هو واعتقد الناس معه انه فيه السعيد كـــل السعيـــد :

ولـــو انـــي استزدتك فوق مـــا بي
من البلـــوى لاعـــوزك المزيـــد

ولو عـــرضت علـــى الموتـــى حياة
بعيش مثل عيشـــي لم يريدوا

١ ـ ابـــن خلكان .

صلتـه بمعـاصريـه

عدا عــن تقريبه للعلماء والادباء كما روى ابن الاثير وقد كان عصره غاصا بهم ، فان ذلك العصر كان حافلا ايضا بفريق من الكبراء ، كان العلم حليتهم التــي بها يفاخرون ، والادب زينتهم التــي بها يتباهون . فقد كان هناك امثال ابن العميـد والصاحب بن عباد الوزيران الاديبان الكاتبــان وامثال ابــي اسحاق الصابــي . وقد كان له بهؤلاء وبغيرهم صلات ادبيــة ومواصلات شعرية ونثرية .

وكان ابو الفرج الاصبهانــي صديقا حميما له يكثر من مجالسته ومحادثته ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره .

من مذكرات سلمان الفارسي

سلمان الفارسي من اشهر اصحاب النبي (ص) ومن اكثرهم نضالا في سبيل الاسلام ومن اقربهم الى محمد (ص) ، حتى لقد قال فيه : (سلمان منا اهل البيت) .

ولما في سيرة هذا الرجل من مغامرات في سبيل الوصول الى الحق ، كان المسلمون الاولون يحبون ان يسمعوها منه فقصها يوما على ابن عباس ، وتداولها الراوون ، حتى نقلها صاحب (اسد الغابة) باسانيدها .

قال سلمان : « كنت رجلا من اهل فارس من اصبهان، ابن رجل من دهاقينها ، وكنت احب الخلق اليه ، فاجلسني في البيت ، فاجتهدت في المجوسية ، فكنت في النار التي توقد فلا تخبو » .

هكذا بدأت حياة سلمان : ابن رجل مترف يحبه اشد الحب ، ويحرص عليه فلا يجهده بعمل بل يجلسه في البيت، ويندفع سلمان في المضمار الديني فيكون ركنا في المجوسية وعاملا في نارها التي لا تخبو .

ولكن سلمان هذا الذي لم يشغل باله التفتيش عن الرزق ، ولم يرهقه العمل : سلمان الخلي الثري اشغل باله التفتيش عن شيء آخر وارهقه القلق !. فهو في اول امره لم يرض حياة الهمود والركود بل سعى

متطلعا الـــى ما هو فوق الماديات فاجتهد في الدين المجوسي حتـــى كان من حفدة النار الازلية !.

ولكن العقل المتفتح والقلب المتالق لم يكونا يرضيـــا بالمجوسيـــة مستقرا ونهاية . والفتى الذي لم يبطره النعيم، ولم يقعده الدلال بل مضـــى في الافاق الرحيبة ينشد الحقيقة الضالة ، هـــذا الفتـــى لم يكن ليرضـــى عبادة النـــار حقيقـــة منشودة !.

ويقول سلمان عن نفسه في هذا الدور من حياته :

كان ابـــي صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه في داره فقال لـــي يوما يا بني قد شغلنـــي ما ترى فانطلق الـــى الضيعة ولا تحتبس فتشغلنـــي عـــن كل ضيعـــة بهـــي بـــك .

هكذا انطلق سلمان من البيت ، وكان الذي اطلقه ابوه دون ان يدري انه قد اطلقه لا من البيت الـــى الضيعة ، بل من البيت الـــى الدنياالعريضة التـــي ستضيع اثاره فيهـــا علـــى ابيه . وكانت الخطوة الاولـــى التـــي خطاها مـــن بيت ابيه خطوته الاولـــى الـــى الخلود الدائم والمستقبـــل المتألق فقد تابع سلمان حديثه قائلا :

فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فملت اليهـــم واعجبنـــي امرهم وقلت والله هذا خير من ديننا !.

هنا تبدو (تقدمية) سلمان ، وهنا يظهر تحرره تحررا يعز مثيله . فالذين ولدوا ونشأوا علـــى الاديان ابائهـــم ليس مـــن السهل ان تقنعهم بتغيير هذه الاديان ، مهمـــا كان شأنها ، فالوثنيون والصنمـــيون وعباد النار والكـــواكـــب

ليسوا باقل استمساكا وايمـــانا بادياتهم من الموحدين .ولكن سلمان طالب حقيقة اينمـــا كانت هذه الحقيقة ، فهو يدرك لاول وهلة ان هذا الذي يراه في الكنيسة هو خير مما كان فيه ، وهو في هذا الادراك لم يحتج الى مبشر وهاد بل نفذت الحقيقـــة الـــى قلبه وعقله لانه لم يسدل دونها حجابـــا من التعصب والتقليـــد !

وفي يقينـــي ان سلمان في هذا فذ من افذاذ الانسانية وان حياته وتطور حياته جديران بكل درس وتحقيق .

ثم يكمل سلمان حديثه :

فاقمـــت عندهم حتـــى غابت الشمس ، لا انا اتيـــت الضيعـــة ولا رجعت الـــى ابـــي فاستبطأنـــي وبعث رسلا في طلبـــي ، وقد قلت للنصارى حيـــن اعجبنـــي امرهم اين اصل هذا الديـــن ؟. قالوا بالشام . فرجعت الـــى والدي فقال يا بنـــي قد بعثت اليك رسلا ، فقلت قد مررت بقـــوم يصلون في كنيسة فأعجبنـــي ما رأيت من امرهم وعلمت ان دينهم خير من ديننا .

وكانت الصدمة علـــى الاب صدمة عنيفـــة فان الابن المدلل المرموق الذي كان يخشى عليه ابوه حتى من وهـــج الشمس وهبوب الهواء ، قد القـــى بنفسه في اتون متقـــد ، وخاض في عاصفـــة عاتية !. وكان الامر اقوى من ان يصبر عليـــه هذا الاب المسكيـــن ، فحاول اولا ان يقابله باللّيـــن ، ويتم سلمان حديثه فيقول :

فقال يا بني دينك وديـــن ابائك خير من دينهم فقلت كلا

والله !.. وهنا رأى الاب ان اللين لا يجدي فمال الى الشدة ، يقول سلمان :
فخافني وقيدني !.

ولكن سلمان لم يكن ممن يثني عزمه مثل هذا التهويل والترويع ، فقد استطاع ان يتصل بجماعة الكنيسة ، وكان قد سألهم من قبل عن اصل هذا الدين فقالوا له انه الشام ، والتقى الان في نفسه عاملان فهو عندما سأل عن اصل هذا الدين كان يريد ان يأخذه من منابعه، ثم جاء العامل الاخر عامل الفرار من وجه الاب الغاضب !
يقول سلمان :
فبعثت الى النصارى واعلمتهم ما وافقني من امرهم وسألتهم اعلامي من يريد الشام ففعلوا وألقيت الحديد من رجلي وخرجت معهم حتى اتيت الشام فسألتهم عن عالمهم فقالوا الاسقف ، فاتيته فاخبرته وقلت : اكون معك اخدمك واصلي معك ، قال: اقم فمكثت مع رجل سوء في دينه ، كان يأمرهم بالصدقة فاذا اعطوه امسكه لنفسه حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا فتوفي فاخبرتهم بخبره فزجروني فدللتهم على ماله فصلبوه ولم يغيبوه ورجموه واجلسوا مكانه رجلا فاضلا في دينه زهدا ورغبة في الاخرة وصلاحا فألقى الله حبه في قلبي حتى حضرته الوفاة.

هكذا انفصل سلمان عن ابيه واهله سعيا وراء الحقيقة وآثر العيش غريبا ، متخليا عن الثراء والترف ليخدم رجال الدين ويعيش معهم حياة التقشف والزهد ، ولكنه وقد استقرت به الارض هل يستقر هو فيها ام سيظل يطوف

مستزيدا من المعرفة مستكثرا من الايمان ؟.

انه هو نفسه يجيبنا عـن هذا السؤال ويتمم سـرد (مذكراته) فقبل ان يموت ذاك الاسقف الفاضل الذي احبه سلمان واخلص له لما راى من تقواه وصلاحه ، كان حب الرحلة يعتلج في قلب سلمان ولكنه خشي ان يرحل فلا يهتدي الـى الصالحين بل يبتلى بمثل ما ابتلي بـه مع الاسقف الاول كانز الذهب فسال معلمه الصالـح عـمن يثق به ليرحل اليه . يقول سلمان :

فذكر رجلا بالموصل وكنا علـى امر واحد حتى مات فاتيت الموصل فلقيت الرجل فاخبرته بخبري وان فلانا امرني باتيانك فقال اقم فوجدته علـى سبيله وامره .

وهكذا لم يخيب اسقف الموصل ظنه بل كان على مـا اعتقد به اسقف الشام فاطمأن قلب سلمان واستراح الـى هذا المعلـم الجديـد .

علـى ان الذي لم يفصله سلمان في ذكره رحلته الـى الشام هو امر البلد الذي قصده في الشام ، فالشام اسم قطر لا اسم بلد فهل اقام في القدس ام في دمشق ام في غيرهما ؟.

ويبدو ان سلمان كان لا يصل الـى هؤلاء الصالحين الا وهم في سن عالية ، فكانوا يموتون الواحد بعد الاخر وهو لا يزال في عنفوان شبابه فمات صاحب الموصل واوصاه قبل موته ان يلحق باسقف نصيبين فكان كصاحبيه تقى وصلاحا .

ويروي الذيـن نقلوا حديث سلمان ــ كما جـاء في اسد الغابة ــ : ان الصومعة التـي تعبد فيها سلمـان بنصيبين كانت باقيا الـى يومهم .

ويقول سلمان : ثم احتضر صاحب نصيبين فقلت لــه اوصني ، فاوصاه باللحاق بصاحب عمورية من ارض الروم : فاتيتــه بعمــورية فاخبرته بخبري فأمرنــي بالمقام .

وفي هذه المرحلة من تطواف سلمان يظهر انه كان قــد تقــدمت به الســن فشعر بانه محتاج الــى شــيء مــن الاستقرار ، وان هذا الاستقرار لا يمكن ان يتم اذا لم يستعن عليــه بمورد مالي يطمــئن اليه اذ يقول :

فثاب لــي شــيء واتخذت غنيمة وبقرات ..

ثم حضرت الوفاة صاحب عمورية دون ان يكون قد دله علــى صاحب آخر ، ثم توفي وسلمان لم يقرر الرحيل الــى بلد بعد عمورية ، ويبدو من شرائه الغنم والبقر انه كان قــد وطد العزم علــى الاقامة بعمورية علــى ان هذه الاقامــة لم تطل فقد عاوده الحنيــن الــى البحث والتطلع ، اذ انــه يحدثنا فيقول :

فمر ركب من العرب من كلب فقلت اصحبكم واعطيكم بقراتــي وغنمــي هذه وتحملوني الــى بلادكم .

لم يكن سلمان يعرف ما قد خبأ له القدر في هذه الرحلة الجديدة ، ولم يكــن يدري ان الحياة ستتعاوره بيــن اقصى الشقــاء واقصــى السعادة ، وانه سيعود بعد السيــادة والعز عبدا رقيقا يباع ويشرى . وهذا ولا ريب اقســى دور في حياة سلمان . ونستطيــع ان نحس المرارة التــي احسها هذا الرجل طالب الحقيقــة وناشد الخير حيــن يصطدم بواقع النــاس الشريــر المبطل !.

لقد عرض علــى الكلبيين ان يهبهم ثروته علــى ان

يحمـــلوه الـــى بلادهم ، وكان العرض سخيـــا كريمـــا فما نحسب ان (اجور النقل) قافلة الكلبيين كان يمكن ان تكون مرتفعـــة الـــى الحد الذي يمكن ان يستغرق مثل هذه الثروة التـــي مهمـــا ضؤلت فهـــي علـــى كل حال ثروة . ولم يكن يهم سلمان المساومة علـــى المـــادة فقد هجـــر الثـــراء العريض ، ورضـــي واقعه الفقير لان ما ينشده كان اسمى من الثروات المادية ، لذلك فقد عرض التخلي من كل ما يملك مقابل ان تنقله هذه القافلة الـــى عالم جديد يجد فيه المزيد من المعرفـــة !.

استولـــى الكلبيون علـــى الغنمـــات والبقرات، وحملوا هذا الغريب علـــى دابة من دوابهم ممعنيـــن في السير .

ويظهر ان ما رأوه من تفريط سلمان بثروته اغراهـــم به ؛ وحملهم علـــى الاستخفاف بحاله معتقدين أن من يعرض هذا العرض انمـــا هو اكلة هينـــة ..

يقول سلمـــــان :

« فحملونـــي الـــى وادي القرى فلما بلغناها ظلموني وباعـــونـــي من رجل من اليهود » هكذا لقـــي رجل الحق افجـــع مصير يلقـــاه انسان : اصبح عبدا لليهود !

ولم يكـــن سلمان يعلم حتـــى تلك الساعة الـــى اي ارض وصل به السير ، وهل بلغ بلاد العرب ام لا فهو يقول :

فكنت اعمل له (اي لليهودي الذي اشتراه) في نخله وزرعه ، ورايت النخل فعلمت انه البلد الذي وصف لي .

واقمت عند الذي اشتراني وقدم عليه رجل من بني قريضة (وهي قبيلة يهودية تسكن المدينة) فاشتراني منه وقدم في المدينة فعرفتها بصفتها فاقمت معه اعمل في نخله» .

بهذا ينتهي هذا الدور من ادوار حياة سلمان الذي خطا فيه الخطوة الاولى للقاء النبي محمد (ص) .

والادوار التالية لا تقل عن هذا اثارة فلعلنا نوفق لتسجيلها .

شعراء شعبيون

ثلاثة شعراء مصريين كانوا في عصرهم صورة الشعب المصري ظرفا وادبا وثورة ، وهم كغيرهم ممن عاشوا للشعب وفي الشعب فضاعت اخبارهم وطمست اثارهم ولم يصلنا منها الا النزر القليل، وهذا الذي وصلنا على ضآلته يرينا جانبامن حياة الجماهير في هاتيك العصور وما انطوت عليه معايشهم، وما كانوا يعالجون به امورهم من تمازح وتندر ، ومن هزل هو في جوهره الجد كل الجد .

ورّاق وحمّامي وجزار

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم : سراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق الذي عرفه ابناء جيله باسم السراج الوراق ، ونصير الدين الحمامي الذي عرفوه باسم النصير الحمامي ويحيى بن عبد العظيم الجزار ، الذي عرفوه باسم ابو الحسين الجزار .

ولقب كل واحد من هؤلاء مأخوذ من مهنته فقد قالوا عن الوراق انه كان يكتب الدرج لوالي مصر ، فاساس مهنته الورق ، ونصير الدين كان يشتغل في حمّام عام ، ويحيى كان جزارا يبيع اللحوم .

وهكذا نرى ان الثلاثة كانوا يمتهنون مهنا بسيطة ، تجعلهم من هموم الشعب في الصميم .

واذا كنت قد خصصت هذا المقال بالجزار فلا بد من الالمام اولا بكل واحد منهم ثم بما كان يربط بينهم من روابط الادب وعلائق الشعر وبما كانوا يتشاكون به من نوائب الزمن ومتاعب الحياة . فان اجتماع مثل هؤلاء الثلاثة في وقت واحد وتوثق الصداقة بينهم شيء فريد كان لا بد له ان ينتج ما انتج .

مساجلات بينهم

فمن ذلك ان السراج كان يقيم في « الروضة » في القاهرة ، فكتب اليه النصير الحمامي :

كم قد ترددت للباب الكريم لكي
ابل شوقي واحيي ميت اشعاري
وانثني خائبا مما اؤمله
وانت في « روضة » والقلب في نار

فأجابه السراج :

الآن نزهتني في روضة عبقت
انفاسها بين ازهار واثمار
اسكرتني بشذاها فانثنيت بها
وكل بيت اراه بيت خمار
فلا تغالط فمن فينا السراج ومن
اولى بان قال ان القلب في نار

وكتب الوراق الى الجزار في عيد الاضحى :

اجبت بعيد النحر من كان سائلي
عن الحال في عيدي وقد مر ذكره

اذا بطل الجزار والعـــيد عيـده
فلا تسأل الوراق فالعــذر عــــذره

ويبدو انهم كانوا اذا لم يداعب بعضهم بعضا داعب كل منهم نفسه بنفسه ، فان السراج كان اشقر ، ازرق العينيـــن فقال :

من رآني والحـــمـــار مركبـــي
وزرقتي للروم عـــرق قد ضــــرب
قـــال وقد ابصر وجهـــي مقبـــلا
لا فـــارس الخيـــل ولا وجه العـــرب

وقال السراج ايضا :

بنـــي اقتـــدى بالكتاب العـــزيـــز
وراح لبـــري سعيـــــا وراجــــا
فمـــا قال لـــي اف مذ كان لـــي
لكونـــي ابا ولكونـــــي سراجـــــا

ومن شكاوى الوراق :

اصون اديم وجهـــــي عن انـــاس
لقـــاء الموت عندهــــم الاديـــب
ورب الشـعـــر عندهـــم بغيـــض
ولـــو وافـــى به لهـــم حبيـــب

وقال بعد ان شاب :

وكنت حبيبا الـــــى الغانـــيات
فالبسنـــي الشيـــب بغض الحبيـــب
وكنت سراجا بليـــل الشـــبـــاب
فأطفأ نـــوري نهـــار المشيـــب

وقال وهي تصف لونا من حياتــه :

كم قطع الجــود مــن لســان
قلــد مــن نظمـــه النحـــورا
وهـــا انـــا شاعـــر سراج
فاقطــــع لسانـــي ازدك نـــورا

السراج والضيــاء

ومن طرائفهم ان السراج خاطب من اسمه ضيــاء الديــن :

امولانا ضياء الــدين دم لــي
وعش فبقــاء مــولانا بقــائـي
فلولا انــت ما اغنيــت شيــئا
وما يغنــي السراج بــلا ضيــاء

ويبدو ان ضياء الذيــن هذا كان ممن تستقضــي به الحاجات ويقصد للعطايا والملمات ، فقصده السراج بهــذا القــول مستغلا تناسب الاسمين ليهزه بهذا التناسب ، ولكن ضياء الديــن لم يكن ليهتــز للادب ويستثار بالشعر فخاب رجاء السراج فيه فعاد يقول :

وها انا سائر في ليــل خطـــب
تساوى الصبــح فيــه والمســاء
فلا انـــا مثلمـــا ادعــى سراج
ولا هـــو مثلمـــا يدعــى ضيـــاء

وهكذا دلنـــا الشاعر بهذا القول المرير علــى ما كان يكابـــده في حياته وهل اوجع من الســـير في ليـــالـي

الخطوب التي لا يضيء فيها السراج ولا يشرق الضياء

السراج والشمس والبدر

والتقى السراج من اسمه شمس الدين ومن اسمه بدر الدين فقال :

لما رأيت الشمس والبدر معا
قد انجلت دونهما الدياجي
حقرت نفسي ومضيت هاربا
وقلت ماذا موضع السراج

وقال السراج ايضا موريا بصناعة الوراقة :

يا خجلتي وصحائفي سودا غدت
وصحائف الابرار في اشراق
وموبخ لي في القيامة قال لي :
اكذا تكون صحائف الوراق

ويظهر ان آمال السراج كثيرا ما خابت في الرجال فكان يعود للذم بعد المدح متذمرا شاكيا :

مدحته جهدي فما اهتز من
قولي وقال الناس كم تتعب
فقلت ارجو زبدة قال لي
فاتك ، اين اللبن الطيب

ثم يوغل في ذلك :

ومبخل بالمال قلت لعله
يندى وظني فيه ظن مخلف
جمع الدراهم ليس جمع سلامة
فاجابني لكنه لا يصرف

الشعب الطيب

علـــى انه حين يرى البادرة الطيبة والفعل الجميـــل ، وحيـــن يواسيه الناس ويعطفون عليـــه يعود معترفا بالفضل مثنيا علـــى الاحسان :

مرضـــــت في حـــي قـــــوم
مـــا منهـــم مـــن جفـــانـــي
عـــادوا وعـــــادوا وعـــادوا
علـــى اختـــــلاف المعـــانـــي

وكلمة « عادوا » الاولـــى من العيادة والثانية من العود بمعنـــى العطاء والثالثة بمعنـــى الرجوع . وهو في هـــذا القول لم يخص شخصا بعينه ، ولا اثنـــى علـــى كبير قوم ، بل شمل سكـــان حـــي بأكمله قدر له ان يقيم بينـــهـــم وان يمرض عندهم ، فعرفوا حقـــه فقال ما قال ، ولنا هنـــا ان نستدل علـــى طيبة الشعب وكرم جمـــاهيره ، وعلـــى ما كان يتحلـــى به ذلك الشعب من تقدير للادب وتعاطف مع الشعـــراء حتـــى اذا مرض واحد منهم فقير لم يهملـــوه بل عاملوه بمـــا انطقه بالذي نطق ، علـــى العكس من الكبراء الذي شكـــى منهم الشاعر واضطر الـــى ذمهم افرادا احيانا ..اعات احيانـــا :

يـــا بنـــي الآمال قـــد خاب الرجا
وقـــد اشتدت وقد عـــز العـــزاء
..فـــن الامال في بحـــر المنـــى
وحلـــت منـــا فأيـــن الرؤســـاء

همـــوم الحمـــامـــي

اما النصير الحمامي فقد ضمن همومه بيتين من الشعر ارسلهمـــا الـــى صديقـــه الجـــزار :

مـــذ لزمت الحمـــام صرت بـــه
خـــلا يداري مـــن لا يداريـــه
اعرف حر الاســـى وبـــارده
وآخـــذ المـــاء مـــن مجـــاريـــه

ولا اعرف صورة للكرب ابلغ من هذه الصورة ، فهـــذا شـــاعـــر مرهف الحس رفيع النفس يفد اليـــه الثقيـــل السمج ، والفظ الغليظ ، فيهب مرحبا ويندفع مؤهلا بمـــن لو كان الامر اليـــه لتناولهم باللطم وعاملهم بالصفع ، او على الاقل : لقعد عـــن استقبالهم وابتعد عن احوالهم ، ولكنـــه وهو : « الحمامي » ذو المهنة العامة مرغم لا على مداراة من لا يستحـــق المداراة فحسب ، بل علـــى مداراة مـــن يتناولونه بزرايتهم فلا يدارونه بل يشتطون عليـــه .

خل يداري من لا يداريه ، هكذا كان امر هذا الشاعر ، فلا بدع ان يكون اساه فوق اسى الناس ، فاذا عـــرف الناس الاســـى الحار وحده فهو قد عرف اسى لم يعرفه احد من الناس الـــى جانب الاســـى الحار الذي عرفوه : عـــرف الاســـى البارد !.. وهو اذا كان في مهنتـــه « يأخذ الماء من مجاريه » فلم يكـــن يأخذه ليروي ظمأ ويبل اواما ، بـــل ليزيد هذا الماء من لوعته فيثير ببرودته طورا وحرارته طورا الاســـى باردا طورا وحارا طورا آخر ...

وهمــــوم الجــزار

وقد تأثر صديقه الجزار بهذا القول فاجابه مواسيا ، داعيــا ايــاه الــى الصبــر :

حسن التأنــي مما يعيــن علــى
رزق الفتــى والحظــــوظ تختلــف
والعبــــد مذ صــار في جزارتــه
يعرف مــن ايــــن تؤكل الكتــف

ولكــن صاحبنا الجزار هذا اذا كان عرف بتجاربــــه ولطول ما مارس وعانــى ، اذا كان قد عرف من اين تؤكل الكتف ، فقد كانت معرفته نظرية بحتة لم تصل به الــى حــد التطبيــق والعمل ، فهو حقا يعرف من اين تؤكل الكتف ، ولكنــه لا يأكلها ، بل يدعها للمستطيعيــن الذيــن يقدرون علــى دفــع الثمــن مهما غلا ، اما هو فله منها المعرفة وله منها النظر والتأمل ، وليس منها وحدها بل من كل ما كان يوجــد في يديه من لحوم، فلم يكن مستطيعا ان يتخير شيــئا من اطايبها لنفســه :

اصبحت لحامــا وفي البيــت لا
اعرف ما رائحـــة اللحــــم
واعتضت مــن فقري ومن فاقتي
عــن التذاذ الطعــم بالشحــم
جهلتــه فقرا فكنت الــذي
« اضلــه الله علــى علـــم »

ويكرر هذا المعنى قائلا :

حسبي ضياعا بحرفتي حسبي
اصبحت منها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من
طول اكتسابي ذنبا بلا كسب
اعمل في اللحم للعشاء ولا
انال منه العشا فما ذنبي
خلا فؤادي ولي فم وسخ
كأنني في جزارتي كلبي

ويقول متغزلا :

يقول اذ اشكو له زفرتي
لا بد للجزار من « زفره »

ويتأمل بين الحين والحين حاله فيقول مثل هذا القول :

اكلف نفسي كل يوم وليلة
هموما على من لا افوز بخيره
كما سود القصار في الشمس وجهه
حريصا على تبييض اثواب غيره

لا يتحاسدون

ونحن نرى ان هؤلاء الشعراء قد خرجوا على ما عرف من تحاسد الشعراء المتعاصرين وتنافسهم ، فتآلفوا وتوثقت بينهم روابط من الود والزمالة جعلت منهم اخوانا متحابين واصدقاء متراسلين يثني بعضهم على بعض ويؤازر بعضهم بعضا فسمعنا الوراق يثني على الحمامي :

شاقنـــي للنصير شعر بديـــع
ولمثلـــي فـــي الشعر نقـــد بصير
ثم لما سمعت باسمـــك فيـــه
« قلت نعم المولـــى ونعم النصير»

ويصاب الوراق برمد فيهدي اليه الجزار تفـــاحـــا وكمثرى ويكتب معها اليه :

اكافيـــك عن بعض الذي قد فعلتـــه
لان لمولانـــا علـــــي حقوقـــا
وان حـــال منـــك البعض عما عهدته
فمـــا حال يوم عـــن ولاك وثـــوقا
بنفســـج تلـــك العين صار شقائقا
ولؤلؤ ذلك الدمـــع عـــاد عقيقـــا
وكـــم عاشق يشكو انقطاعك عندما
قطعـــت علـــى اللذات منه طريقـــا
فلا عدمتـــك العاشقون فطالمـــا
اقمت لاوقـــات المســـرة ســـوقـــا

وفي هذه الابيات اقرار بفضل واعتراف بجميل ممـــا يشعر بتعاون علـــى الدهر وتآزر في الحياة عدا عما فيها من مدح وتقدير .

الجـــزار

وصاحبنا الجزار ولد سنة ٦٠١ هـ وتوفي سنة ٦٧٢ هـ علـــى قول «١» او سنة ٦٩٧ علـــى قول آخر(٢) ودفـــن

١ ــ اعيان الشيعـــة .
٢ ــ شذرات الـــذهب..

بالقرافة . وقد ورث الجزارة عـن ابيه فهو فيها عـريق ، وعلـى غير عادة الاباء الذيـن هم في حال مثل حال ابيه ، فقـد شجعه ابوه علـى نظم الشعر ، وصحبه الى الشاعر ابـي الاصبـع ليسمعه شعره ويبدو انه كان لا يزال في طور الصبا لم تكتمل له ادوات الشعر اكتمالا صحيحا . فقال له ابو الاصبع « انت عوام ماهر » . فسر الاب الامي بهـذا القول ولما سئل ابو الاصبع عمـا يعنيه بكلمته قال : « انـه ينتقل في الشعر من بحر الـى بحر » . ويفهم من قـول صاحب الشذرات انه امتهـن الجزارة اول امره ثم تخلـى عنها وتفرغ للشعر وللمدح بخاصة . ولا يفهم من الشـذرات انه عاد فتخلـى عـن الشعر راجعا للجزارة ، ولكن اقوال الشاعر تدل علـى ان تعاطيـه الشعر لم يستمر ، بل رجـع جزارا كما بدأ ، رجع شاكيا ذل المديح وهـوان المدّاح وان هناك من لامه علـى هذا الرجوع وهو صديقه شرف الديـن فقال له :

لا تلمني يا سيـدي شرف الديـن اذا ما رايتنـي قصّابـا
كيف لا اشكر الجـزارة ما عشـت زمانا واهجر الآدابـا
وبها صارت الكلاب ترجينـي وبالشعر كنت ارجو الكلابـا

ثم يكرر هذا المعنـى ويؤكده :

لا تلمنـي بصنعة القصـاب
فهـي ازكـى من عنبر الاداب
صار فضلـي علـى الكلاب ومـذ
كنت اديبـا رجوت فضل الكلاب

ويصفه صاحب الشذرات بهذا القول : « كان جزارا ثم

استرزق بالمدح وشاع شعره في البلاد رتناقلته الرواة وكان
خير التبذير لا تكاد خلتا تسد » .

جزارة وشعر وفقر

واذا كان قد عاد للجزارة فان ذلك لم يمنعه عن قول الشعر ، بل لم يمنعه عن المزاح بين الحين والحين ، وعن الاشارة الى شاعريته والى جزارته معا ، هاتين المهنتين اللتين يبدو انهما لم تغنيا عنه لا مجتمعتين ولا متفرقتين :

يا اميرا يرجى ويخشى لبأس
ونوال في يوم حرب وسلم
انت موسى وقد تفرعن ذا الخطب فغرقه من نداك بيم
لي من حرفة الجزارة والا
داب فقر يكاد ينسيني اسمي
ويخاطب آخر قائلا :
ولا تغرنك منه (جوخة)
فصلها وهو عليها نادم(١)
وبيعها في البرد غير ممكن
ورهنها لا يرتضيه الحازم

ويطيل شكاياته الى من لا يرحم ولا يعطف ثائرا على مجتمعه الذي سيطر فيه اهل الثراء فاشتغلوا بثرائهم

---

١ ــ هذا يدل على استعمال كلمة (جوخة) من ذلك العاصر .
ويقال ان اصل الكلمة تركي مأخوذ من كلمة (جوقة) . ومعناها نسيج من الصوف .

عـــن التفكير بالفقراء ومعالجة فقرهم ، مصرحا ان ما يكتمه من سوء احواله هو اضعاف ما يبديه خوف الشامتين :

اطيـــل شكاياتـــي الـــى غير راحم
واهل الغنـــى لا يرحمون فقـــيرا
واشكـــر عيشي للورى خوف شامت
كذا كل نحس لا يزال شكـــورا

ويقـــول :

طاب عيشي والحمدلله اذ كنت له حامدا على كل حـــال
ما لباس الحرير مما ارجيه فيرجى ولا ركوب البـــغال
راحة السر في التخلف عن كل محل اضحى بعيد المنال
ان عز الانسان في تركه العز لذل في مبـــدأ الاحوال

جـــــد صـــــارم

وينتقل شاعرنا بين الجد والهزل فهو طورا جدي جدية صارمة يأخـــذ نفســـه بهـــا اخذا كاملا حتـــى ليخيل اليك انه ليس ذاك الشاعر الفكه المزّاح ، وحتى لتحسب ان رجلا من نوع آخر هو الذي يقول في رثاء الحسين بن علي عليهما الســـــلام :

ويعود عاشـــــوراء يذكرنـــي
رزء الحسين فليت لـــم يعـــد
او ان عينـــا فيـــه قد كحلـــت
بمسرة لـــم تخـــل مـــن رمـــد
ويـــــدا لشـــماتـــة خضبـــت
مقطوعة من زنـــدهـــا بيـــدي

يوم سهيلـــي حيـــن اذكـــره
ان لا يدور الصبر في خلــــدي

شـــاعر الكنـــافـــة

اما حين يسترسل في لطائفه وفكاهته فانه ينغمر فيهما انغمارا ينسيه كل وقار ويبعد به عن كل جد ، فقد كان مولعا بالكنافة محبها لها ، وكانت عزيزة المنال عليه لما تتقاضاه من مال فاذا اقبل رمضان ولم يصب منها شيئا قال :

فمـــالي ارى وجه الكنافة مغضبـــا
ولولا رضاهـــا لم ارد رمضانهـــــا
عجبت لها في هجرها كيف اظهـــرت
علـــي جفاء صدّ عنـــي جفانهـــا
ترى اتهمتنـــي بالقطايف فاغـــتدت
تصد اعتقادا ان قلبـــي خـــانهـــا
ومذ قاطعتنـــي ما سمعت كلامهـــا
لان لسانـــي لـــم يخـــالط لسانهـــا

وكتب في العشر الاخير من رمضان الى جمال الدين بن يغمـــور :

ما رات عينـــي الكنافـــــة الا
عند بيعهـــا علـــى الدكـــان
ولكم ليلة شبعت من الجـــــو
ع عشـــاء اذ جزت بالحلوانـــي
حسرات يسوقـــها الطـــرف
للقلب فويل للفكر عنـــد البهـــان

كم « صدور » مصفقات بودم من
شبك دونهـا وكم صـوانـي

ويلح به الشوق الى الكنافة ولا وصول له اليها . فبعد ان كان يناجيها هـي ويتوسل اليها نفسها يعود مستجديا صديقـه شرف الديـن مطالبا له بها ، لا يرى غيرهـا جائزة للشعر ومكافاة علـى المدح :

ايا شرف الدين الذي فيض جـوده
براحتـه قد اخجـل الغيث والبحرا
لئـن محلت ارض الكنافـة انني
لارجو لها من سحب راحتك القطرا
فعجل بها جودا فمالـي حاجـة
سواهـا نباتا يثمـر الحمد والشكرا

حتـى اذا تراءت له في صحافها وابصرها امامه عيانا دعا لها الطف دعاء ورجا لها اظرف رجاء . فالكنافة لا بد لها من القطـر او من السكر ، اما اذا اجتمعا معا فذلك غايـة المقصود ومنتهـى المطلوب ، فاذا وقف الشعـراء علـى الديار وسألوا الله لها الري واغداق المطر ، وقف هو علـى الكنـافـة وقـال :

سقـى الله اكناف الكنافة بالقطـر
وجاد عليـها سكرا دائم الـدر

ثم يتذكر ايام الحرمان ، ايام كان « المخلل » هو ادامه وحلواه فيصرخ من الاعماق :

وتبا لاوقات المخلـل انهـا
« تمر بلا نفع وتحسب من عمري »

ثم ينطلـــق في تغزله بالكنافة متجاوزا اياها الـــى حلوى اخـــرى يسميها « القاهرية » ولا نعلم نحـــن من امرها شيـــئا :

ولـــي زوجـــة ان تشتهـــي قاهرية
اقول لها ما القاهريـــــة في مصـــر

مـــداعبــــات

وقد يحلو لبعض المتأدبيـــن ان يداعبه كمـــا جـــرى لما مات حمـــار له فكتب اليه بعض اصحابه حاسبا انـــه يستطيـــع النيـــل منه :

مات حمـــار الاديـــب قلت لـــهم
مضـــى وقـــد فـــات منـــه ما فاتـــا
مـــن مات في عزه استراح ومـــن
خلف مثل الاديـــــب مـــــا ماتـــــا

ولكـــن رد الجزار كان حاسما :

كـــم مـــــن جهـــول رآنـــي
امشـــــــي لاطلـــــــب رزقـــــا
فقال لـــي صـــرت تمشـــــي
وكنـــــت تغشـــــــى وتلقـــــى
فقلت مـــــات حمـــــــاري
تعيـــــــش انـــــــت وتبقـــــى

وعندما كان يرى تعاظم المتعجرفيـــن وترفع المتكبرين كان لا يرى في السخرية من الدهر الذي جعل منه وهـــو الشاعـــر جزارا ، لا يرى خيرا من ان يقول :

الا قــل الــــذي يســـأل
عــن قـــومــي وعــن اهلـــي
لقد تســـال عـــــن قــــوم
كـــرام الفـــــرع والاصــــــل
تــرجيـــــهم « بنــو كلـــب »
وتخشـــاهــم « بنــو عجــل »

وبنو كلب وبنو عجل هما قبيلتان كبيرتان من العرب ، وهو في مهنته ترجوه الكلاب وتخشاه العجول .

وقد استغـــل هذا القول مجاهد الخياط فقال يهـــجو الجـــزار :

ان تـــاه جـــزاركــم عليكــــم
بفطنــــــة عنـــــده وكيـــس
فليـــس يـــرجـــوه غير كلـــب
وليس يخشــــــاه غـــير تيـــس

وقال الجزار بعد ان عجز الشعر عن ان يؤمن له ما كان يأمله من رخاء العيش :

اصبحـــــت في امــــري ولا
اشكـــــو لغــــير الله حــائر
فاللحـــم يقبـــح ان اعـــو
د لبيعـــه والشعــــر بــائر
يــا ليتنــي لا كنــت جــــزا
را ولا اصبحــت شـــاعــــر

وضايقته يوما عجوز فقال فيها :

لــو بــرزت صورتها في الدجى
ما جسـرت تتصـورها الجـن
كـأنهـا في فرشها رمـــة
وشعـرها من حولها قطــن

وقائل قل لهـا : ما سنها ؟
فقلــت ما في فمها ســن

وقال يخاطب ممدوحا مشيرا الــى انه كان شاعــرا فطريــا لم يدرس علــى احد غير نفسه :

وان الشعر دون علاه قــدرا
ولا سيمــا اذا ما كان شعــري
لانــي ما قــرات لــه صحــاحا
ولا نحوا علــى الشيخ ابن بري

وقد شاركته في لغة ونحـــو
بــلا علــم وشاع بذاك ذكــري
وعيشــك لست ادري ما طحاها
وقد اقررت انــي لست ادري
كانــي مثــل بعض الناس لمــا
تــعــلم آيتيــن فصــار مقري

ومن طرائفه انه بعد ان تــرك الجزارة الــى الشعر ، خرج يوما للنزهــة مع رفقــة له فرغبوا بشراء لحم فكلفوه بذلك لخبرته ، فعاد اليهم باردأ لحم ، فلما تعجبوا مــن ذلك قال لهم : « لما رآني صاحب اللحم عرف بي زميلا قديما

له ، فأقسم علـــي بان اقطع اللحم بيدي من حيث اريـــد ، فنسيت نفســـي وغلب علـــي لؤم الجزارين ».

هذه لمحة عـــن شاعر يمثل جماهير شعبه التمثيـــل الصحيـــح ، وما اكثر هؤلاء الشعراء الذين عفـــى عليهـــم الزمن واغفلهم مؤرخو الادب فضاعوا وكانوا الاجدر بالحفظ.

ملامح الملحمة العربية في شعر شاعري الشام

لم يكن بدعا ان تنتج الحروب الصليبيـة فـي اوروبا ادبا ملحميا مستوحى مما حفلت به تلك الحروب من احداث وخطوب ، ولم يكن عجبا ان نـرى في الآداب اللاتينيـة سواء في لغـة الشمال chanson d'oil او لغـة الجنوب chanson d'oc ملاحم لامثال جفري اللومبـاردي ويوسف اكستـر وجنتر باسل وكذلك مثل انشودة انطاكية البروفنساليـة chanson d'antioche التـي الفها غريغوري بشاده ، وقصيدة بودريه وانشودة غرايـندور دوياي ، وغيرهـا .

ولكـن كان العجيب ان لا تخلق تلـك الحروب الملاحم العربيـة ، لا في حال تدفق الجيوش الفرنجية وانتصاراتهـا وما رافقها من فجائع واهوال ، وما عاناه العرب فيها مـن هوان وانكسار . ولا في حال انحسار المد الفرنجـي واجتماع القوى الوطنية مستخلصة الوطـن منه دفعة وراء دفعة حتى انتهـت بتلاشيـه .

وفيمـا عدا قليلا من القصائد والمقطوعات اعرب فيها اصحابها عن احزانهم ايام الهزائم وافراحهم ايام الانتصارات، فان تلـك الحروب لم تنل ما كان يجب ان تناله من الشعر العربـي ، ولا اوجدت الملحمة في ادبنا ، وكانت بذلك جديرة.

عماد الدين ونور الدين

على انني وانا اقرأ وقائع عماد الدين زنكي ثم وقائع ابنه نور الدين محمود مع الصليبيين ، حين بدأ الاول مهاجمة الافرنج ، فكانت انتفاضته اول انتفاضة فيوجه المحتلين بعد نوم طويل على الضيم .

انني وانا اقرأ ذلك وجدت شعرا عربيا يسجل تلك الوقائع ويتغنى بها معبرا عما كانت تنضح به نفوس العرب من الابتهاج والحبور ، وما كانت تفيض به بيئاتهم من الاستبشار والسرور .

واذا كان مما يقلل من قيمة اصحاب ذلك الشعر في اعيننا انهم لم ينظموا شعرهم ابتداء ، ولا كان بنتيجة تحسس بالشعور العام ، ولا تعبيرا عن حقيقة امورهم ، بل جاء في معرض المدح والاسترزاق . فانهم وهم يعيشون في كنف عماد الدين ونور الدين ويحيون في سلطانيهما ، كان لا بد لهم من ان يمدحوهما استدرارا للعطاء ، وسواء اكان عماد الدين ونور الدين غازيين منتصرين ، او متخاذلين متواكلين فانهم سيمدحونهما حتما . اذا كان الامر كذلك فان حسن حظهم جعل مدحهم غير منكور ولا ممجوج ، وجعلهم دون ان يقصدوا لسان الحياة العربية والاسلامية في تلك الفترة ، معبروا عن مشاعر الامة ونطقوا بلسان الاحداث فاكتسبوا بذلك خلودا لم يكن ليتأتى لهم لو ان عماد الدين ونور الدين لم يكونا مدبري تلك الوقائع وقائدي تلك المعامع .

شـــاعـــرا الشـــام

وابرز شعراء تلك الفترة شاعران لقبهمـــا معاصروهما بشاعري الشام همـــا محمد بن نصر القيسراني واحمـــد ابن منير الطرابلســـي ، ولهمـــا في عمـــاد الديـــن ونور الديـــن مدائح تقليديـــة ككل مدائح الشعراء في الامراء ، ليست هي التـــي تعنينـــا فـــي حديثنـــــا هـــذا ، وانمـــا الـــذي يعنينا هـــو تلك القصائد التي نظماهـــــا في الانتصارات فكانت مظاهـــر للملحمة العربيـــة جديرة بالعناية والاذاعة .

والقيسراني مولود سنة ٤٧٨ ومتوفى سنة ٥٤٨هـ وهو منسوب الـــى مدينـــة قيسارية علـــى الساحل الفلسطيني، ولم يكـــن الشعر وحده الصفـــة الغالبـــة عليـــه ، بل يبدو انـــه كـــان علـــى مشاركة حسنـــة ببعض العلوم حتـــى ان ابـــن عساكر سمع منه وذكره بين من ذكرهم من شيوخه.

والطرابلســـي مولود سنـــة ٤٧٣ ومتوفـــــى سنـــة ٥٤٨هـ وهو منسوب الـــى طرابلس علـــى الساحل اللبناني وهـــي المدينـــة التـــي عرفت في التاريخ العربي باســـم طرابلس الشام تمييزا لها عـــن طرابلس الافريقيـــة التي عرفت باسم طرابلس الغرب .

ونحـــن نرى من ذلك ان الشاعرين من منطقتيـــن نكبتا بالاحتـــلال الصليبـــي وسقطتا في قبضـــة الفاتحين ، فقـــد عانـــت قيسارية كمـــا عانت طرابلس مرارة الذل ، وهوان الفتـــح ، ولكننا لا نرى في شعر الشاعريـــن ما يدل علـــى تحسسهما بمـــا كان يشكو منه بلداهمـــا ، وهذا يدلنا على ان الشاعريـــن سيقا الـــى شعر الكفاح سوقا ، ولما لم يكن

لوقائع عماد الدين ثم لوقائع نور الدين صلة لا بقيسارية ولا بطرابلس بل كانت البلدتان بعيدتين عن ميدان الصراع . لذلك لم يذكرهما الشاعران ولا استجاشتهما همومهما . بل اقتصر الشاعران على ما باشره القائدان من المعارك في المناطق النائية لان فيها المادة الوافرة لموضوع المديح ، وهو الاصل في نظمهما هذا الشعر .

لم يكونا متوافقين دائما

ولم يكن هذان الشاعران متوافقين متصافيين دائما ، بل كثيرا ما تهاجيا وتشاتما ، وفي اثناء ذلك قد تقوم بينهما مطارحات طريفة فمن ذلك ان ابن منير كان يبكت القيسراني بانه الشؤم مجسما ، وانه يكفي ان يطل على مجلس ليصاب اصحاب المجلس بداهية ، وانه ما صاحب احدا الا نكب ، فصدف ان عماد الدين غناه مغن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول ابن منير :

ويلي من المعرض الغضبان اذ
نقل الواشي اليه حديثا كله زور
سلمت فازور يزوي قوس حاجبه
كأنني كأس خمر وهو مخمور
يزرفن الصدغ مسبول ذوائبه
لي منه وجدان : ممدود ومقصور

فاستحسنها عماد الدين وقال : لمن هذه الابيات ؟ فقيل هي لابن منير وهو بحلب ، فكتب باحضاره ، فليلة وصل ابن منير اغتيل عماد الدين . فقال القيسراني : هذه بجميع ما كنت تبكتني به !..

يومنـــا كـــذلـــك الامس

وكان الوضع قبل نهوض عماد الدين وضعا مذلا سيطر فيه الافرنج سيطرة كاملة علـــى البلاد الممتدة من ماردين الـــى عريش مصر . ولم يكـــن ناجيا من ربقة الاحتـــلال في هذا المدى الواسع الا المدن الاربع : حلب وحماه وحمص ودمشق . علـــى ان هذه المدن اذا كانت قد نجت من الاحتلال فانها لم تنج من الهوان . فقد كان الفرنج يرسلون وفودهم الـــيها فارضة ما تشاء من الفروض ، فضلا عمـــا كانـــت عليه بقيـــة المدن والقرى . ولعل مما يصور وضع البـــلاد يومذاك ما قاله صاحب كتاب (الروضتيـــن) : « وكـــان الفرنـــج قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتـــدت الـــى بلاد المسلمين ايديهم وضعف اهلها عـــن كف عاديهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلميـــن سوء العذاب واستطار في البلاد شر شرهم » .

ثم يزيد في وصف الحال قائلا : « وكانت سراياهم تبلـــغ من ديار بكـــر الـــى آمد ومن الجزيرة الـــى نصيبين ورأس عيـــن ، اما اهل الرقة فقد كانوا معـــــهم في ذل وهوان ، وانقطعت الطرق الـــى دمشق الا علـــى الرحبة والبر ، ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا علـــى اهل‌كل بلد جاورهم خراجا واتاوة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم » .

ولا يفوتنا أن نشير الى ما كان عليه العرب من تشاحن وتقاتل وصراع مما كان يحول دون النهوض نهوضا يـــرد للامة كرامتها وحريتها .

طــلائع الانعتـــاق

هذا هو حال الوطـــن حيـــن كان قد استطال امر عماد الديـــن زنكي ورسخ سلطانه فكان ان هب لمناجزة المحتلين ومقارعتهم ، ثم اخذ ينتصر عليهم انتصارات متتابعة ، اذا كانت في اول امرها هينة النتائج فانها كانت مفتاحا للوثوب ، كهذا الذي جرى حيـــن ردهم عن حصن (شيزر) وحين فتح حصـــن (الاثارب) وحصن (عرقه) وحصن (بارين) ثـــم ضرب ضربته الكبـــرى بفتـــح مدينة (الرها) .

وكانت الرها (ايدسا القديمة) محكومة من الارمن ، وبعد استيـــلاء الفرنـــج في حملتهم الاولـــى التي تلـــت حمـــلة بطرس الناسك ، علـــى مدينة (نيقيا) سنة ١٠٩٧م ثم مدينة دوريلايوم (اسكـــي شهر) من السلجوقييـــن انفصل بلدويـــن اللوريـنـــي عن الجيش الصليبـــي الرئيسي وتقـــدم نحو الرها واستولـــى عليها بالاتفاق مع حاكمهـــا الارمنـــي (توروس) سنة ١٠٩٨ وانشـــأ فيـــها اولـــى الدويلات اللاتينيـــة . ومنها تقدم الفرنج الـــى سميساط وسروج والبيرة وغيرها ، فقامت لهم امارة في حوض الفرات الاعلـــى من مرعش في الشمال الـــى منبج في الجنوب غربي الفرات ، ثم تمضـــي شرقـــي الفرات فتشمل بهسنا والرها وسروج . وكان تمركز بلدوين في الرها مما اعاق القـــائـــد السلجوقـــي (كربوقا) امير الموصل عن الوصول في الوقت المفيـــد لنجدة انطاكيـــة التي كان يحاصرها الجيش الصليبي الرئيســـي . ثم كان قيام هذه الامارة تهديدا متواصـــلا للموصل وما يتبعها مثل نصيبيـــن وماردين وحران ، وكذلك

لديار بكر وما اليها على اعالي نهر دجلة ، بل كان تهديدا ايضا لشمال العراق كله .

واذا كانت الرها اول دولة لاتينية تقوم ، فقد كانت كذلك اول دولة لاتينية تسقط . وبين قيامها وسقوطها ست واربعون سنة ، اذ كان سقوطها بيد عماد الدين ، عام ١١١٤ بعد حصار دام اربعة اسابيع .

صدى الفتح

كان لفتح الرها وقع عظيم هز النفوس بالبهجة والغبطة ، ولم يكن اجدر من الشاعرين ان يكونا صدى لما كان يعتمل في نفوس العرب من السرور وما كانت تجيش به قلوبهم من الامال العراض . لذلك رأيناهما يسجلان هذا الفتح بشعر يمكن ان نقول ان فيه ملامح الملاحم وجوهرها ، فان القيسراني يقول فيما يقول من قصيدة طويلة :

مدينة افك منذ خمسين حجة
يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الابصار حتى لو انها
ترقت اليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها
الى أن ثناها من يعز قياده

وكانت الرها حقيقة بهذا الوصف لانها ظلت طوال ما يقرب من خمسين سنة ، منذ ان عجز كربوقا عن فتحها وهو في طريقه لانقاذ انطاكية ، فاوقفه حصارها ثلاثة

اسابيــع بدون جدوى ، وكانت هذه الاسابيــع كافيـــة لوصوله الــى انطاكية والقضاء على الجيش الصليبيـــي المنهــوك الجائع المحطم النفس ، لو انه لم يتوقف عنـــد الرها فيتيــح بذلك للصليبيين استعادة معنوياتهم ودخول أنطاكيــة فلا يصل كربوقا الا بعد سقوطها ، ثم يعجز بعد ذلك عـــن استردادها فيكون فتحها فاتحة الشرور ومبــدأ الهزائم . ظلت الرهاطوال خمسيــن سنة منيعة ومصـــدرا للشر ، ومن هنا اوحت للقيسرانـــي بما اوحت من وصفهــا ثم بتصوير الشعور العربــي بالانتصار عليها .

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وان فــات العيــون اتقاده
وفتــح حديث في السمـــاع حديثه
شهي الــى يــوم المعاد معـــاده
اراح قلوبا طــرن مـــن وكناتهـــا
عليها فـــوافـــى كل صدر فـــؤاده
فيـــا ظفرا عـــم البلاد صـــلاحـــه
بمنكانقد عـــم البـــلاد فســـاده
ثم بمـــا احيا هذا النصر من الامال البعيدة :
ولله عزم ماء « سيحان » ورده
وروضة « قسطنطينية » مستراده
ومطلع هذه القصيدة :
هو السيف لا يغنيك الا جـــلاده
وهل طوق الاملاك الا نجـــاده
وهو مطلع خارج عن الاسلوب التقليدي الذي كـــان

يفتتح القصائد بالغزل ، وانمـــا هو مطلع مستمد من روح الملحمـــة متاثر بجوهرها ، وهكذا بقية المديـــح في القصيدة. فقد خرج عـــن كونه تعدادا لفضائل ابتذل تعدادها في كـــل ممدوح ، بل هو وصف لكفاح قاده الممدوح وحقق الظفر فيه ، وتعبير عـــن امال مكبوتة ، وهذا كله يعود الـــى جـــذور الملاحم واصولها .

وهذا عين ما نراه عند ابن منير الذي قال من قصيدة طـــويـــلة :

والرهـــا ان لـــم تكـــن الا الـــرها
لكفت حسمـــا لشـــك الممترين
هم « قسطنطيـــن » ان يفرعهـــا
ومضـــى لم يحو منها قسط طين
ولكـــم مـــن ملـــك حـــاولهـــا
فتحلـــى الحيـــن وشما في الجبين

ثم ينتقل الـــى الحديث عن نتائج فتحها واثر هـــذا الفتـــح عند الفريقين :

ان حمت (مصر) فقد قـــام لهـــا
واضح البرهان ان (الصين) صين
برنست رأس «برنس» (١) ذلـــة
بعدما جاست حوايا «جوسلين» (٢)
«وسروج» مذ وعت اسراجـــه
فرقت جمـــاعـــهـــا عنـــها عضيـــن

---

١ ـ هو امير انطاكيـــة يومذاك

٢ ـ هوجوسليـــنالثانـــي امير الرهـــا .

تلــك اقفال رمــاهــا أنله مــن
عزمه الماضــي بخير الفاتحيــــن
سل بها « حران » كم حرى سقت
بردا من يــوم ردت « مارديـــن »
سمطت امس « سميساط » بهــا
نظم جيــش مبهــج للناظريــن
وغــدا يلقــى علــى « القدس » لها
كلكل يدرســها درس الــدريــن

بعــد عمــاد الديــن

ويموت عماد الدين اغتيالا ويليه ابنه نــور الديـــن ويستطيع السيطرة علــى رقعة ممتدة من اعالــي دجلــة شــمالا الــى منابع الاردن جنوبا ، ويكون الشاعران لــه كمــا كانا لابيه ، ويصطدم نور الدين بالفرنج ويفوز عليــهم في معركة « انب » ويقتل « البرنس » صاحب انطاكيــة في المعركة ، وتتحقق بشارة ابــن منير المتقدمة « ويتبرنـــس » راس « البرنس » لا بالذلة وحدها بل بالمنية ، وهكذا نــرى كم كان ذلك الشعر صدى للوجدان العربــي والضمــــير الاسلامــي في تخيل الامال البعيدة والتلهف علــى المطامــح القصيــة . فقد كان « البرنس » كمــا يقول ابن الاثــير : « عاتيا من عتاة الفرنج » وكان الخلاص منه احدى اكبــر الامنيــات .

وقد رأينا كيف ان القيسراني كان يلوح في قصيدتــه الداليــة لا بالخلاص في الوطن فحسب بل بالنفاذ حتــى الى القسطنطينيــة :

ولله عزم مـــاء سيحان ورده

وروضـــة قسطنطينيـــة مستراده

كمـــا لوح ابـــن منير بالنصر علـــى البرنـــس ثـــم بالنفـــاذ الـــى القدس :

وغـــدا يلقـــي علـــى القدس لها

كلكل يـــدرسهـــــا درس الدريـــن

وتتالت بعد الرهـــا المراحل المرجوة مرحلة مرحلـــة وستظل تتوالـــى ولكـــن دون ان يقـــدر للشاعريـــن ان يعيشا ليريا تواليها ، اذ انهمـــا ماتا قبل نور الدين .

واستأثرت معركة انب ومقتل البرنس بشاعريـــة الشاعريـــن وقفزت بالمطامح من القدس والقسطنطينية الى روما نفسها فقال ابـــن القيسراني من قصيدة طويلة جـــرى فيها علـــى ما جرى عليه في القصيدة الدالية من الافتتاح بالشعـــر العسكري لا الغزلـــي :

هذي العزائم لا ما تدعـــي القضب

وذي المكارم لا ما قالـــت الكتـــب

وهذه الهمم اللاتـــي متـــى خطبـــت

تعثـــرت خلفها الاشعار والخطـــب

وفيهـــا يقـــول :

اغرت سيوفـــك بالافرنـــج راجفـــة

فؤاد « رومية » الكبرى لها يجـــب

قل للطغاة وان صمت مسامـــعها

قولا لصم القنـــا في ذكـــره أرب

اغركم خـــدعـــة الامـــال ظنكـــم

كم اسلم الجهل ظنا غـــره الكـــذب

اجسادهم في ثياب من دمائهـــم
مسلوبة ، وكــأن القوم ما سلبــوا
انباء ملحمة لــو انهــا ذكــرت
فيما مضــى نسيت ايامهــا العرب
فملكوا سلب « الابرنس » قاتلــه
وهــل له غير « انطاكية » سلـــب
فانهض الــى المسجد الاقصى بذي لجب
يوليك اقصــى المنى فالقدس مرتقب

ونحــن نلمس في هذا الشعر شيئا فوق المدح . اننا نلمس احساسا متأججا يثيره الذل الذي استحال عزا والهوان الذي عاد فتحا ، اننا نسمع اهازيج النصر راعدة مدويـــة وهتافات الظفــر صارخة متوعدة تزري بالغاصبيــن وتدل الــى هلعهم وتتغنــى بالراجفــة التــي وجب لها حتــى قلب (روميـــة الكبرى) القصية ، ويجــيء ذكر روما هنا طبيعيـــا سائغا ، لا نبو فيه ولا دلالة تبجح فارغ مستكره . ثم هذه الاشارة الــى الخطوة التالية المأمولة الــى (سلب الابرنس) ، هذا السلب الذي يسمو عن المادة ومغرياتها ، ان السلب في هذا الصراع الرهيب هو اغلــى ما ملـــك (البرنس) وقوم البرنس : « هو انطاكية » التــي كـــان سقوطها فاتحة السقوط العام وسيكــون نهوضها فاتحـــة النهوض العام ثم الطريق الــى المسجد الاقصى بالجــيش الهادر المزمجر ذي اللجب ، فالقدس ترتقب اهلها وتنتظرهم.

اننا نرى في هذا الشعر ، الشعب كله ينطلق في صوت واحد وشعار واحد : الــى الامام ، الــى انطاكيـــــة ،

الــى القـــدس ..
ينطلق بذلك لا غرورا وغباء ، وجهلا ، بل يقينـــــا وعقــلا وتفهمــا .

ويقول ابن منير من قصيدة طويلة افتتحها كزميله لا بالغزل بل بمــا يناسب حالة الكفاح التــي كانت فيها البلاد :

اقوى الضــلال واقفرت عرصاته
وعلا الهــدى وتبلجت قسمــاتـــه
فتــح تعممت السمــاء بفخــره
وهفت علــى اغصانــها عذباتــه
وسقــى « البرنس »وقد تبرنس ذلــة
بالروح ممقر ما جنت غــدراتـــه
تمشــي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مـــدار النيريــن قناتـــه

وتتابع الفتــوح ويلــي النصر النصر فينطلق ابــن منير حاملا في قصيدة واحدة قصص الاحداث متنقــلا من مكان الــى مكان :

اعدت بعصــرك هـــذا الانيــق
فتــوح النبــي واعصــارهــا
فجددت اســـلام « سلمانهـــا »
وعمــر جـدك « عمــارهــا »
ومــا يــوم « انـــب » الا كتيمـ
ـــك بــل طـــال بالبوع اشبارهـــا
ولمـــا هبـــبت « ببصرى » سمكـ
ـــت باهبـــاء خيلـــك ابصارهـــا

ويــوم علــى الجــون « جون السمـ
ـراة » عز نسعطهــا عــارهــــا
صدمت « عريمتهــا » صدمــــة
اذابــت مــع المــاء احجـــارها
وفي « تل باتـــر » باشرتهــم
بزحف تســـور اســـوارهـــا
وان دالكتهم « دلـــوك » لقــد
شـــددت نصدقـــت اخبارهـــا

واستمر نور الدين في صراعه مع الصليبيين واستمـــر الشاعران في تسجيل انتصارات نور الدين مما يمكن ان يعد مجمـــوعه ملحمة من الملاحم العربية وتاريخا شعريا لفترة معينـــة من فترات الحروب الصليبيـــة ٠

الشيخ جعفر الخطي شاعر الخليج

هذا الخليج الطيب ، الذي تطل منه مجلة « العربي » في مطلع كل شهر فتتلقفها الايدي العربية شغفة ، كان جديرا بمجلة مثل « العربي » لما في ماضيه من صفحات مشرقة بالعلم والادب والشعر ، وبما ساد في ربوعه من شغف بالمعرفة وتفوق في الفقه وتقدم في القريض ، وبما اطلع من كواكب مضيئة في سماء العرب على مر العصور ، وبما خلف افذاذه من تراث فكري زاخر .

انه بذلك كان خليقا بان يتابع مجرى ماضيه ، فيطلع على دنيا العرب باقباس من النور تضيء حوالك السبل وداجيات المسالك .

ما حققته مجلة العربي

وها هي ذي مجلة « العربي » اليوم تحقق لمحبي الخليج ، ممن خبروا ماضيه وعرفوا مآتيه ما تمنوه للخليج من دوام الماضي بقيادة نهضات طالما عرفها الخليج ، فمنذ ميثم البحراني ، واحمد المتوج ، وسليمان الماحوزي ، ويوسف آل عصفور ، وعشرات غيرهم كانوا في تاريخنا العلمي وتراثنا الادبي من انضر الوجوه وارفع الرؤوس .

منذ هؤلاء وغيرهم كانت القطيف يوما والاحساء يوما والبحرين يوما ، هي القاعدة والمنبت . طورا هذه وطورا تلك تسلم كل منها الزمام الى الاخرى او يتولينه معا . وها هي الكويت اليوم بمجلتها الرفيعة تقبض على الزمام وتحمل اللواء فيتفيأ ظلاله ، لا الخليج وحده بل العرب حيثما حلوا .

واذا كانت هذه المجلة قد حققت ما لم تحققه اضخم الجهود ، فألفت بين منازع الفكر العربي من اقصى شرقه الى اقصى غربه ، واذا كانت قد استطاعت ان تكون رسول الثقافة الاسلامية الى اناى ديار المسلمين . وبريد النهضة العربية في شتى ديار العرب . فانها في واقعها صورة لما كان عليه هذا الخليج ولما نحب أن يظل عليه منبروزفي ميادين الادب العربي ومجالات الفكر الاسلامي .

شعر الخليج

والشعر بخاصة كان له في هذا الخليج التفوق والاجادة منذ طرفة بن العبد واخته ، الى علي بن المقرب الاحسائي ، الى من ظلوا على طول العصور حتى هذا العصر ، شعراء من احب الشعراء الى قلوبنا واقربهم الى نفوسنا .

ومن خير ما اختصهم الله به في شعرهم هو هذا الوفاء لارضهم والحنين لبلدهم والتشوق لمولدهم ، ولعل ارادة الله شاءت ان تمتحنهم بالنزوح عن الاوطان والهجرة التي

شتــى البلدان ، لا لشر اريد بهم ، بل لخير اريد بشعرهم، فكان لنا منــه ذخيرة من اللوعة والوجد واللهفة ، تدفقــت شعرا رقيقا وقصائد صافية تلذ للسامع وتطيب القارىء .

فمنذ انشد طرفة بــن العبــد :

لخــولــة اطــلال ببرقــة ثهمــد
تلــوح كباقــي الوشم في ظاهر اليد
وقــوفا بها صحبــي علــي مطيهم
يقولون لا تهلــك اســى وتجلــد

وانشـــد :

وبنو بكـــر اذا ما اجتمــعوا
دوحة الحرب وجــرثوم الكــرم
وشـبــاب وكهـــول بيننــا
كليوث ضاريــات في الاجـــم
نــردع الجاهــل في مجلسنــا
فترى المجلس منــا كالحــــرم

ومنذ انشد قبلــه عمرو بن قميئة :

الــى دار قوم حسان الوجــوه
عظام القباب طوال العوالــــي
فوجهتهـــن الــى مهمـــــه
قليل الوغـــى غير صوت الرئال
سراعـــا ذرائــب ما ينثنيــن
حتــى احتللن بحــي حـــلال
بسعــــد بــن ثعلبــة الاكرمين
اهل الفضائل اهــل النــــوال

وانشد ابو زياد الكلبــي :

اراك الـــى كثبـــان « يبرين » صبة
وهذا لعمـــري لو قنعــت كثيـــب
وان الكثيب الفرد من ايمـــن الحمى
الـــــي وان لم آتـــه لحبيــــب
وانشدت الشاعرة الخليجية المجهولة :
ايا جبلـــي وادي « عريعرة » التي
نأتعـــن‌ثوى قومي وحم قدومهـــا
الا خليا مجرى الجــنوب لعلهـــا
يداوي فؤادي من جـــواه نسيمهـــا
منذ اولئك توالـــى الانشاد تغنيا بالخليج وتمدحـــا بظلاله وحنينا الى نخيله وتشوقا الى شطوطه . فانشد علـــي بن المقرب الاحسائي :
يــــا حبـــذا وادى « الحساء » وانه
لـــو ساءنـــــي واد الـــي محبـــب
بل حبـــذا « درب النليم » وحبـــذا
ذاك القطين بــــــه وذاك الملعـــب

ثم انشد ماجد الصادقـــي :
يا ساكنـــي « جد حفص » لا تخطفكم
ريب المنــــون ولا نالتكم المحـــــن
ولا عـــدت زهرات الخصب واديكم
ولا اغـــب ثراه العـــارض الهتـــن
الدهــــر شاطـــر ما بيني وبينكـــم
ظلمـــافكـــان لكم روح ، ولي بدن .
ثم انشد علـــي شبانه :

والـى « أوال » تروع قلبـي كلمـا
سرت الصبا من تلكـم الساحـات
والـى نواحـي ارضها وربوعهـا
ولما بها قـد مـر مـن اوقـات
وعراصها الفيـح التي قد طـرزت
اطرافـها ببواسـق النخـلات

ثم انشد علـي البحرانـي :

يا نسيـم الريح ان جئت « المقاما »
فابلغـن عنـي احباي السـلامـا
سفر قد صـار مـن اهوالـه
فيه كـل المستحبـات حـرامـا
طال حتـى ملـت الروح بـه
الجسم والقلب بـه حل « المقاما »

ثم انشد عبد العزيز المبارك :

طـال ليلـي في « ابي ظبـي » ولا
ظبـيلي فيه يضاهـي البدر حسـنا
واصحاب انا جيـب لهـم
اصبح المجـد كمـا شاؤوه قنـا
اوطنـوا « الاحساء » فارتاحت بهم
واكتسـى الدهر بهم زينا وحسنا
« بالقبيليات » لا زالت بـهم
جنة مـنها ثمـار الخيـر تجنـى
يا نداماي بذيـاك الحمـى
بلغ الله بكـم مـا نتمنـى

ثم انشد عبدالله عبد القادر :

لقد غادرت في « هجر » فـؤادي
وان امسـيت في ارض سـواهـا
بها اهلـي وجيرانـي وصحبـي
سقـاهـا الله مـن بلـد سقـاها

ثم انشـد علـي التاروتي :

سمعا مهفهفة « الهفوف » من « هجر »
انغمة الصـوت ذا ام رنـة الـوتـر
وذا الذي عطر الافـاق فائحـه
ترديـدنفسـكذا ام نفحـة العطـر

ثم قال الشيـخ عبد الحميد الخطي :

قالوا القطيف فقلت غايـة قصدنا
الـق المراسـي ايهـا الـربـان
السفـن اسراب تـروح وتغتدي
نـوعـان ذا وان وذا عجـلان
والشرع خافقـة الشعاع كأنمـا
نفضت جناحا في الفضـا العقبـان
يـا حسنه من منظر خلب النهـى
يعيـا برسـم جمـالـه الفنـان
ما عادني ذكر الشطوط وطيفها
الا وعـاد فـؤادي الخفقـان

ثم قـال عبد الرسول الجشـي :

ما زلـت لؤلؤة « الخليج » ولم يزل
للآليء (البحـريـن) ذكـر سـائر

وهـب الحياة ثـراك فهـي جنائن
وكسا الجمال ربـاك فهـي مناظـر
وتأشبت فاذا السبـاخ خمـائل
وتفتحـت فـاذا الرمـال ازاهـر
وتفجـرت فاذا الصخور جـداول
وتضاحكـت فاذا الخرير مـزاهـر
وتطاولت فـاذا النخيـل عرائس
وتخطرت فاذا الغصـون غـدائـر
دنيـا اقـام الفن فيها عـرسـه
وازيح عـن صور الجمال ستـائر

ثم قال فاضل خلف يخاطب البحرين :

بلاد اللآلي المشرقـات تقبلـي
شعوري وشعري والهوى يتدفـق
يجوب بنوك البحر هـذا مغرب
يسطـر امجـادا وهـذا مشـرق

فهل ترى ارضا عربية ذكرها اهلها وغنى بها شعراؤها بمثل ما فعل اهل الخليـج بخليجهم حين انشدوا في حنينهم شعرا تفجـره وطنيتهم ، ويبعثه وفاؤهم ، معبرين عما في الخليـج من المعيات واريحيات ، وممثلين طيب ارضـه وصفاء سمـائه وسؤدد ابنائه .

هكذا نرى الخليج على افواه الشعراء في كل العصور نغمـا عذبا وشدوا رقيقا ، خالدا ذكره خلود الادب دائـرا اسمـه في الناس ما دار الشعر وجال النثر .

الشيـخ جعفـر الخطـي

وهذا واحد من شعراء الخليـج ، بل هذا شاعـر الخليج في عصره ، ولد في مغانيه وتنقل بيـن اقطاره ثـم ترحل عنه فهفا اليه وتلهف عليه . ذاك هو الشيـخ جعفـر الخطـي المتوفـيسنة ١٠٢٨ هجرية : ١٦١٨ ميلادية لقـد عاش بيـن القطيف والبحرين ثم سافر الـى اصفهان حيث كان النابغة العربـي بهاء الديـن محمد العاملـي الذي جمـع الـى الحكمة والعلم ، الشعر والادب ، وقد كان لقاء العلميـن في اصفهان مجالا لتساجلهمـا بالشعر . فعارض الخطـى قصيـدة العاملـي التـي مطلعها :

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري
عهودا بحزوى والعذيـب وذي قار
فقال الخطـي :
هـي الدار تستسقيك مدمعك الجاري
فسقيـا ، فأجـدى الدمـع ما كان للدار
وفيها يحـن الـى الخليـج :
اموسم لذاتـي وسـوق مآربي
ومجنـى لباناتي ومنهب اوطـاري
سقتـك برغم المحل اخلاف مزنة
تلف اذا جـاشـت سهولا باوعـار

وتشاء الاقدار ان تنتهـي حياة الشاعـر في ايـران فيمـوت بعيـدا عـن الخليـج وارضه ، تلك الارض التي طالما تغنـى بها واشتاقها .

شعــره

اجمل شعر الخطي واخلده هو ما كــان صــدى لعواطفه ومظهرا لحنينه ، ففيما عدا الشعر التقليدي الذي عرفه كل الشعراء في تلك الفترات ، فان الخطي نظم فــي الحنيــن الــى القطيف حيــن هجرها الــى البحرين ، ثــم في الحنيــن الــى كليهمــا حيــن رحل الى ايران . وهو في كل ذلك يذكــر الاماكــن ويتشوق الــى المنازل :

هلا سألت الربع من « سيهات »
عــن تلكــم الفتــيان والفتيــات
ومجــر ارسان الجيــاد كأنهــا
فــوق الصعيــد مســارب الحيات
ومجــدفات السفــن ادنــى برها
مــن بحــرهــا ومبــارك الهجمــات
حيث المسامع لا تكــاد تفيق من
ترجيــع نوتــي وصــوت حــداة
ان « القطيف » وان كلفت بحبهــا
وعلــت علــى استيطانها زفرانــي
اذ حيث جزت رأيت فيها مدرجــي
طفــلا واترابــي بهــا ولداتــي
لاجل ملتمســي وغاية منيتــي
انــي اقيــم بتلــكــم الساحــات
فسقــى الغمــام اذا تحلب ركبــه
تلك الرحاب الفيــح والعــرصــات

واجتازت المزن العشار فطبقت
بالسقي من « عتك » الى « نبكات »

وهكذا فان « سيهات وعتك ونبكات » هي مطمح انظاره ومثار هواه ، ومرابع الخليج وما فيها من حياة بحرية برية تلتقي فيها اصوات الحداة باصداء النوتية ، وتمتزج مجاديف السفن بارسان الخيل ، ان حياة الخليج هذه يشغف بها شاعر الخليج فيصورها لنا ويحدثنا عنها فنرى في شعره صورة وطنه .

ولا عجب ففي الخليج درج طفلا ، وجال يافعا وشابا بين الاتراب واللدات كما يحدثنا هو في هذا الشعر الذي نحس انه شعر « خليجي » بكل ما في الخليج من طبيعة واحياء وحياة .

واذا كان وهو في البحرين يحن الى بلده الاول القطيف ، فكيف به وقد نأى عن كليهما ونزح عن الخليج وبعد عن « مجدفات سفنه » و « مجر ارسان خيله » وحل بشيراز سنة ١٠١٢ هجرية .

ان جواه في هذا ليطول ووجده ليثور فيقول :

يا هل ترون لنازح قذفت به
ايدي البعاد « لجد حفص » ايابا
لا تحسب « البحرين » اني بعدها
متبوىء دارا ولا اصحابا
ما أصبحت « شيراز » وهي حبيبة
عندي بأبهج من اوال « جنابا »

ولكن البحرين ليست وحدها الآن هي التي تشوقه

فهـو موزع الفؤاد في الخليـج كله ، فاذا ذكر البحريـن تداعـى الحنيـن عليـه من كل جانب ، فالقطيـف قبـل البحريـن كانت مدارج صباه وملاعب هواه ، انه لم ينسها وهو في البحريـن غير بعيد عنها ، اينساها وقد شطـت دارها وبعـد مزارها:

يا ساكني « الخط » في قلبـي لكم خطط
معمـورة بمعانيكـم مغانيهـا
يا هل ترون لمحنـي الضلـوع علـى
ذكر الديـار وقـوفا في محانيهـا
ماذا على الطير اذ أبلى الضنا جسدي
فخف لو حملتنـي في خوافيهـا
ان يقعـد الطير عن حملي لكم وسرت
ريـح الصبا فاطلبوني في مساريه .

وهكذا يتداوله الشوق من القطيف الـى البحرين الـى افيـاء الخليـج من حيث امتدت تلك الافياء :

عـج بالمطـي علـى معالـم (بوري)
لمحـل لذاتـي وربـع سروري
لم تجعـل العبرات خدي معبـرا
الا علـى مـري بهـا وعبـوري
هل لـي الـى تلـك المنـازل عودة
يخبـوبها وجـدي وفـرط زفـيري
يا من اسـير كـل يوم نحـوهم
كتبـي اذا اعيـا علـي مسـيري
آه وقل علـى (اوال) تأوهـي
فاذا جننـت بهـا فغـير كثـير

هيهات مـــا (شيراز) وافيـــة بمـــا
في تلـــك لـــي من نعمـــــة وحبـــور

ويظل يتشوق ويتأوه :

حمـــامات شيراز رفقـــا بنـــا
لهجتن بالنـــــوح مــــا عـــندنـــا
الا قـــل لسكــــان (وادي المحـــل)
هــــل وردوا في الهـــوى وردنـــــا
فيـــا هـــل علمتـــم وانـــتم هنـــاك
ما عنــدنـــــا فيكـــم هـــا هنـــا
فيـــا صاحبــــي والفتـــــى ربمـــــا
احال علـــى خلــــــه مـــا عنـــا

لسكــــان (ظهـــر منى) من (اوال)
اول مطـــــلبنـــــــا والمنـــــــى
الا رب قـــــوم ابـــاحـــوا لنـــــا
مـــــن الوصـــل اطيـــب ما يجتنى
وفيهم مـــن الحسن مــــا فيـــهم
فلـــم نـــر ذلـــــك مستحسنـــــا
يـــريـــدون سلواننـــــا عنكـــــم
وان كـــان ذلـــك لـــم يسلنـــــا
فــــلا تنكـــرن علينـــا الرحيـــــل
غــــداة نـــأى الركـــب عنكـــم بنـــا
فبالرغـــــم ان يستقــــل المحــــب
عمـــــن يحـــب وان يظعنــــــا

هذه ملامح من شعر شاعر الخليج الشيخ جعفر الخطي كان فيها وفيا للخليج برا به . وهذا الشاعر لا تقوم بالتعريف به هذه الصفحات القليلة ولكنها اذا استطاعت ان تدل عليه وتشير اليه فحسبها ذلك .

الشيخ محمد رضا الشبيبي

محمد رضا ابن محمد جواد بن محمد بن شبيب ابن ابراهيم بن صقر الجزائري(١) النجفي مولدا ومنشأ . وكان الجد الاعلى لاسرته اي الشيخ شبيب فقيها على طريقة المحدثين ، وهي الطريقة التي كانت ذائعة لدى فقهاء العراق في عصره . وقد سجل الشيخ شبيب نسبه بخطه على ظهر نسخة من كتاب الحدائق المشهور في الحديث . وهذه النسخة من جملة كتبه الموقوفة . وكانت ضمن محتويات مكتبة الاسرة .

نشأته ودراسته واساتذته

ولد في مدينة النجف عام ١٣٠٦ هـ ونشأ فيها ، وكذلك ختم القرآن قراءة فيها على سيدة صالحة مقرئة هي السيدة (مريم) البراقية وتعلم الخط على الشيخ هادي حصير (بتشديد الياء) وكان للمعلم المذكور كتاب يتعلم فيه الاحداث : وآ (حصير) بيت من بيوت النجف عرفوا بهذه المهنة مهنة المكتبيين او المؤدبين كما كانت تسمى في عصور الدولة العباسية مع ملاحظة الفارق البعيد في طبيعة هذا العمل وما كانت عليه في

---

١ ـ نسبة الى اقليم الجزائر المعروف من ملحقات لواء البصرة .

عصور المتقدمين ، وما آلت اليه في أزمنة المتأخرين .

اما علوم اللغةالعربية من نحو وتصريف وبلاغة وبيان فانه قرأها على اكثر من شيخ واحد في طليعتهم الشيخ (محمد حسن المظفر) ولعله اجل اساتذته في علم النحو ومن مشايخه في هذا العلم الشيخ محمد جواد الجزائري ، وكاناستاذا في فنون اللغة العربية . واما علم المنطق فانه قرأه على اكثر من استاذ كذلك ، في مقدمتهم السيد (مهدي الطباطبائي) من السادة المعروفين بآل بحر العلوم ، وكان السيد مهدي معروفا بحدة الذهن والذكاء الوقاد ثم على السيد حسين الحمامي قرأ عليه في كتاب (شرح المطالع) . والسيد هبة الدين الشهرستاني من اوائل اساتذته في المنطق قرأ عليه سنة ١٣٢٣ (كتاب الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد) وهذا الشرح من اجل شروح العلامة الحلي في هذا العلم اما المتن الذي يسمى (منطق التجريد) فهو من مصنفات الحكيم نصير الدين الطوسي وكان كتاب القراءة الاول الذي يدرس في (علم المنطق) كتابا موجزا يقال له (شرح التهذيب) لمصنفه المنلا عبدالله اليزدي ، اما متن التهذيب فهو من مصنفات سعد الدين التفتازاني ويقراون بعده اي بعد كتاب التهذيب (شرح الشمسية) المتداول في المنطق للقطب الرازي . اما متن الشمسية فهو من مصنفات عمر بن علي المعروف بالكاتبي القزويني تلميذ (نصير الدين الطوسي) اهداه الى (شمس الدين الجويني) وزير المغول ، ويعد الجويني كما لا يخفى من خيرة وزراء المغول الذين

عنوا بشؤون الاسلام والمسلمين في محنتهم بعد غلبةالقوم على الديار الاسلامية وهذا الكاتبي القزويني احد الحكماء الستة التي اختارهم نصير الدين الطوسي لمعاونته في تأسيس (مرصد مراغة) والمعهد العلمي وخزانة الكتب الكبيرةفي تلك المدينة المغولية وكان مؤرخ العراق ابن الفوطي مصنف كتاب (مجمع الاداب) في معجم الاسماء والالقاب قيما على مكتبة (المرصد) وقد عني في كتابه المذكور بتاريخ المرصد والمدرسة والمكتبة وكل ما يتصل بشؤون النهضة العلمية الكبرى في مراغة وتعد هذه النهضة من مآثر المغول في مستهل دولتهم في المشرق والعراق وقد عقد ابن الفوطي فصلا لطيفا في كتابه ترجم فيه للكاتبي القزويني الحكيم .

واما علم الفقه وعلم الاصول فقد قراهما المترجم على اكثر من استاذ ففي الاصول قرا كتاب المعالم للشيخ زين الدين العاملي وكتاب القوانين للقمي وفي الفقه قرأ كتاب شرايع الاسلام للمحقق الحلي وكتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية قرأه على الشيخ عبد الكريم آل الشيخ صالح الجعفري . وتخرج في الادب وعلومه على اشهر مشاهير ادباء تلك المدينة وفي طليعتهم السيد حسين عميد آل القزويني وكان شاعرا خبيرا بفنون الادب مجددا بعيدا عن الجمود يفضل دراسة الكتب القديمة الاصيلة على كتب المتأخرين .وعلى الشيخ هادي نجل الشيخ عباس من آل الشيخ جعفر الكبير .

وكان الشيخ الهادي اديبا ذواقة للشعر معنيا بروايته . وقد عني هذا الشيخ بشؤون التربية واقتنى مكتبة ثمينة غنية بالمخطوطات وقلما توثقت علاقة بين اثنين كالتي كانت بين والد المترجم الشيخ جواد والشيخ هادي المذكور . ولا عجب فان تلك العلاقة كانت ذات جذور عميقة يغذيها اخلاص متبادل وصفاء لا تشوبه شائبة . ولما توفي الشيخ عباس والد الشيخ الهادي سنة ١٣١٥ رثاه الشيخ جواد بثلاث قصائد تعد من عيون شعره وهذه القصائد الثلاث يشعر من يقرأها بمتانة تلك العلاقة ، فهي بمثابة تعبير جميل عن شعور صادق واخاء وثيق وصحبة اكيدة ، وقرأ المترجم في الادب ايضا على اساتذة آخرين عدا ما اخذه عن والده واقرانه في ذلك الزمان . وكانت تعقد في النجف مجالس تلقى فيها بحوث ودروس بشكل محاضرات في الفقه والاصول يختلف اليها عدد كبير من الطلاب ومن اشهرها مجلس يعقد للشيخ الملا كاظم الخراساني الاستاذ المدرس المشهور في علم الاصول وآخر يعقد للشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة وهو خاص بالبحوث الفقهية وكان الشبيبي يختلف الى هذه المجالس العلمية .

عمله في الاصلاح

وكان ذلك كله في اواخر عصور الدولة العثمانية . اي قبل نشوب الحرب الكونية الاولى . وهو عصر امتاز بيقظة فكرية ظهرت في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ومن جملتها العراق . وكان هدف تلك اليقظة المطالبةباصلاح

شؤون الدولة حيث اسهم المترجم له مع شباب ذلك العصر من عراقيين وغيرهم في الدعوة الى الاصلاح . ثم كانت له جولات معروفة في الصحافة خصوصا السورية والمصرية ومن يتصفح بعض صحف مصر وسورية ولبنان والعراق الصادرة في ذلك العصر يقرأ له فيها شعرا اجتماعيا او سياسيا غير قليل ومقالات ادبية وتاريخية ولغوية وكان لجمهرة المتأدبين شغف بالغ بقصائده وحفظها وروايتها في تلك الفترة حمل المترجم لواء الدعوة الى الاصلاح السياسي والاجتماعي في شعره ونثره منذ نشأ وكانت له رسالة من هذا القبيل في بلاد العرب والعراق وفي اقاليم الامارات خاصة .

ويقول مؤرخو الادب العراقي الحديث انه من اوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره بين شعراء العراق واولهم على الاطلاق بين شعراء النجف . وكان ذلك حوالى سنة ١٣٢٠ للهجرة (١٩٠٥) كما كان عمره اذ ذاك حوالي الخمس عشرة سنة . واشهر الصحف والمجلات التي نشرت ما نشرت له من منظوم ومنثور في ذلك الحين : المقتبس (مجلة وجريدة في دمشق الشام) والبرق البيروتية ومجلة العرفان ومجلة الزهور المصرية وصحف عراقية اخرى معروفة ، وله ديوان شعر عنوانه (**ديوان الشبيبي**) طبع في القاهرة سنة ١٩٤٠ .

بحوثه ودراساته

وللشبيبي دراسات وبحوث تاريخية وادبية وسياسية

بعضها مطبوع واكثرها مخطوط من ذلك بحث عنوانه (فـن التربيـة في الاسلام) القاه علـى طلبة كلية التربيـة ببغداد سنـة ١٣٧٧ ــ ١٩٥٨ ودراسـة في اللغة عنـوانهـا (اصول الفاظ اللهجة العراقية) واخرى في الادب موضوعها ادب المغاربة والاندلسيين في اصوله المصرية ونصوصـه العربية(١) وهـي محاضرة القاها علـى طلبة معهـد الدراسات العربية العالية في القاهرة هذا الـى بحوث غير قليلة في التاريخ والادب واللغة القيت في دورات مؤتمـر المجمـع اللغوي في القاهرة وعددها خمس عشر دورة.وقد نشرت محاضر الدورات المذكورة وفيها امثلة مـن تلـك البحوث والمحاضرات . واخر مجهود ظهر له كتاب عنوانه (رحلة في باديـة السماوة) نشرت اخيرا في بغداد .

مساهمته في الحرب الاولـى

ولما اعلنت الحرب الكونية الاولـى واندلعت في العراق سنة ١٩١٤ شارك في هذه الحرب الى جانب الجيش العثماني وحضر معركة الشعيبـة الطاحنـة التـي خذل فيها الجيش المذكور ، ومـن ثم انتحـر علـى الفور قائده امير اللواء (سليمان عسكري) وكان الـى جانب القائد المذكور في ميدان الشعيبـة ابان هذه الحادثة النكراء . ومن ثم عاد مع فلول الجيش المتقهقـر الـى مدينة الناصريـة .

كان القائد سليمـان العسكري شجاعا مقداما غـير انه لم يزود بمعلومات كافيـة عن معاقل الانكليـز ومناعتها

---

١ ــ طبـع كتاب ادب المغاربة والاندلسيين في القاهرة سنة ١٩٦٠ .

في ميدان الشعيبة ، ولذلك خابت محاولاته في الاستيلاء على المواقع المذكورة ومني الجيش بخسائر كبيرة بعد هجمات انتحارية ضارية اشرف عليها سليمان عسكري القائد العام بنفسه ، وكان المترجم له معه فعلا في ذلك الميدان وقد خصص له سلاح وركوبه . ولمشاركة الشبيبي في حرب (الشعيبة) الناشبة بين البريطانيين والاتراك في العراق قصة نادرة لا يخلو ايرادها من فائدة وذلك على الصورة التالية :

كانت رياسة هيئة اركان الجيش التركي انشأت في بغداد سنة ١٩١٤ مدرسة عسكرية عالية سميت (مدرسة ضباط الاحتياط) حشروا ممن حشروا فيها فريقا من طلبة المدارس الدينية ، وكان الشبيبي من بينهم ، كما كانت التركية لغة التعليم في هذه المدرسة ومعظم الاساتذة ضباط اتراك كان تدريبهم على جانب من العنف والشدة ، على ان الشبيبي استطاع اقناع السلطات التركية ببغداد باستثناء طلاب المدارس الدينية واعفائهم من الانتساب الى مدرسة الضباط فصدر الامر بتسريحهم على ان يلتحقوا بفرق المجاهدين المتطوعين في تلك الحرب وجلهم من افراد القبائل العراقية عربا واكرادا فالتحق في بعثة مرسلة الى عشائر الاكراد في الجنوب قوامها فريق من رجال الدين وضباط الجيش اتجهت من مدينة (بدرة) الواقعة على واد يسمى وادي (بادرايا) الى المنطقة الجبلية الواقعة شرقي العراق وسكانها من الاكراد التابعين لايران وذلك لمنع الانكليز واعوانهم من التغلغل

الـــى تلـــك الجهة من منطقة البصرة والاهواز وتطويـــق الجيش التركـــي المحارب في مواقع الكــــوت والفلاحيـــة المشهورة ، وهناك اجتمع بامير الاكراد الذي استجاب الى الطلب وتعهـــد بان يقف سدا دون تسرب طلائع البريطانيين علـــى شرط تزويده بالسلاح وبمبلغ من المال وقد زود فعلا بذلك وقد تم الاجتمـــاع بهذا الامير الكردي في مخيـــم له على ضفاف واد عريض يسمى (باكسابا) وكانت ضفاته خصبة مزدهرة وهذا الوادي ووادي (بادرايا) الذي قبله ينحدران من سفوح الجبال الشرقيـــة او الكردية المذكورة ويمران في السهول حتـــى مصبهمـــا في نهر دجلة وهمـــا تابعان اداريا للواء العمـــارة . وجل الزراع العامليـــن في هذه الجهـــات ينتمـــون الـــى بنـــي لام . يقول الشيخ الشبيبـــي في بعض ما كتبه : وقد سرنا علـــى ضفاف الواديين من سفوح الجبال حتـــى السهـــول المنتهيـــة بشواطـــىء دجلة ولا تخلو كتب البلدانيين من ذكر (بادرايا وباكسابا) ومن ذلك معجـــم البلدان لياقوت . وبعد مكث الشبيبـــي مدة في تلك الجهات دعـــي ببرقية تدعوه الـــى مرافقة هيـــئة القيادة العامـــة للبعثة العسكرية المجهزة لاسترداد البصرة ، وكانت قـــد وصلت الـــى مدينة الناصرية ولا مناص له من المرور علـــى مدينة (الكوت) وعلـــى الغراف في طريقه الى الناصريـــة وهـــي مسافة بعيدة ، وكانت الطرق كلها مغمورة بالمياه في فيضان قلما شهـــد العراق نظيره بل اصبحت اليابســـة وكأنها بحر لا ساحل له فاضطر ان يخوض الماء علـــى ظهر جواده حتـــى مدينة (الكوت) وكانت مهددة بالغرق وواصل رحلتـــه منـــها بطريق الغراف حتـــى التحق بمقر قيـــادة

الجيش التركـي وقائده امير اللواء (سليمـان عسكري)
وصادف امير اللواء سليمـان عسكري وهيئة اركـان حربه
علـى شاطـىء الفرات في الناصريـة وهم على اهبـة
الحركـة الـى (الشعيبـة) بطريق بحيرة الحمّـار وفي
زوارق بخارية فاستقبلوه في زورق القائد العام وانحـدرت
السفـن الـى سوق الشيوخ ومنها الـى منطقة الاهوار
والبطائـح المشهورة حيث اجتازوا في المنطقة علـى سدود
زراعيـة يقيمها الفلاحون وتوهم الاتراك لسوء فهمهم ان
غرض الفلاحيـن سد الطريق علـى سفنهم وكانوا علـى
اهبة الاشتباك بالسلاح مع اولئك الفلاحيـن ومرد ذلـك
الـى نزق التركـي وهوسه فاسرع الشبيبـي الى الفلاحين
وطلب الـى الفعـلة بلطف ان يخلو الطريق للزوارق التركية
ولمركب القائد وافهمهم بان الجيش ذاهب للدفاع عـن البلاد
وان القائد العام من جمـلة ركاب الزوارق ففتحوا الطريق
وانحدرت السفـن في طريقها الـى ساحل البطائح الـى
معسكر (النخيلة) وهو قاعدة جيش الاتراك المنظم وفرق
المجاهديـن او المتطوعيـن العراقيين وقد اربـى عددهم
علـى ثلاثيـن الفا وكانت بعض الزوارق البخارية المذكورة
تقطر سفنـا شراعيـة موسوقة بخبز عفن مسود تعافـه
النفس وحسبك هذا دليلا علـى حالة المؤن والتموين ولـم
يخل مركز القيادة يومئذ من ضباط المان يغلب عليهم ضرب من
الوجوم والوحيرة وكان القائد العام سليمان عسكري قـد
امر بحشد الجيش فعلا في الخطوط الامامية من ميـدان
الشعيبـة وذلك في خطة مرتجلة غير مسبوقة بتبصر وروية ،
وامر بمهاجمة معاقل البريطانيين فيها ولم يعلم بحصانتهـا

ومناعتها الا بعد فوات الوقت وقد اسفر الهجوم عن خيبة مريرة وتراجع الجيش بخسائر فادحة . ومن ثم انتحر القائد العام في مأساة معروفة ، وكان اليأس من نجاحه في ادارة رحى المعركة سببا في انتحاره ، ولو بقي هذا القائد حيا لاسر فيمن اسر من ضباط وجنود في تلك المعركة الضارية. فان الجيش البريطاني شن هجوما مقابلا طوق فيه ذلك الميدان . اما المجاهدون او الذين سموا كذلك من افراد القبائل فكانوا اسرع من غيرهم الى الهزيمة .

وقد طورد المنهزمون بسيارات مصفحة ظهرت لاول مرة في حرب العراق حتى قاربت قاعدة الجيش التركي في النخيلة وكانت تطلق نيرانها الحامية في اقفية المتراجعين من افراد الجيش والمجاهدين وفي مساء ذلك اليوم شرع الاتراك بالانتقال الى قواعد جديدة في المنتفك لم تصمد ايضا ازاء تقدم البريطانيين وكان ظفر البريطانيين في الناصرية على الفرات ، وفي العمارة على دجلة مفتاحا لاكتساح العراق برمته . وكان امير اللواء سليمان عسكري يعتمد في ميدان الشعيبة على قائد باسل مثله اسمه (حمد بك) عهد اليه بادارة رحى المعركة وقيادة الهجوم في الخطوط الامامية الذي استمر يومين بدون انقطاع وبدون جدوى ايضا فاستدعاه سليمان عسكري من خط النار والحرب دائرة بعنف وسأله عن مصير الهجوم فكان الجواب والشبيبي يسمع ان معاقل العدو في غاية المنعة ومنذ تلك اللحظة قرر القائد العام سليمان عسكري الكف عن مواصلة الهجوم.

---

١ — راجع وصف معركة الشعيبة في ديوان الشبيبي ، طبع القاهرة .

وامر تحت جنح الظلام بالتقهقر الى قاعدة الجيش في غابة (البرجسية) الواقعة في ضواحي مدينة (الزبير) والغابة كلها من شجر الاثل والطرفاء .

بعد انتهاء الحرب العامة الاولى

ولما عقدت الهدنة العامة سنة ١٩١٨ اي بعد انتهاء الحرب الكونية الاولى باندحار المانيا وحليفتها تركية وعقب احتلال العراق قام المحتلون بانشاء حكومة قوامها فريق من ضباط الجيش .

ولم يحسب للشعب العراقي حساب في تأليف هذه الحكومة ، ومن ذلك التاريخ شرع العراقيون بمقاومة تلك السلطة الاجنبية وبدأوا يطالبون الانكليز بالجلاء والوفاء بعهودهم التي قطعوها للعرب بشأن حقهم في تقرير المصير . وهذه العهود عبارة عن مراسيم اصدرها في العراق قادة الحلفاء واذاعوها مذيلة بتواقيع رؤساء حكوماتهم بعد تقهقر الاتراك في ميدان الحرب العراقية الى شمال الموصل واحتلال بغداد . وفي هذه المراسيم ما فيها من الاماني المعسولة والمواعيد الخلابة في اسداء العون للعرب في كفاحهم لنيل حريتهم وبعث تراثهم المجيد في الحضارة . والح العراقيون على الانكليز بان تتكون في العراق حكومة مستقلة ذات سيادة . وكان للشبيبي في هذا العهد جهود معروفة في مقاومة دسائس المحتلين والمطالبة بما قطعوه للعرب والعراقيين من عهود ووعود . ولما اضطرت حكومة لندن الى تكايف

نائب الحاكم السياسي العام في العراق السر (ارنولدولسن) باستفتاء العراقيين . وجه الحاكم العام المذكور بواسطة حكام الاقاليم من الضباط السياسيين اسئلة معينة الى اهل العراق في اجتماعات كانت تعقد في مكاتب الحكام المذكورين ويشهدها فريق من الوجوه والزعماء وكان السؤال الاول عن جنسية الحاكم الذي يريدونه والثاني عن شكل الحكم . والثالث عن حدود العراق، فكانت اجوبة العراقيين مغايرة تماما لرغبة الانكليز .

طالب الشبيبي في الاجتماع الذي عقد في مدينة النجف بحكومة دستورية يرأسها ملك عربي . وعبر بذلك عن رغبات احرار العراق على صورة اثارت امتعاض الحاكم العام فقاطعه في تلك الجلسة ضاربا — اي الحاكم — بقبضة يده على المنضدة ولكن بدون جدوى والواقع ان اشق ما كان يشق على البريطانيين يومئذ هو ذلك الشعور الحي بالكرامة لدى ابناء العراق الاحرار ولنا ان نقول ان جملة من الحوادث التي اريقت فيها الدماء نشأت في العراق عن خشونة في اللهجة او عجرفة استعمارية في اللقاء اعتبرها الجانب العراقي جارحة لكرامته ، ماسة بشرفه وهكذا فان الشعور الحي بالكرامة ونزعة الاستعماريين المعروفة في الشموخ والكبرياء ضدان لا يجتمعان وما اكثر الشواهد على ذلك، في احداث العراق خلال فترة الاحتلال . ولا حاجة الى القول بان للشبيبي مواقفه المعروفة في هذا الدور الخطير من ادوار الكفاح بين الشعب العراقي والسلطة

المحتلة خصوصا في بعض المراكز المعروفة كالحلة وكربلاء والنجف والديوانية وبغداد فان الروح الوطنية التي بعثت يومئذ كانت قائمة على نشاط عدد من العلماءورجال الدين والوجوه والزعماء والشباب في المدن والارياف المذكورة . وكان هو في طليعتهم . هذا ولما اخذت السلطات الانكليزية المحتلة تماطل وتسوف في تلبية مطالب العراقيين والاعتراف بحقوقهم المشروعة ، وقد اعلنوها وطالبوا بها مرارا خصوصا بعد اجراء الاستفتاء الذي تقدم ذكره . ولما كان قادة الثورة العربية في سورية والحجاز يجهلون ما يجري داخل العراق من صراع عنيف بين احرار البلاد والسلطات الانكليزية . وكان من الضروري اعلام زعماء العرب خارج العراق بحقيقة الحال هناك ـ فكر صاحب الترجمة بأن يقوم بهذه المهمة . وفاتح بذلك فريقا من اصدقائه وزملائه العاملين من علماء ورؤساء وغيرهم من الشباب الناهض واقنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكرة فوافقوا على رايه .

رحلته الوطنية

ومن ثم قام برحلته الى البلاد العربية منتدبا عن العراقيين لدى الحكومتين العربيتين في مكة المكرمة ودمشق الشام اذ ذاك . وزود بوثائق مذيلة بتواقيع زعماء البلاد وعلمائها وقادة الرأي العام فيها تضمنت انتدابه ليمثل العراق لدى الحكومتين المذكورتين وابلاغهما رغائب العراقيين وايقافهم على الاحوال الجارية في

العراق . وقد بارح العراق في اواخر سنة ١٩١٩ الى مكة المكرمة سالكا طريق البادية من البصرة الى (جبل شمر) في الديار النجدية فالمدينة المنورة . ومن المدينة الى مكة .

وقد قاسى الامرين في هذه الرحلة الشاقة وصحب قافلة من البدو المسلحين واجتمع فور وصوله الى مكة بشريفها الحسين بن علي ملك العرب اذ ذاك وبانجاله الامراء ومنهم (علي) و (عبد الله) في مكة المكرمة وهذا هو ثاني اجتماعله بهم اما الاجتماع الاول فقد كان في الوادي الذي يسمى (وادي فاطمة) على قيد مرحلة من مكة في مخيم لهم هناك وكان الجميع بلباس الاحرام ، ولا يخلو وادي فاطمة من خصب وفيه بساتين يرويها جدول صغير ينحدر الى الوادي في شبه قناة او صهريج من الطائف .

في الحجاز

واستقبله الملك حسين في قصر الامارة بمكة وخلا به حيث قدم له ما معه من الوثائق . وتحدث اليه واطلعه على حقيقة الاحوال في العراق ، وان العراقيين يعانون كثيرا من الضيم والارهاق تحت ادارة الاحتلال . ويطالبون اشد المطالبة بالحرية والاستقلال وانهم مستعدون لحمل السلاح واعلان الثورة والتضحية في هذا السبيل بنفوسهم ونفائسهم كما وقع ذلك فعلا . وقد طلب الشبيبي الى الملك حسين ان يبذل جهده في سبيل تحقيق مطالب الشعب العراقي ، وتكليف رسله

وممثليه في مؤتمر الصلح الذي كان ملتئما في باريس بذلك . وكان (فيصل) يعاونه شباب اكفاء من السوريين وغيرهم يمثل والده في المؤتمر المذكور ، فما كان من الملك حسين الا ان اعلم فيصلا بالوضع الراهن في البلاد العراقية وبان يدافع عن حقوق العراق في مؤتمر الصلح استنادا الى تلك الوثائق التي تسلمها من الشبيبي في مكة المكرمة وقد ادعى بعضهم انها لم تصل اليه والواقع انها وصلت كما اخبره بذلك فيصل نفسه في الشام . ثم ان الملك حسين كتب بهذا المعنى رسائل اجاب بها العراقيين من علماء وزعماء واعلمهم بتسلم الرسائل والوثائق التي حملها الشبيبي ووعدهم وعدا قاطعا في كتبه بانه مستعد للتضحية بنفسه وعرشه في سبيل استقلال العراق بحدوده المعلومة . وقد وفى الحسين بوعده فانه توفي بعد ان اخرج من مكة واضطر للتنازل عن عرشه بسبب صلابته وثباته وهو الان يرقد في مثواه بفلسطين تغمده الله بالرحمة . وقد وصلت رسائل الملك حسين هذه الى كافة من كاتبه من قادة الثورة في العراق حملها اليهم حجاج عراقيون بناء على طلب الشبيبي . وبعد ان اقام الشبيبي مدة لا تقل عن ٤٠ يوما في مكة بارحها الى المدينة المنورة ومنها استقل القطار وكان بحالة يرثى لها من الخراب بعد الثورة وذلك الى حدود الشام . فلا جسر ولا مرافق اخرى ولا مستخدمين حتى ان رحلة القطار بين المدينة ودمشق استغرقت خمسة وعشرين يوما وهي لا تستغرق في العادة اكثر من ثلاثة ايام . هذا ولبعض الضباط البريطانيين فيما يقال ضلع في ذلك الدمار .

في دمشق

وفي دمشق اجتمع بالملك فيصل بعد عودته من لندن وبقادة الحركة العربية من عراقيين وسوريين وفلسطينيين وغيرهم وتأكد لديه منهم وصول تلك الوثائق العراقية . وهكذا مثل العراق في عدة جمعيات ومؤتمرات من اشهرها المؤتمر العراقي الذي التأم في الشام سنة ١٩٢٠ونادى – اي المؤتمر – على رؤوس الاشهاد باستقلال العراق استقلالا تاما على ان تقوم فيه حكومة دستورية . وتوجد وثيقة هذا المؤتمر مذيلة بتوقيع اعضائه من العراقيين المقيمين في سورية يومئذ ومنها توقيع الشبيبي ، هذا وقد اقيمت في دمشق وغيرها من الحواضر السورية كبيروت وصيدا في ذلك الحين حفلات تكريمية له . وقد انتهز فرصة وجوده في سورية فراح يدافع عن حقوق العراق ، وله في هذا المضمار مقالات وقصائد معروفة نشر منها في الصحف والمجلات الصادرة في دمشق وفي بيروت وصيدا في ذلك الحين ثم في ديوانه المطبوع . هذا ولا بد لنا من القول ان الشبيبي كان طول مكثه في الديار السورية يراقب تطور الوقائع والاحوال في الدولة المذكورة ، وقد تجلت في ذلك الحين نوايا الحلفاء وبيتوا غدرهم بالعرب وان البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية قسمت الى (مناطق نفوذ) بين انكلترة وفرنسا ، فكانت البلاد السورية من نصيب فرنسا ، ولذلك غادرها الانكليز الى فلسطين .

غدر الحلفـاء

فوجهت فرنسا انذارا نهائيا الـى الملك فيصل بالنزول علـى مطالب الحكومة الفرنسيـة المنتدبة من قبل عصبة الامم علـى سورية ، وكانت الحكومة تميـل الـى الدخول في المفاوضات مع الفرنسيين اما الشعب السوري فقد هاج وماج وثارت ثائرة السوريين وتوالت المظاهرات في دمشـق كمـا شهدها المترجـم بنفسه في احياء دمشق وجـاءت الجمـوع الـى قصر الملك فيصل في حـي (المهاجريـن) و (الصالحيـة) تطالب وتهتف بحيـاة العرب ورفـض الانتداب والمطالب الفرنسيـة . ولما لم تتلق الحكومـة الفرنسيـة جوابا من حكومة دمشق امرت جيوشها المرابطة في لبنـان بالزحف فزحفت بقيادة الجنرال (غورو) واجتازت حدود المملكـة ووقعت الواقعة المعروفة بيـن السوريين والفرنسيين .

وقعـة ميسلـون

وكانت قيادة الجيش السوري للبطل (يوسف العظمة) وقد قتل في واقعـة (ميسلون) وشاهد الشبيبي وقلبه يتفطر الما نكوص المجاهديـن من ابناء الشام واندحارهم في الواقعة المذكورة كمـا شاهد دخول الجنرال غورو الـى مدينـة دمشق دخول الظافر الفاتح فاخترق الشوارع الـى سـوق الحميدية فالجامع الاموي ومنه اتجه الى مقبرة (صـلاح الديـن) علـى شكل يشعر بضرب من التشفـي والانتقام . ولا بد لنا من القول ان سلطات دمشق كانت كمـا يقـول

الشبيبـــي قد عرضت قيادة الجيش العامة في ساعة المحنة على بعض الضباط العراقيين المعروفين فاعتذروا بعد قيامهم بالكشف على وحدات ذلك الجيش وتفتيش الثكنات قائليـــن ان جيش دمشق او ما يسمـــى كذلك في ذلك الحيـــن لا يعول عليه ولا يعتد به كمـــا وكيفا كما تحدث الـــى الشبيبـــي بذلك (ياسين الهاشمي) وهو اي الهاشمي ممن عـــرضت عليـــه رياسة (ديوان شورى الحرب) فاعتذر بعد جولة قام بها في المعسكرات والثكنات واجتمـــع على اثرها بالشبيبـــي في منزله بصالحية دمشق واعرب له عن رأيه بكفاءة ذلـــك الجيش ، ومن ثم ركـــن الـــى العزلة ، وكانت عزلة هـــذا العسكري العراقـــي المعروف سببا في مجاملة الفرنسيين المحتليـــن له ، وهناك اسباب اخرى لهذه المجاملة ومنها ان (ياسين الهاشمي) كان يكن ضربا من الولاء للاتراك خلافا لغيره من الضباط العراقيين الذيـــن شاركوا في ثورة العرب عليـــهم بزعامة الملك حسيـــن وانجاله ، وفي هذا الصـــدد يقول الشبيبـــي : كنا نلاحظ انزعاج الانكليز من اسناد بعض المناصب اذا اسندت اليه اي الهاشمي ياسين . والخلاصة كان (ياسين) يتردد على الشبيبي في منزله (بالصالحيـــة) وكانا متجاوريـــن في تلك الضاحية وما اكثر عدد الذين كانوا يترددون علـــى الشبيبـــي في ذلك المنزل من ابناء دمشـــق ولبنـــان والعراق وغيرهم(١) .

---

١ ــ ومن وحـــي هذه الاحداث نظم قصيدته (دمشق وبغـــداد) المنشورة في ديـــوانه .

عوده مـن الشـام

هذا وقد آثر العودة من دمشق الـى الوطن غـور الاحتـلال الفرنسـي وذلك قبل غيره من ابناء العـراق وبعد ان مكث في ارجاء الشام مدة سنة كاملة ، وفي هـذا الصدد يقول : (رغب الـي (ياسين) وهو يودعنـي ان لا تنقطـع المراسلة بيننا واتفقنـا علـى استخدام ضرب مـن الاشارات الرمزية في الكتابة في محاولة لكتمـان الاسرار عن علم السلطات المحتلة الغاشمة وسماسرتها في العـراق والشـام) .

ولم تطل اقامة الشبيبـي بعد ذلك في سورية فبارح دمشق في خريف سنة ١٩٢٠ عائدا الـى العراق بطريـق البادية علـى ظهور الجمال(١) ، وقد قطعوا المسافة بيـن دمشق وبغداد في خمسة وعشريـن يوما ووصل بغـداد مع رفيق له من الضباط العراقيين متنكريـن ووجد كثيرا من اصدقائه مبعديـن الـى خارج العراق او معتقليـن داخل البلاد ، او مشرديـن . ولما اطمأن في بغداد اتصل باهله واخوانه واجتمـع بكثير من قادة الرأي ورجال الاحـزاب والجمعيـات السياسيـة .

في العـراق

هذا وفي هذه الفتـرة الصاخبة من تاريخ البـلاد ظهر للجميـع ان الانكليـز لم يجدوا بدا من انهاء عهد الاحتلال . والموافقة على قيام دولة مستقلة ذات سيادة وفقا لما تقرر في

---

١ ــ في وصف هذه الرحلة كتب رسالة تعتبر من اطرف ما كتب في الرحلات

مؤتمـــر القاهـــرة الذي عقـــد سنة ١٩٢١ حيث مـــثل ثرشل وغيره من البريطانيين الحكومة الانكليزية ومثـــل العراق كل من السر ساسون حسقيل والسيد جعفـــر العسكري ، وفي صيف السنة المذكورة وصل فيصل وحاشيته ومن جملتهم رستـــم حيدر علـــى باخرة انكليزية اقلعت بهم من جدة الـــى البصرة . ومنها توجهوا علـــى السكـــة الحديد فمروا في طريقهم بالديوانية والحلة وكربلاء الـــى النجـــف وارياف الفرات وهـــي قلب العراق النابض وعرين الابطـــال الاشاوس الذيـــن اذاقوا قوى المحتليـــن في الرارنجية والرميثة والشامية وابـــي صخير وغيرهما مـــا اذاقـــوه ، وضحوا بارواحهم وجميـــع ما ملكت ايديهم في سبيـــل حرية البلاد وكرامتها ، وكان لفيصل باعتباره ثائرا عربيا استقبال باهـــر يعجز التعبير عن وصفه في تلك المدن المجاهدة ، وقوبل بمظاهرات ترحيبية كبيرة وخطب ثوريـــة بليغـــة كمـــا انه القـــى عدة خطب في تلك المناسبات ،وكان الشبيبـــي يجتمـــع بفيصل وصحبه طول مدة اقامتـــه فـــي تلـــك الجهات وخصوصا في النجف وبغداد بعد وصولـــه اليها ولا يضـــن عليـــهم بالنصح ومواجهتهم بالواقع ، ولمـــا نودي بفيصل ملكا علـــى العراق في تلك السنة كان يستدعيه ويستشيره في الامور المهمة ، وقد رشـــح لاشغال بعـــض المناصـــب العليـــا في اوائل ايام العهد الفيصلـــي ولكنـــه كان يعتـــذر ويفضل الانقطاع للدراسة والتأليف الـــى ان كانت سنة ١٩٢٤ وفيها عهد الـــى ياسين الهاشمـــي بتأليف وزراته الاولـــى فابرق اليه وهو مقيم في النجف قائلا

انه يسره التعاون معه وان يشغل منصب وزارة المعارف في الوزارة الهاشمية .

في مناصب الدولة

فتردد كثيرا في قبول الوزارة ولكن الحاح اصدقائه في بغداد والنجف اضطره الى القبول فاشغل منصب هذه الوزارة فترة لا تزيد على سبعة اشهر ، ولما عرضت اتفاقية النفط على مجلس الوزراء وكانت من الاتفاقيات المجحفة بحقوق العراق اقترح تعديل بعض بنود الاتفاقية على اساس يكفل للعراق في زيادة العوائد المالية فلم يجد من يعضده . وفي جلسة خاصة بينه وبين الهاشمي سأله عن موقفه الاخير من الموضوع فقال الهاشمي ان ابرام هذه الاتفاقية من واجب وزارته . وعلى اثر ذلك غادر الجلسة وذهب الى مكتبه في ديوان الوزارة وبعث بكتابه الذي يستقيل فيه من الوزارة لانه يرى ان الاتفاقية مجحفة بمصالح العراق . وقد تقلد الشبيبي منصب وزارة المعارف خمس مرات وان لم تكن مدة الاستيزار طويلة فيها ففي سنة ١٩٢٤ تقلدها كما قلنا اول مرة ، وتقلدها مرة ثانية سنة ١٩٣٥ وثالثا سنة ١٩٣٨ ورابعا سنة ١٩٤١ وخامسا سنة ١٩٤٨ واختير سنة ١٩٢٥ عضوا في مجلس الاعيان وانتخبه هذا المجلس رئيسا له سنة ١٩٣٧ وقد رشح في الانتخابات النيابية فكان عضوا في المجلس النيابي غير مرة وانتخب رئيسا للمجلس النيابي سنة ١٩٤٣ وامضى سنة في الرياسة ثم اعيد انتخابه لرئاسة المجلس المذكور

سنـــة١٩٤٤ ولكنه استقال قبل انتهاء السنة بسبب دسائس استعمارية معروفة دبرت بليل .

هذا ومن يمعـن النظر في سـيرته الرسمـــية او السياسيـــة منذ ان نشأت الدولة العراقيـــة سنة ١٩٢١ الـــى اخر حياته تبدو له ظاهرة نادرة وهـــي ان تلـــك السيرة امتازت بكثرة الاستقالات والتخلي عن المناصـــب العليا التـــي تقلدها فقد استقال مرتيـــن من منصب وزارة المعارف : المرة الاولـــى سنة ١٩٢٥ والمرة الثانية سنـــة ١٩٣٥ وذلك بسبب اختـــلاف وجهـــات النظر في تخطيـــط سياسة التعليـــم وفي تنظيم شؤون المصلحة واختيار الموظفين واستقال ايضا من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ واستقال من رياسة لجنة الترجمة والتأليـــف والنشر ومن عضويتها سنة ١٩٤٦ واستقال من عضويـــة مجلس النواب في اواخـــر سنة ١٩٥٠ مع من استقال مـــن النـــواب وعددهم خمسة وثلاثون نائبا بسبب محاولة حاول بها بعض المرتزقة مس كرامة المعارضين في المجلـــس .وكان لهذه الحادثة اثرها البالغ في الخارج والداخل على حد سواء. وهذه كما قلنا ظاهرة نادرة اذا ما استطلعنا اسرارها تبيـــن لنا انه كان محاطا بشبكـــة من دسائس المستعمـــريـــن واذنابهم ، فكان لا يقر لهم قرار اذا تقلد او اشغل منصبا عاليـــا من مناصب الدولة لان الاذناب ومطايا الاستعمار اعداء الخدمة الصحيحة واكبر خصوم للاصلاح وهما كما لا يخفى غايته القصوى من تقلد وظائف الدولة في جميع الاحوال .

وكانت آخر استقالة له ، استقالته من رئاسة المجمع العلمـــي العراقـــي قبيل وفاته .

في المناصب العلمية

وانتخب الشبيبي في كثير من المؤسسات والمجامع العلمية واللغوية داخل العراق وخارجه . فهو عضو نادي القلم العراقي(١) ورئيسه نحوا من عشرين سنة ورئيس المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٨ الى ان تخلى عن رئاسته لاسباب معروفة . وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة تقديرا لبحوثه في الادب والتاريخ وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٢٣ كما انتخب عضوا عاملا في مجمع اللغة العربية في القاهرة وذلك في اواخر سنة ١٩٤٧ وبارح العراق الى القاهرة واشترك لاول مرة في المؤتمر اللغوي الذي عقد في اول سنة ١٩٤٨ . واقيمت له حفلات في القاهرة منها حفلة استقباله في المجمع اللغوي ، وللاستاذ عباس محمود العقاد في هذه المناسبة خطبة معروفة كما ان

---

١ ـ انشىء هذا النادي ـ نادي القلم العراقي ـ ببغداد سنة ١٩٣٤ وقد نصت المادة الثانية من نظامه الاساسي على ما يلي : (تعارف المؤلفين وحملة الاقلام واحكام الروابط بينهم وتعزيز الادب العربي. وتعضيد البحث وايجاد الصلات بين حملة الاقلام في العراق وامثالهم في البلاد العربية . وقد انتمى الى النادي اشهر حملة الاقلام والصحفيين في ذلك التاريخ وواظب اعضاؤه على عقد جلساتهم والقاء البحوث والمحاضرات وقد احتفل اكثر من مرة بضيوف العراق من ادباء الاقطار العربية وتالفت من بحوث اعضائه ومحاضراتهم اكثر من مرة مجموعة نشرت منها المجموعة الاولى سنة ١٩٣٨ بعنوان (مجموعة نادي القلم العراقي) . وقد اعتبر النادي كغيره معطلا بموجب مرسوم تعطيل الاحزاب والنوادي والجمعيات الصادر سنة ١٩٥٨ ولم يتقدم احد من اعضائه بطلب لاستئناف نشاط النادي منذ ذلك الحين .

للشبيبي خطبة فيها ايضا ، ومن المحاضرات التي القاها في المؤتمر اللغوي محاضرة موضوعها (النهضة الادبية الحديثة في العراق) وقد لخصتها بعض الصحف المصرية وعلقت عليها . واقامت له كلية دار العلوم المصرية حفلة استقبله فيها الاستاذ ابراهيم مصطفى بخطاب ضاف والقى فيها محاضرة عنوانها (اقدم مخطوط وصل الينا في وصف جزيرة العرب) وكان لها وقع بالغ في نفوس الحاضرين . وفي هذه الحفلة القيت قصائد وخطب ترحيبية .

وهكذا لم يتخلف عن شهود دورة من دورات مجمع اللغة العربية منذ انتخابه عضوا فيه الا مرة واحدة . ولما الغي المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٣ وخلفه المجمع الجديد انتخب عضوا فيه ورئيسا له ولوحظ ان المجمع اخذ يجتاز بعهد رئاسته مرحلة من مراحل النشاط والاضطلاع باعباء المهام المطلوبة منه ، وقد اخرج جزءا جديدا حافلا بالبحوث من مجلته الخاصة . وظل في رئاسته الى ان استقال منها قبل وفاته بأيام . وقبل انتقاله الى جوار ربه كان يشارك في احتفالات الاسراء في المسجد الاقصى ، وفي عودته استقبل في بغداد استقبالا يعز نظيره . وكان هذا الاحتفاء آخر احتفاء يقدمه له الشعب في حياته اذ قضى نحبه في نفس الليلة التي عاد فيها وذلك ببغداد في الثالث من شعبان ٣٨٥؛ والسادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٦٥ .

الهجرة العربية الى الشرق الاقصى

هجرة مجهولة من العرب وادبها مجهول منهم

اشتهر الادب المهجري اللبناني اشتهارا بعيدا ودوى في تاريخنا الادبي دويا شديدا . ونبغ فيه متفوقون سواء في الشعر او النثر سيظلون ابدا من انصع الكواكب في آفاقنا الادبية قديما وحديثا . وحسبنا ان نعد منهم في الشعر : الشاعر القروي والياس فرحات وايليا ابو ماضي ، وفي النثر جبران وامين الريحاني .

والشعر المهجري اللبناني لا يحتاج الى تعريف ولا تنقصه الشهرة وبعد الصيت ولكن هناك ادبا مهجريا عربيا آخر حمله فريق من مهاجري العرب الى منائيهم البعيدة ومهاجرهم القصية لم يكتب له من الذيوع والانتشار جزء مما كتب للادب اللبناني . بل يمكن ان نقول انه لم يعرف اصلا في اوساط العرب وديارهم ولم يقرأ في نواديهم ومعاهدهم اذا استثنينا قلة قليلة ، بل افرادا معينين وقعوا على هذا الادب صدفة او لظرف معين ومناسبة محدودة .

هذا الادب هو ادب الهجرة الحضرمية(١) من جنوبي الجزيرة العربيـــة الـــى الجزر الاندونيسية وغيرها من بلاد الشرق الاقصى ، واذا كانت الهجرة اللبنانية الى الامريكيتين هجـــرة جارفة حمـــلت عشرات الالوف من مدارج صباهم ومنابت اصولهم الـــى بلاد العالم الجديد سعيا وراء الرزق

١ – قال رياض الريس يصف بعض مناطق حضرموت حيـــن زارها فـــي الستينات : وادي حضرموت يمتد كنهر كبير بين ضفتين مـــن الجبـــال العالية المتقاربة . وسيؤون (بفتح السين) تقبـــع في وسطه كمدينة اهملت التاريخ فتناساها . والـــى الجنوب منها تريم والـــى الشمال شبام كانهما خرافيتان وسط لا شـــيء الا واحات كبيرة من النخيل وناطحات سحاب عالية مـــن الطيـــن .

كل ما في غراف (بضم الغيـــن) القرية الصغيرة التـــي تقع في منتصف الطريق تماما بيـــن سيؤون وتريم ، يوحـــي بالوهم ، وتحس بعزلة محببـــة عـــن الواقـــع ، فليس فيها ما يربطك بالعالم الذي نعرفـــه .

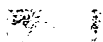
وتحمـــلك سيـــارة اللاندروفر عبر الوادي الاخضر المفتوح علـــى نهر جف منذ ما يزيد علـــى قرن . والنخيل هو الخضرة الدائمة ، والطريـــق بغراف ، القرية الصغيرة ذات الكهوف الطينية والبيوت الواطئة القليلة . وتدخل سيؤون عبر ممر من اشجار النخيل وكانك في حلم سينمـــائـــي افتعلته هوليود وتلمع القباب البيضاء ، وتبدو سيؤون من بعيد واحة من الالوان : البيوت خضراء وحمـــراء وبيضاء ، وزرقاء ، كلها زاهـــيـــة . الشوارع ترابيـــة مرصوفة ونظيفـــة ، والناس كانها لا تعمل الا في البناء والزراعة . كل شيء في سيؤون من الطين والالوان . لا حجر ولا اسمنت . الشوارع فسيحـــة ترابيـــة ونظيفة . والنظافة تلفت النظر في كل مكـــان وخاصـــة القادم من اليمـــن وعدن . فالهندسة صناعة محليـــة تكاد تكون اهم ما يميز حضرموت عـــن الجزيرة العربيـــة كلها . والزراعة هـــي الذرة والخضر ، هـــي مهنة الحضارمة المقيميـــن الذيـــن لم يسعدهم الحظ بركوب البحـــر الـــى ابعد .

وتتطلع الـــى اعلـــى لتـــرى البيوت الطينية ترتفع الى عشر طبقات او اكثر ، وتمتد كقصور من الف ليلة وليلة ، حولها حدائق خضراء وماء وفيها الـــوان والـــوان .

وطلبـــا للثروة ، فكذلك كانت الهجرة الحضرمية من الارض الجديبة والوطـــن الفقير الـــى عالم التجارة والغنـــى والاخـــذ والعطـــاء .

واذا كانت الهجرة الاولى قد انتجت ادبا مهجريا كثيرا، فكذلك كانت الهجرة الثانيـــة. ولكن الفرق بين الهجرتيـــن العربيتـــن ان الاولـــى كتبت لها الشهرة وطول الذكر وارخت في كثير من الموارد والمصادر ، بينمـــا لم يكتب للثانية شـــيء من هذا ، ولم تعرف ابدا ولم يشر اليها بحال من الاحوال شانها في ذلك شأن ادبهـــا .

ولعلنافي هذه الكلمة نستطيـــع ان نرفع الستـــار عن بعض جوانب الهجـــرة الحضرمية ونزيل الحجاب عـــن شيء من نواحـــي ادبها فاتحيـــن بذلك الباب امام الباحثيـــن لا سيمـــا ممن عانوا تلك الهجرة وتحملوا اعباءها او بالاحرى من ابنائهم واحفادهم .



الهجـــرة الاولـــى

علـــى انه لا بد لنا من القول ان الهجرة العربـــية الى اندونيسيا والشرق الاقصـــى كله ذات شقيـــن او ذات عهديـــن متباعديـــن ، هجرة بعيـــدة تعود الـــى تاريخ بعيد يصل الـــى العهـــد العباســـي حيث هاجـــر فريق مـــن العلويين طلبا للسلامة والامان فحل بعض احفاد علـــي العريضـــي بـــن الامام جعفـــر الصادق في جنوب الجزيرة العربيـــة اولا ثم امتدوا منها حتى وصلوا الى الهند والصين وملايا واندونيسيا والفلبيـــن وجزائر سليمـــان . وفـــي

الطليعة من هؤلاء كان احمد بن عيسى بن محمد بن علي ابن الامام جعفر الصادق ، هذا الذي رحل من العراق العام ٣١٢ وما زال يمضي حتى استقر في جنوب الجزيرة العربية . وربما لان هذا الرجل كان فاتح باب الهجرة ، عرف في التاريخ باسم احمد بن عيسى المهاجر . واذا كان احمد هذا قد استقر في الجنوب العربي فان احفاده هم الذين انتشروا بعد ذلك في كل مكان من الشرق الاقصى حاملين معهم الاسلام ينشرونه حيث حلوا ..

قال : المقريزي في الخطط (ج ١ ص ١٦) : « في جانب هذا البحر الشرقي مما يلي الصين ست جزائر ايضا تعرف بجزائر السبلي نزلها بعض العلويين في اول الاسلام خوفا على انفسهم من القتل » .

وقال المؤرخ الاندونيسي محمد تمين ابراهيم استاذ الدراسات الاسلامية والتاريخ الاسلامي في جامعة جاكرتا من محاضرة له : « ان اول مملكة اسلامية هنا يرئسها شخص يلقب بلقب شيخ كانت بايدي العرب من الهاشميين » .

وقد ذكر هجرات العلويين الى جزر الشرق الاقصى كل من المستشرقين الهولنديين « فن دين بيرخ ، وفرين ميس » في كتاب تاريخ البلدان الجاوية « سيجارة تانه جاوا » و «بيخمان» وكذلك نور الدين محمود عوفي . يقول فن دن بيرخ في كتابه (حضرموت والمستوطنات العربية في الجزائر الهندية) الصادر باللغة الفرنسية : « ان نجاح الدعوة الاسلامية في جاوا كان لان الدعاة كانوا من ذرية النبي .

ويقول نور الدين عوفي عن انتشار الاسلام في الصين : ان الاشراف العلويين هربوا الى بلاد الصين ونشروا الاسلام فيها .

ويذكر محمد تمين في محاضرته التي القاها في الندوة التاريخية في ميدان سومطرا الشمالية : ان الاشراف العلويين انتشروا في كامبودجا والصين وسيام وغيرها ، وان من الواصلين الى كامبودجا الحسين الملقب بجمال الدين الاكبر . وانه كان للحسين هذا ولدان ، احدهما ابراهيم ، وتقول الروايات الجاوية ان ابراهيم وصل مع ابيه الحسين الى سيام وجاوا وتزوج اميرة من جامبا اسمها باداو ولاق فولدت له ولدين عليا واسحاق كانا من انجح العاملين على نشر الاسلام، وان اعظم نجاح لاسحاق كان في بانيو وانغي .

ووصل العلويون الى الفلبين فاستوطنوها ونشروا فيها الاسلام ثم اقاموا فيها ملكا واستمر حكم العلويين فيها حتى سنة ٨٨٥هـ (١٤٦٥م) وقيل الى سنة ١٥٢١ حين هاجم الاسبان المسلمين وفشل السلطان عبد القاهر في صد هجومهم . وفي تاريخ الفلبين ذكر مجيء الشريف اولياء بسفينة طافت في تلك الجزر لنشر الاسلام . وجاء في كتاب (دراسات عن المسلمين المورو وتاريخهم) المطبوع بمانيلا سنة ١٩٠٥ ان مجيء الاسلام الفلبين كان بواسطة شريف علوي اسمه حسن بن علي من ذرية احمد بن عيسى المهاجر . وقد عمل هذا العلوي على نشر الاسلام اول الامر في جزائر (يوايان)

الفليبينية فاسلم ملكها علــى يديه وانتشر الاسلام في (ميندانا زمافينيدانا وسبيو وسولو وملرنا بارو وتمبارا وليبونغــان باكمبايان) .

وجاء في ذلك الكتاب أن هؤلاء العلويين كانوا اول مــن علم الاهليــن هنــاك الكتابة العربيــة .

ولا تزال المقابــر الاندونيسية تضم حتــى اليوم قبور احفاد اولئك الرواد الاوائل وقبور احفاد احفادهم . ولا تزال تلــك الاجداث محجة للزائرين من كل مكان . ويمكـــن ان نعــد منهم كــلا من مولانا ابراهيم المدفون في مدينــــة قرسىء بجاوا ومولانا حســن الديــن المدفون في مدينــة يانتــن بجاوا الشرقيــة ومولانا هداية الله المدفون في مدينة شربون بجاوا الشرقيــة ، وهو ابــن عبد اله المتوفــى في كامبودجا بالهند الصينية . ومولانا زيـــن العابديــن المتوفــى بمدينة دماك بجاوا الوسطــى ومولانا رحمة الله المتوفــى بمدينة دماك بجاوا الوسطــى ومولانا رحمة الله الملقب بعيــن اليقيــن المتــوفى في مدينة قرســيء بجاوا وكل هــؤلاء ينتهــي نسبهم الــى احمــد بــن عيســى المهاجر . هذا المهاجر الذيــن نحسب انه اول من حمــل هذا اللقب في العالم العربــي كله .

علــى انه يبدو من بعض النصوص ان استقرار هؤلاء العلويين في الجزر الاندونيسية وشهرة مقامهم فيها قد حملت بعض الخائفيــن علــى التوجه اليها والحلول بين تلــك الجاليــات التــي تناسلت وتكاثرت ، وانه كان بين مـــن نزحوا اليــها احد احفاد الخلفاء العباسيين المسمى عبدالله

والذي نجا بنفسه فرارا من مذابح المغول بعد سقوط بغداد على يدي هولاكو .

ومهما يكن من شيء فان هذه الهجرة العربية الكبيرة قد انطوت في غمار التاريخ ولم تترك لنا من اثر سوى انها كانت من اكبر العوامل في نشر الاسلام في تلك الاقاصي وحسبه من اثر . وقد ذابت تلك الاصول العربية في المجتمع الاندونيسي وغير الاندونيسي من المجتمعات المهجرية التي عاشت فيها وغابت ملامحها غيبة كاملة وعادت اندونيسية خالصة حتى في اسماء الاعلام ، وان ظل بعض رجالها يسلسل اباءه مبتدئا باسمه الاندونيسي واسم ابيه وجده وهكذا حيث يعود الى الاسماء العربية . فهناك مثلا : ابوكو سنو حوكر وسويو سو الذي ينتمي الى آل عظمه خان الى ان تنتهي السلسلة الى علي بن عبدالله بن احمد بن عيسى المهاجر (١).

الهجرة الاخيرة

ان تلك الهجرة لا تعنينا في بحثنا هذا وليست هي

---

١ ـ يمكن ان نعد من المهاجرين حسين بن احمد بن عبدالله بن عبد الملك بن علوي بن محمد صاحب مرياط بن علي بن علوي بن عبيد الله بن احمد المهاجر الذي وصل مع اولاده العام ٨٧٥هـ . وحسين ابن احمد هذا هو المعروف من سلالة آل عظمه خان .

وكذلك جاء بعده محمد بن عيد آل عيديد المتوفى سنة ٩١٩ هـ الذي وصل اولاده اجيه في اندونيسيا . واما محمد بن عبد القادر آل عيديد المتوفى عام ١٠٥٠هـ فان عقبه الذين وصلوا الى اندونيسيا موجودون الى الان في مدينة (كوبان) بجاوا الشرقية .

المقصودة بهذه الكلمات . بل ان المقصود هو الهجرة الاخيرة التي انتجت الادب العربي المهجري الشرقي في مقابل الادب العربي المهجري الغربي .

وليس بين ايدينا ما يحدد لنا التاريخ الذي بدأت فيه هذه الهجرة من الجنوب العربي الى جنوب آسيا(١)، تحديدا دقيقا ، ولكننا نستطيع القول استنادا الى بعض

---

١ ـ حديثنا هنا عن هذه الهجرة وحدها ، والا فان هجرة الحضارمة كانت الى شتى البلاد وفي زيارة لرياض الريس الى حضرموت في الستينات جرى بينه وبين احد كبار المسؤولين حوار جاء فيه :

ـ ما هي المشكلة التي تشغل بالك حاليا ؟ وقال مجيبا : مشكلة اللاجئين الحضارمة الذين وفدوا الى المكلا من افريقيا . عددهم يفوق العشرة آلاف ، من العمال والبحارة والفقراء .فالعمل قليل عندنا ،والامكانات ضعيفة ، والارض ليس عندها من الغنى ما يسمح لها باحتضان الجميع . انهم الحضارمة الذين ذهبت بهم الرياح في الاتجاه الخطا . فرست سفنهم على شواطىء افريقيا ، بدل أن ترسو على شواطىء جنوب شرق آسيا فكان الفقر في افريقيا والغنى في اسيا .

ويكمل رياض الريس حديثه وهو يصف بلاد حضرموت متحدثا عن المكلا:
وخرجت الى شوارع المكلا التي تعج بالناس اسأل عن مكتبة تبيع الصحف . فدلوني على واحدة وجدت فيها كل مجلة تصدر في العالم العربي وكل كتاب لمؤلف لم اسمع به من قبل . ووجدتها اكثر الامكنة عملا في المكلا .صحفالعالم كله فيها ، من اندونيسيا وهونغ كونغ الى بيروت . ولما عرف صاحب المكتبة أنني من لبنان ، ابتسم وقال : « نحن شعب نقرأ بنهم،ونستمع الى الراديو بنهم اكبر ، لان هناك حضرميا في كل بقعة ، مثلكم ايها اللبنانيون ، بل ربما اكثر ، لاننا نحن ما زلنا على صلةبهم»
وعلى الشاطىء الرملي كانت ثلة من الجنود الحفاة تاخذ التحية لمركب شراعي كبير عليه عدد كبير من الناس يبحر الى ارض جديدة ـ اذا بقي في العالم ثمة ارض ـ ليلقي عليها حمولته ، فاما ان تثمر ، واما تعودبمراكبغارقةصغيرة الى شاطىء الصدف والاسماك والرمال ،فتلقي شباكها في فقر بيوت الطين . ويكون التاريخ قد اوقف المد ومزق الشراع.

المصادر ان اول فوج من المهاجرين الحضارمة خرج من موطنه ، كان خروجه في أواسط القرن الثاني عشر الهجري . بل نستطيع ان نقول ان ذلك كان في حدود سنة ١١٥٠هـ وكان هذا الفوج مؤلفا من اربعة مغامرين هم : حسين القدري الملقب بالحسني وعثمان بحسن ومحمد احمد القدسي ومحمد بن حامد . وكان الدافع الاول لهم للهجرة هو السعي وراء العيش الكريم وبلغ النجاح ببعضهم ان تزوجوا بالاميرات بنات السلاطين الاندونيسيين وكان المغري الوحيد بهذا الزواج أن المهاجرين كانوا من سلالة الرسول ، فرأى السلاطين في تزويج بناتهم من هؤلاء الغرباء العلويين شرفا لهم . ثم تطور الامر بعد ذلك فاذا ببعض ابناء المهاجرين واحفادهم يتولى الملك بنفسه لان السلاطين رأوا في الاسباط المتصلين بالنسب النبوي ما يفضلون به الاحفاد غير المتصلين بهذا النسب . وهكذا نجد ان من بين سلاطين سياك وفونتيانك وغيرهما من هم من الاشراف العلويين ابناء واحفاد اولئك المهاجرين .

على ان هذا التزاوج قد ادى الى ذوبان اعقاب المهاجرين في الوسط الاندونيسي فلم يعودوا يعرفون بالطابع العربي ولا باسم الاسرة العربي . اما الذين لم يقدر لهم مثل هذا الزواج فقد ظلوا محتفظين حتى اليوم باسماء عربية لاسرهم وهم من سنرى اسماء اسرهم في الآتي من القول .

واذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم اسماء المغامرين الاربعة طلائع الهجرة العربية فلا يفوتنا ان نذكر اسماء

اخرى كـــانت في اوائل المواكـــب المهاجرة ونستطيع ان نعد من ذلك مهاجري آل كثير وال النهدي وال بلحمر وال بارجـــاء وال العمودي وغيرهم .

قالت مجلة الرابطة الصادرة في جاوى (سنة ١٩٣٠) وهـــي تنعـــى السيد محمـــد بن عبد الرحمان بـــن شهـــاب الديـــن :

لقد هاجر في النصف الاول من هذا القرن من حضرموت الى الجهات الجاوية عشرات الالوف من الحضارمة ، منهم من عاد الـــى وطنه ومنهم من توفاه اله .

آل الجفـــري

وابرز من خرج فيهم السيد عقيل بـــن زين العابديـــن الجفـــري الذي كان عالما مرموقا خرج من اندونيسيا الـــى تركيـــا ودخل جامعة اسطنبول ثم سافر الى اوروبا وكثير من بلدان اسيـــا واتصل بالكثيرين من عظماء العالم الاسلامي ، ثم صار من اقطاب السياسة الاندونيسية فقاوم الاستعمار الهولندي مقاومة شديدة ادت الـــى ان تعتقله السلطات وتسجنـــه سنـــة ١٩٢٨ ثم صادرت املاكه وابادت مكتبته الكبيرة القيمة . ثم اطلقته فقيرا لا يملك شيئا . وعاش حتى ادرك الاستقلال فكانت فرحته فيه فرحة تتناسب مع نضاله وتضحيتـــه . وتوفـــي العام ١٩٥٢ عن عمر ناهز التسعين.

ويعتبر السيد عقيـــل من الادباء المؤلفيـــن باللغـــة العربيـــة . وقد ترك العديد من المؤلفات التي ظلت مخطوطة لصعوبة الطباعة العربيـــة في تلك البلاد .

آل المحضـــار

وابرز من خرج فيهم السيد محمد بن احمد المحضار المتوفى سنة ١٩٢٤ في مدينة سورابايا وهو عالم وشاعـــر يعتبـــر في طليعـــة شعراء المهجر الاندونيسيين . وقد ترك ديوانا كبيرا وعدة مؤلفات . ولكنها ظلت كغيرها مخطوطة لم تطبع ولم تنشر . ومن آل المحضار ملوك وقضاة في جزائـــر القمـــر في افريقيـــا .

آل يحيـــى

وابرزهم السيد محمد بن عقيل الذي يعتبر في وقتـــه من اكبـــر علمـــاء العالم الاسلامـــي واعظم رواد الاصلاح فيـــه . وكانت دار هجرته جزيرة سنغافورا حيث اسس فيها دعـــوة اسلاميـــة اصلاحيـــة امتدت حتـــى شمـــــلت اندونيسيـــا وغير اندونيسيا . وكانت طريقته هـــي انشاء الجمعيـــات وتأسيس المدارس ونشر الصحف ويمكن ان نعد جريدته التـــي نشرها في سنغافورة اول جريدة عربيـــة في تلك المهاجـــر وكذلك جمعيتـــه ومدرسته التي حرص علـــى ان تكون مدرسة عربيـــة اسلامية . وكان تأسيس الجمعية سنـــة ١٣٢٢ هـ وتولـــى رئاستها السيد احمد السقاف وكانت هـــي نواة جمعيـــات الاصلاح في البلاد الجاوية كلها ، ، وصارت مركزا عاما يقصده المثقفون ، بل كانت علـــى حـــد تعبير احد الباحثيـــن سببا لجمع شمل العرب الذي كـــان مفرقا . ثم اضاف الـــى ذلك اصدار مجلة عربيـــة سماها (الامام) ، صدر العدد الاول منها في اول جمادى الثانيـــة سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦) وصدر اخر عدد منها في شهـــر ذي

الحجة سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) . وقد سمى مدرسته مدرسة الاقبال ، ولم يكن من الميسور ايجاد مدرسين لها في المهجر فاستدعى لها المدرسين من مصر . وكان تأسيسها سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) ثم صدرت بمساعيه جريدة الاصلاح التي لم تعمر طويلا شأنها في ذلك شأن مجلة (الامام) اذ صدر العدد الاول منها في اول شوال سنة ١٣٢٦ وصدر آخر عدد منها في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٢٨ .

وكانت هذه النهضة العربية في سنغافورا مدعاة لان تقوم مثلها في اندونيسيا وبلدان جنوب آسيا التي كانت تصلها مجلة الامام وجريدة الاصلاح فتأسست في جاكرتا جمعية خير سنة ١٣٢٤ وتأسست اول مدرسة لجمعية خير في جاكرتا وفي فلمباغ بمسعى السيد علي بن عبد الرحمان المساوي والسيد محمد بن عبد الرحمان المنور سنة ١٣٢٦ . كما تأسست مدرسة في سورابايا بنفس السنة بمسعى السيد شيخ بن زين الحبشي ومدرسة في جاكرتا بمسعى السيد عبدالله بن علوي العطاس . وكلها مدارس عربية التدريس اسلامية المناهج .

وكان ابن عقيل يزور اندونيسيا بين الحين والحين لدعم النهضة فيها وبث الاصلاح بين رجالها وكانت اخر زارة له لجاوا سنة ١٩١٨ .

وهكذا نستطيع ان نعتبر السيد محمد بن عقيل رائد نهضة وداعي اصلاح ومربي اجيال . واذا كان قد قدر لبعض كتبه ان تطبع خارج المهجر فان معظم تلك الكتب ظل مخطوطا .

وقد عاد من مهجره الى الوطن العربي فاستقر فترة في الحجاز سنة ١٣٣٩هـ ثم انتقل الى الجنوب سنة ١٣٤٠ فسكن المكلا(١) وعاود الدعوة الى الاصلاح

---

١ ـ قال رياض الريس وهو يصف بلاد حضرموت متحدثا عن المكلا :
شباك كثيرة ، ومراكب قديمة راسية ، وصيادون واشرعة ممزقة وطريق يتيمة تمر عبر منحدر جبلي ضيق ، وشاطىء واسع كله حبال وسوار وناس ، وناس ، لعلهم تجار او بحارة او ربما قراصنة .
كان هذا هو المدخل الى المكلا ، نافذة حضرموت المفتوحة على العالم كل ما فيها يوحي بالحركة ، وكل ما فيها كانه ذكرى من ذكريات .

والطائرة لاتصل من عدن الى المكلا . فلا بد ان تهبط في الريان ، وهي قرية صحراوية على مشارف المكلا من الداخل . وانتظرنا في شمس الريان المحرقه بعد طيران اكثر من ثلاث ساعات في طائرة الداكوتا القديمة ، ان يتراجع المد ويصبح من الممكن لسيارة اللاندروفر ان تمشي بمساواة الشاطىء في ساعات الجزر حتى تصل بعد ساعة ، اذا لم تغص في الرمال او تتلف احدى عجلاتها ، الى طريق المكلا الضيق .

واقلعت السيارة براكبيها اليتيمين ، انا وزميل اجنبي ، على الشاطىء الاستوائي وهي تغوص تارة وتقف تارة لاصلاح ما افسده الحر من محركها ، او حطمته الرمال في عجلاتها ، مرورا فوق الاف الاسماك الملونة القريبة التي تركها المد على الضفة قبل ان يرحل ، وحولها تموج مئات السلاحف الكبيرة الجميلة لتلتهمها ، وطيور البحر تضرب زجاج نافذة السيارة بالاجنحة والقوارب الغارقة ترسو بعيدا عن الشاطىء وقد سحبها المد معه ، فتعلقت بالشباك التي تركها الصيادون على الرمال . وتطل المكلا من فوق الطريق الذي سد بالصخور حتى يلوح في نهايته شارع ضيق كله بياض مفتوح على البحر ، كرصيف طويل لميناء كبير وقد تكدست اكوام الاخشاب والبضائع في كل مكان حتى لم يعد من مكان للمشاة ، واختلطت اشكال الوجوه الغريبة بعضها مع بعض في الجو ، فلا وجه واحدا يشكل طابعا للمدينة .
ومن المكلا ابحر الحضارمة الى العالم ليجمعوا ثروات ويبنوا امجادا ، ويعودوا بحضارات وعادات تندمج في بيئتهم وتراثهم ، ومن ثم

السياســي والدينــي والاجتمــاعــي منتقــدا الاوضــاع القائمة نقدا صريحا مما اثار الضجيــج عليــه شأن كل مصلح وفي ســنــة ١٣٤٧ انتقل الــى عدن فكان شأنه فيــها

--- ---

تكاتفع في ارض غريبة لتثبت اهليتها وفرديتها وخصائصها . فالحضارمــة المهاجرون اكثر من الحضارمة المقيمين ، والمسافر منهم يعيل المقيم ، والثروة الوحيدة هــي ثروة الهجــرة .

من اندونيسيا الــى سنغافورة الــى الملايو ، حيث اسسوا دولا وممالك ، حتــى الهند وسيلان في اسيا . ومن زنجبار وكينيا وتنجانيقا والحبشة والصومال في افريقيا ، كان مد الحضارمة يتدفق الــى جنوب الجزيرة العربيــة ، ومعه اموال ، لبينــي . وتتحول الرمال في بلاده الى ناطحات سحاب من الطيــن ، وينقل من الشرق الاقصــى وافريقيــا التوابل والخشب والحرير والقصب . ولا يحمل معه من الجزيرة الا الاسلام ، فيعطيه لاندونيسيا والملايو وزنجبار ، « نحــن فاشلون في بلادنا ، وناجحون فــي الخارج .. » ، كان تعليــق رفيق حضرمــي في المكلا لملاحظتــي علــى بدائية تفريــغ البضائع من السفــن في المكلا ، مع وجود عشرات مــن الحضارمة العاطليــن عــن العمل .. ولكن يبدو ان المد الذي ركبــه الحضارمة عاد بهم مــن الشرق الاقصــى وافريقيــا الشرقيــة . فكانت اندونيسيا وقد توقفت ثرواتهم فيها وتعطلت اعمالهم في عهد سوكارنو . وكانت الهند وفقرها ، وقد جفت ينابيــع الخير فيها . وكانت زنجبار وثورتها حيــن ذبح الافارقة العرب ، وكانت كينيا وقد فرضت قيودا علــى غــير الافريقييــن . وعاد الآلاف من الحضارمة وخاصة من افريقيا الــى الوادي الاخضر دون مال ولا عمل ليعايشوا الفقر من الاول .

وبدات هجرةثانية : الــى السعودية . الــى الكويت . الى الخليج العربــي . فثمة اليوم ٢٥٠ الف عائلة حضرمية في السعودية وحدها ، ترسل في الشهر ١٠٠ الف جنيــه استرلينــي الــى البلاد . ونصف هذا العدد في بلدان الخليــج العــربــي .

ودخلت السياسة لتفسد . واصبح يهم الحضارمة التجار ان يرضوا مصالحهم في الدول التــي لهم تجارة فيها . ووقع الصراع . فاذا اغضبوا السعودية ، يا ويلهم . واذا اغضبوا اندونيسيا يا ويلهم ، واذا اغضبــوا سنغافورة والملايو ، فيا ويلهم ايضا . اذن ، ليمشوا علــى الحبل بمهارة.

شأنه في المكلا ثم انتقل من عدن الى الحديدة سنة ١٣٤٩ وبقي فيها الى ان توفي سنة ١٣٥٠ .

وكان السيد محمد بن عقيل معروفا في العالم الاسلامي كله ولما توفي رثاه شاعر من بلاد الشام بقصيدة طويلة مطلعها :

سالت دموع العين كل مسيل
حزنا لفقد محمد بن عقيل

آل الحداد

نبغ من هذا البيت العديد من العلماء والشعراء منهم العالم الشاعر السيد عبد الله بن علوي الحداد الذي ظل ديوانه كغيره مخطوطا لم يطبع .

آل السقاف

ومن هذا البيت ايضا خرج العلماء والشعراء كالسيد احمد بن عبدالله السقاف والسيد ابن عبيد الله . والاول منهما كاتب بارع وشاعر مجيد ومن اعرق الثائرين على الاستعمار الهولندي وله في هذا المضمار الكفاحي الكثير من الشعر الحماسي المثير لا سيما في اول الحركات التحررية سنة ١٩١٠ . واذا كان معظم شعر بقية الشعراء المهجريين لم ينشر حتى في الصحف بل ظل مخطوطا في الدواوين مقرؤا في المنتديات فان شعر هذا الشاعر كان له من الحظ اكثر مما كان لغيره اذ نشر الكثير منه في الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في المهجر ، ولكنه لم يجمع في ديوان مطبوع .

آل العطــاس

ينتسبون الى جدهم الاكبر السيد عمر بن عبد الرحـــمن العطاس ، المتوفى بحريضة حضرموت سنة ١٠٧٢هـ ومنهم السيد عبدالله بن علوي العطاس الذي نشر الاسلام في بورما والهند وغيرهما . والمتوفى سنة ١٣٣٤هـ .

ومنهم السيد سالم بن احمد الطعاس الذي تولى الافتاء في جهور (الملايو) مدة خمسة وثلاثيـــن عاما والمتوفى سنـــة ١٣١٣هـ ومنهم السيد عبد القادر بن محسن العطاس الـــذي تولـــى كذلك الافتاء في جهور مدة ثلاثين عاما وتوفي سنـــة ١٣٤١ . ومنهم السيد عبد الله بن عبد الرحمن العطاس الذي تـــولـــى القضاء في سنغافورا مدة عشرة اعوام ، والمتوفـــى سنـــة ١٣٥٥ باندونيسيا .

آل جمل الليل

ومنهم السيد محمد بن عيدروس الحبشي المتوفى فـــي سورابايا (جاوا) سنة ١٣٤٤هـ .

آل حبشـــي

ومنهم السيد محمد بن عيد روس الحبشي المتوفـــى في سورابايا (جاوا) سية ١٣٤٤هـ .

آل الكـــاف

وهم اللذين كانت لهم الايادي البيض في بناء المساجد والمدارس . وقد سكت لهم نقود تحمل اسمهم ، وكان يتعامل بهـــا في حضرمـــوت .

آل شهـــاب

نبغ الكثيرون من رجال هذا البيت ويعتبر السيد علـي بـن احمـد بن شهاب من ابرزهم ، كان من الكتاب المؤلفين ولكـن مؤلفاته ظلت هـي الاخرى مخطوطة . وهو مـن المكافحيـن للاستعمـار الهولندي ومن اركان الحـركـة التحرريـة وابرز زعمائها . وكان هو الداعـي الى تأسيس جمعيـة خير سنـة ١٩٠٧ كمـا كان عضوا في الحـزب الاسلامـي الاندونيسـي (شركة اسلام) وفي العام ١٨٨١ هوجم اجتمـاع وطني كان يرئسه فساقته الشرطة الهولندية الـى السجـن حيث قضـى فيه فترة ، وبعد خروجه من السجـن ساح في البلاد الاسلامية فزار تركيا ومصر وسورية ثم ادى فريضة الحج ، ثم عاد الى اندونيسيا متابعا الكفـاح الاستقلالـي وظل حيـا حتـى دخول الجيوش اليابانيـة الى اندونيسيا ، ثم توفـي سنة ١٩٤٥ في اواخر العهـد اليابانـي عـن عمـر ناهز الخامسة والتسعيـن .

ابـو بكر بن شهاب

من هذه الاسرة خرج العالم الشاعر المؤلف السيـد ابو بكـر بـن شهاب . وهو الشاعر الذي نريد ان نتخـذ منه نمـوذجا للشعر المهجري العربـي الشرقـي لانـه الوحيـد الذي طبع ديوانه من بيـن شعراء المهجر الشرقي .

ولد ابـو بكـر بـن شهاب سنة ١٢٦٢هـ بقريـة

حصـــن ال فلوقه احد مصايف تريم(١) من بلاد حضرمـــوت

١ ــ قال رياض الريس مواصلا وصف بلاد حضرموت متابعا رحلته من سيؤون الى تريـــم :

وانطلقت سيارة اللاندروفر في حر بعد الظهـــر عبر الطريـــق المرصوف في الوادي البنـــي اللون الاغبـــر الجاف . وكانت تريم في الجانب الاخر تسبـــح في واحـــــة مـــن النخيـــل والالوان والماء . وكانت الكثيري فيعزها

واذا بتريم مدينه مسورة ، بابها ضيق ، ومن خلف السور الطينـــي تطل ناطحات السحاب الطينية ، ومعها مآذن علـــى مد النظر . وامـــام الباب احتشد جمع من الناس وقد علت اصواتهم واختلطت باطـــــلاق الرصاص في الهــــــواء وقد مشـــى امامهم فتيان يحملون حرابا علـــى راسها مـــا لـــم اتبينـــه من بعيـــد .

وسالت رفيق الطريق الحضرمي ، فقال هؤلاء الناس قد عادوا من صيد الغزلان ، وقد حملوا رؤوسها علـــى الحراب ، وهم يطلقون الاهازيج بيـــن كل وقفة ووقفة . انه تقليد من تقاليد الصيد ، وصيد الغزلان عندنا فن قديم.

ودخلنـــا الباب وراء الجمـــاهير ، فاذا نحن في ساحة كبيرة خلفها جبل كبير وقـــد التصق السور وجدرانه الثلاثة به ، وكان هو الجدار الرابع . ووسط الساحة مقابر ذات شواهد قصيرة وكانها مجمـــوعة تحف صغيرة صفت بشكل هندســـي انيق في واجهة متحف من المتاحف .

لعل هذه المقابـــر وجدت قبل تريم ، وبعضها منذ ايام الحميريين . اجيـــال وراء اجيال تدفن هنا في وسط البلدة : قالها رفيق الرحلة الحضرمي المولود في سنغفورة ومن اكبر عائلات حضرموت واغناها .

وكانت جمـــوع الصياديـــن والناس قد اختفت من الساحة وتوزعت في الازقة الترابية الضيقـــة . واذا بتريم تختلف عـــن سيؤون وشبيام . انها مدينة حدائق مسورة : داخل السور الكبير ، اسوار صغيرة تدور حول قصورها وعـــماراتها المرتفعـــة ، واذا بالجو ، جو اريستوقراطـــي بعيـــد عـــن التجارة والمقايضة والاسواق التـــي تملا سيؤون والمكلا .

واثارتنـــي كثرة المآذن ، فسالت رفيقي الحضرمي السيد يعقوب الكاف عـــن كل هذا ، فقال : في تريم ٣٦٥ مسجدا . كل يوم من ايام السنـــــة لهمسجـــد . فاغنياء حضرموت كانوا ينذرون بعد موتهم ببناء مسجـــد علـــى ارواحهم ، بدلا من ان يبنوا مدارس ومستشفيات . امـــا اليـــــوم وقـــد

وتوفـــي سنة ١٣٤١ بحيدر اباد الدكــن من بلاد الهــند . وكانت هجرته الاولــى من بلاده الى الحجاز سنة ١٢٨٦ وهذه الهجرة كانت لطلاب العلم حيث اخذ عــن علمـــــاء الحجاز لا سيمـــا السيد احمد بن زينـــي دحلان ثم عاد الى تريــم واقام بها حتـــى سنة ١٢٨٨ حيــث هاجر الـــى الشرق الاقصــــى هجرة امتدت اربع سنيــن كانت جــل اقامته فيهــا باندونيسيا في مدينة سورابايا من مدن جزيرة جاوا مشتغلا بالتجارة ثم عاد الـــى وطنـــه ولكــن لــــم يستقـــر فيه بل عاود الهجرة سنـــة ١٣٠٢ مفتتحا هجرته بسياحة في عدن ولحج والحجاز ومصر وسورية وفلسطين ثم في الاستانـــة ، واختتم سياحته بالحلول في مهجر جديد هو مدينـــة حيــدر اباد الدكــن في الهند ، ولكنـــه ظل دائــم التردد الـــى اندونيسيا . وفي العام ١٣٣١ عاد الـــى وطنه

اتفـق عدد الجوامع مع عدد ايام السنة ، فنرجو ان يبدأ بناء المدارس والمستشفيـــات .

ووصلنـــا الـــى منزل الدليـــل ، فاذا به قصر من قصور ال الكاف . وتعبـــر البوابـــة الخارجية فاذا قطعة من الشرق الاقصــــى ، وتمر الـــى الحديقة ، واذا بها جزء من الملايو او سنغفوره . كل شـــيء اخضر ، وكانك في غابةاستوائية . واصطفت مائدة طويلة ، فيها من انواع الشراب والمرطبات والاطعمـــة ، وكانك عنـــد سلطان من سلاطين ماليزيا ، اضيفت اليها كل اللمسات العربيـــة الجميلة ، فاختلطت حضارتان في الطريق الى المعـــدة . واكلنـــا وشربنـــا وتحدثنا .

وسقطت الشمس وراء السور الكبير ، وبدات النساء في العباءات البرتقالية والبراقع السوداء ينسحبــن الـــى بيوتهــن من الحقول ، ولمعت انوار المآذن الكهربائية كمنارات علـــى شاطـــىء مهجور ، وتحولت تريـــم عنـــد المغيـــب الـــى مهرجان من الالوان الاريستوقراطية ، وبدت سيؤون في الطرف الاخـــر من الوادي كانها خرافة . وكانت سيؤون وتريم .

مصطحبا عائلتـه بعد هجرة استمـرت نحو ثلاثيـن سنة، وتـرك اسرتـه في الوطـن وعا دالـى المهجر سنة ١٣٣٤ ليقطـع ما تبقـى من علائقه ثم يعود الـى الوطـن ولكـن لم تكتـب له العودة حيـث قضـى نحبه في ديار الغربة .

شعـره

لن نجد في الشعـر المهجري الشرقي ما نجده في شعر المهجـر الغربـي من تجديد وتطوير ، بل ان الشعر الشرقي هو امتداد للشعر العربـي القديم بكل خصائصه وكـل موضوعاته ونحـن حيـن نعرض لشعر هذا الشاعر لا نطمع ان نجد فيـه اكثر مما نجد في شعر اي شاعر تقليدي مـن شعراء العرب .وكذلكيمكننا ان نقول نفس القول فيمـا وصلنـا من شعر غيره من شعراء المهجر الشرقي . فالغزل والمديـح والرثاء واحيانا الهجاء هي قوام هذا الشـعر . والتعابير والالفاظ والمعانـي هي نفس ما عرفناه في كل شعر قديم . ومن العجيب انالانفعالات العاطفيـة التـي اثارتها الغـربـة في شعر شعراء المهجر الامريكي فنظموا في الحنين الـى بلادهم شعرا هو بان يوصف بانه عبرات وزفـرات وتأوهات احرى من ان يوصف بانه الفاظ وكلمات . ان هذه الانفعالات التـي اشتمـلت عليها احيانا قصائد كامـلة في شعـر الشاعـر القروي والياس فرحات وايليا ابي ماضي وغيرهم ، ان هذه الانفعالات مفقودة في شعر المهجر الشرقي فيمـا وصل الينا منه .كمـا ان الابداع الذي تجلى في شعر المهجـر الامريكـي هذا الابداع الذي رفع الشعراء الثلاثة المقدم ذكرهم الـى اعلـى قمة في شعرنا العربـي في القديم

والحديث ، هذا الابداع مفقود هو الاخر في شعر المهجر الشرقي ، فليس فيه شعر يطاول الشعر الامريكي لا في المبنى ولا في المعنى .

واذا كانت الانفعالات العاطفية مفقودة — كما قلت — في الشعر الشرقي فذلك لا يعني ان اصحاب هذا الشعر لم يحنوا شعرا الى اوطانهم . ولم يتأوهوا في غربتهم شوقا الى ديارهم . بل هم فعلوا احيانا ذلك . ولكنه كان انفعالاعابرا مر قصيرا خلال القصائد الطويلة . فشاعرنا ابو بكر بن شهاب مثلا ينظم قصيدة من اطول القصائد يتحدث فيها عن علي بن ابي طالب فلا يكون فيها من الحنين والاشارة الى الغربة الا بيتان اثنان :

الا ليت شعري والتمني محبب
الى النفس تبريدا لحر اوامها
متى تنقضي ايام سجني وغربتي
وتنحل روحي من عقال اغتمامها

ولكن هذا الحنين لم يكن الى حصن آل فلوقة مسقط رأس الشاعر ولا الى تريم مراح صباه ولا الى حضرموت مدرج هواه . بل الى بلد اخر غير هذه البلاد . الى بلد يعتبره موطنه الروحي ، فاذا حن غيره من الشعراء الى مواطن اجسادهم فان هذا الشاعر انما يحن الى موطن روحه الى النجف :

وهل لي الى ساح الغريين زورة
لا ستافريا رندها وبشامها

وانــي علــى نأي الديــار وبينهــا
وصدع الليالــي شعبنا واحتكامهــا
منوط بها ملحوظ عيــن ولائـــها
قريب اليها مرتـــو من مدامهــــا

ولكــن ليس هذا كل ما في شعر الشاعر من حنين ، فاذا كان في القصيدةالسابقة قد حــن الــى وطن الروح فهو هنــا يحــن الــى وطن الجسد ، يحــن الى حضرموت وتــريـــم :

علــى سلمى وان نــأت الخيــام
من المضنــى التحيــة والســـلام
تناشدنــي اتــرجع عــن قريب
فقلت نعم وللدهـــــر احتكـــام
الا يا دارهـــا مـــن بطــن واد
بهنبــت الخزامــــى والبشــام
سقــاك العــارض الوسمي ســحا
وحيــا ذلـــك الشعب الغمـــام
تــرى هل تجمــع الايام شمــلي
بهـــا او هـــل لفرقـــتنا التـئام
اليها قبلتــي ولهـــا صلاتــي
وحجــي والتنســك والصيـــام .

ويبلغ به الحنيــن في الهند حدا ينطقه باكثر قصائد عاطفـــة واحرها شوقا :

يــا ايها الراكب الغادي الى بلد
جرعـــاؤه خصبة المرعــى وابرقــه

ناشدتك الله والود القديم اذا
ما بان من بان ذاك السفح مورقه
ان تستهل صريخا بالتحية عن
باك من البعد كاد الدمع يغرقه

يثير اشجانه فوح الصبا سحرا
وساجع الورق بالذكرى يؤرقه
له فؤاد نزوع لا يفارقه
حر الغرام وجفن ليس يطبقه
بالهند ناء اخي وجد يحن الى
اوطانه وسهام البين ترشقه .

الفرق بين الشعرين

والفرق بين هذا الشعر وبين شعر المهجر الامريكي ان الثاني لا يوري عن بلاده بالجرعاء والابرق وما اليها من اسماء عربية ليست هي المقصودة بالشعر ولا هي مكان الحنين ، بل هي مواطن لا يعرفها الشاعر ولا يشتاقها ، وانما هي منازل لقوم من العرب تغنوا بها في القديم ، فكان من الشاعر الحديث ان حذا حذوهم بذكرها معبرا بها عن ارضه ووطنه . واذا كان لم يصرح باسم البلد الذي يشوقه فانه قد صرح باسم البلد الذي يحن منه الى بلده ، واعلمنا انه الهند . لولا ذلك لما كان من فرق بين هذه الابيات واي ابيات لشاعر عربي قديم يذكر جرعاء الحمى والابرق . على العكس من الشعر الامريكي الذي يسمي الاماكن باسمائها ، ثم هو يعبر عن حنينه

تعبيرا لا يدنو في شيء من تعابير الاقدمين ولا من اساليبهم ولا معانيهم .

تبرير الهجرة

وهذا المشوق في الهند الى بلده يبرر الهجرة ويعين اسبابها ، ويرى انه ما دام المقام في الوطن مدعاة للخمول والاهتضام فلا بد من الرحيل عنه الى اقصى مكان :

تلك السبيل الى الفخار فان ترد
ادراكه فدع الربوع وعادها
وارحل فان العجز شر مصاحب
عجلا وطأ في السير شوك قتادها
واخطب عذارى المجد في آفاقها
واشهد مواسمها على ميعادها
هل في القضية ان اقيم ببلدة
يخشى الكرام بها اذى اوغادها
في الارض متسع لحر نفسه
عصماء يأمن مستحيل كسادها
فسنام اي الارض اذهب منزلي
ولي الندامى الغر من امجادها

ويكرر هذا المعنى فيقول :

واذا ما الكريم آنس ذلا
في بلاد فليعن بالارتحال .

ولكن هل شفت الهجرة آلامه وابلغته مرامه حين ترك وطنه خوف الهوان او اذى الاوغاد ، وهل وجد

في الارض متسعا لنفسه الحرة العصماء . وهل لقي الندامى الغر الذين تحدث عنهم ؟ انه هو يجيبنا عن ذلك بعد ان مضى على هجرته تسع سنين :

غربة في ديار من ليس جنسي
جنسهم والمقال غير المقال
سمت فيهم نفيس علمي فلم ينفق
وقد قرظتهم بسحر حلال
وبمحض العفاف صار كتابي
مستعارا وصافناتي نعالي
ذهبت حكمتي ضياعا وشمسي
في استتار وعزتي في ابتذال
فيهم قد قضيت تسعة اعوا
م اذابت نفسي وعمري ومالي

ثم تزداد الآلام تفجرا فيقول :

ومن عجب اني نزيل ببلدة
شمائل اهليها الحماقة والدعوى
الى الله اشكو غربتي بينهم فما
الى غيره من مثلهم تنفع الشكوى .

ثم تتراءى له في الذهن اوطانه بعيدة لا سبيل الى الوصول اليها فيقول :

كيف السبيل الى اللقاء ونحن في
رق الزمان وربما لا يعتق
اترى زمان السوء يسمح لي بما
ارجو فتسري بي اليك الاينق

لابثك الشكوى وتعلـم انني

دنف وشملي بالبعاد ممزق

واين هو من النوق في عصر البخار ، فليست النوق هي التي يمكن ان تسري به من اندونيسيا او من الهند الى حضرموت وانما هي البواخر الجواري كالاعلام ، ولكن الشاعر المتأثر بالقديم لا يستطيع التخلي عن قديمه ولا التخلي عن الاحتذاء حذوه حتى فيما تستحيل عليه فيه رؤيته ، فكيف بان يكون وسيلته ..

سنغافورا

وفي كل ما نظم الشاعر لم يذكر اسما من اسماء منازله في المهجر ما عدا ما راينا من ذكره للهند ذكرا عابرا لا دلالة فيه على شيء سوى انه نزيلها . على انه يخص جزيرة سنغافورا بقصيدة يحييها بها ويحيي نازليها من مهاجرة العرب :

مدينة سنغفورا حين تبدو

معالمها ترى السوح الرحيبا

فحياها الحيا الوسمي حتى

يغادر سفحها ابدا خصيبا

قصور لا يلم بها قصور

ودور بالبدور نفحن طيبا

ولم تسمع اذا ما طفت الا

حماما ساجعا او عندليبا

وبالعرب الكرام الساكنيها

من المجد اكتست بردا قشيبا

وجوه بالمكـــارم مسفـــرات
سمـــت عـــن ان ترى فيها شحـــوبا
اذا عض الزمـــان لهـــم نزيـــلا
مـــن الدهـــراستقادوا ان يتـــوبا .

وتبدو هذه القطعة من اثمن ما في شعر الشاعر مـــن حيث تسجيلها للهجرة العربيـــة تسجيـــلا شعريا يحـــدث الاجيـــال القادمة عمـــا كان للعرب من الشأن في تـــلـــك الجزيرة القصية ، التـــي يبدو جليا من الشعر ان العـــرب فيها كانوا من الكثرة وكان لهم من الاثر بحيث صح للشاعر ان يتحدث عنهم كجزء بارز في تكويـــن سنغافورا الاجتماعي .

وبالرغم من ان الحديث في هذا الشعر عن سنغفورا حديث مجمل عام ولا دلالة فيه علـــى مكان معيـــن وطبيعة معينة ، ولا وصف فيه لتحسس نفســـي مثير ، فان مجرد التأثر بسنغافورا وابراز هذا التأثر في الشعر يكسب هذا الشعـــر طرافة ويجعل منه وثيقة ادبية ثمينـــة . وفي مثل هذه القطعـــة يبرز الفرق ايضا واضحا بين شعر المهجـــر الغربـــي وشعر المهجر الشرقـــي ، فالشعر الغربـــي فـــي مثل هذا الموضوع يعنـــى بالتفاصيل ويحدد لك المكان تحديدا واضحا ويحدثك عـــن كل جزء من اجزائه وكل بقعـــة من بقاعـــه ، في حيـــن ان الحديث هنا اقتصر علـــى الاشارة الـــى السوح الرحيبـــة والقصور والدور ، والسفـــوح الخصيبة ، وعلـــى الدعوة بان يحييها المطر لتظل ابـــدا خصيبة .. ثم انتقل فجاة الـــى العرب الساكنـــي سنغافورا والتباهـــي بهم والاشادة بخلالهم .

واذا كان الامر كذلك فلان ما يثير الشاعر العربي الغربي هو غير ما يثير الشاعر العربي الشرقي ولان ما شاهده مثلا وعاشه جورج صيدح على شواطىء فنزويلا فانطقه بالشعر الجميل . لم يشاهد مثله ولا يمكن ان يشاهد مثله فضلا عن ان يعيشه ابو بكر بن شهاب الفقيه الجليل ، ولان ما تعمد ان يقصده ويستمتع به شاعر المهجر الفنزويلي ، ينهى عن قصده والاستمتاع به شاعر المهجر السنغافوري فجورج صيدح مثلا وهو يشاهد المستحمات العاريات على الشواطىء الامريكية ، كان يرى ان السعي اليهن ومطالعة مشاهدهن والانس بهن ، هو ما يسوقه كل اصيل الى الشاطىء ، لذلك فهو يهتف بمثل هذا الشعر :

اغدي الحمائم باكرت حمامها
في شاطىء فرش العيون امامها
الكاسيات العاريات تؤمه
بغلائل ما غلفت اجسامها
تركت الى عبث النسيم شفوفها
فنضا النسيم عن النجوم غمامها

. اما شاعر سنغافورا ، فان كل ما في الامر انه كان وهو في طريقه الى عمله وعوده من عمله يرى امام عينيه السوح الرحيبة والميادين الطليقة ، ويبصر القصور الشاهقة والمنازل القوراء ، كما يرى السفوح الخصيبة الخضراء يراها من الخارج دون ان يستطلع ما في تلك القصور وما تضمه تلك الدور ، ودون

ان يقصد ماوراءالسوح من مقاصف ومراقص ومشارب ؛ وما على جوانب السفوح من مباهج وملاعب . لذلك جاء حديثه عاما مجملا ، حديث العابر المجل ، لا حديث المستأني المقيم . في حين انه كان في نفس الوقت يحيى حياة العرب هناك ، وينغمس في مجتمعاتهم ويغوص في عيشهم لذلك كان التفصيل في شعره بالحديث عنهم وعن اخلاقهم وشمائلهم . ولم يكن التفصيل في غير ذلك .

اختلاف مواضيع الشعرين

ومن هنا اختلفت مواضيع كل من شعر المهجرين الشرقي والغربي ، فأبو بكر بن شهاب مثلا يصل الى علمه وهو في مهجره طبع كتاب (الاستيعاب) لحافظ المغرب ابي عمر بن عبد البر فيرى في ذلك حدثا يستحق منه النظم ويستحق ان يؤرخه شعرا فيقول :

زحزح البدر نقابه
وبكت عين السحابه
وغدا البلبل يشدو
فوق افنان الخطابه
ودعا داعي المسرا
ت فاسرعنا الاجابه

والدعوة الى المسرات والاسراع الى اجابتها يشترك فيها شعراء المهجرين ، ولكن الذي يختلفون فيه هو نوع تلك المسرات فشاعرنا هنا يعلن ان ما يمكن ان يظنه الناس انه مسرات تغريه ، لا يعنيه في شيء وان مسراته من

نوع خـــاص :

لا الـــى الدنيا ولا للغير شوقا وصبابـــه
بل لنشر العلـــم نرويه ونستصفي لبابـــه

وبعد ان يتحدث عن (الاستيعاب) بمثل قوله :

(اسد الغابـــة) منه مستمد و (الاصابه)

يختم القصيدة ببيتـــن يؤرخ بهمـــا طبع الكتاب :

وببيت كامـــل ار ختـه فاضبط حسابه
رق (الاستيعاب) طبعا واصفا مجد الصحابه (١٣٢٤)

ومن البدهـــي انه عندما يدعو داعـــي المسرات جورج صيدح فيسرع الاجابة ، يكون ذلك الاســـراع لا لكتـــاب (الاستيعاب) ولا لاي كتاب غير الاستيعاب ، وانمـــا الـــى الدنيا والـــى الغيـــد شوقا وصبابة . ويبقـــى بعد ذلـــك عنده مكان لكل الكتب ليقرأها ، لا لينظم فيها الشعر ويؤرخ سنـــة طبعها ، ولالينبذ من اجلها الدنيا والغيد والصبابة .. علـــى ان شاعرنا الناقم علـــى الدنيا والغيد والصبابـــة هو نفسه القائل في ابيات لم تذهبالصنعة احساسها الحي :

ســـت الحســـان لمـــاذا
سمـــاك اهلـــك « تقـــوى »
ففيـــك طـــال اغترابـــي
وكـــادت الـــدار تقـــوى
كـــم صغـــت فيـــك نسيبـــا
ليســـت قوافيـــه تقـــوى
نفســـي فـــداك صلينـــي
فالوصـــل بـــر وتقـــوى .

وهو حتـــى هنا تبرز فيه صفته الفقهية فيأتـــي بالبر والتقـــوى في سياق حديثه الغرامـــي الصريح. علـــى ان ابياته الاتيـــة توضح لنا موقفه الصحيح ، فهو انسان بكل ما في الانسان من عاطفـــة وحاسة وهو شاعر بكل ما في الشاعـــر من شعور ورقة ، لا يستطيـــع الا ان يستجيب للجمـــال ويخشع للحب ، ولكنه في نفس الوقت مقيـــد بسلاسل تربط عاطفتـــه وتحبس شعوره فتتصارع في نفسه شتـــى الاحاسيـــس وتتجاذبه شتـــى الطرق فلا يلبـــث ان يكبت حقيقته ويطفـــىء جذوته معبرا عن ذلك بهـــذا الشعـــــر :

انا من هوى سود الذوائب ذائب
اصلتمودتهـــن في كبـــدي ضـــرم
ولطالمـــادعت المحبـــة والهـــوى
لعناق خرعبة يزول بـــه السقـــم
فيصـــدنـــي عنها مخافة خالقـــي
وعفـــاف نفسي والمروءة والكـــرم
فبقـــرع داعيـــة الهوى وسماع نا
هيـــة التقـــى أرد المنيـــة لا جرم
ما الحب للعشـــاق الا محنـــة
سبق القضاءبها عليهم في القـــدم

حميـــة وطنيـــة

والغربة والبعد عـــن الوطـــن لم تنس الشاعر انـــه ابـــن الجنوب العربـــي وسليل تلـــك الارض الطيبة التـــي

لها عليـــه حق الوفاء فما هو ان يبلغه ان شاعرا هجا (عدن) بشعـــر يقـــول فيـــه :

هـــي عـــدن لكنها من جهنـــم
عندهـــا يمـــرض الصحيح ويسقم

حتى يهـــب مدافعها عن وطنه متحمسا لارضه قـــائـــلا مـــن قصيـــدة :

عدن وهـــي في الحقيقة عـــــدن
جنـــة ازلفـــت لمن سوحـــــها ام
بلـــــد طيـــــب ورب غفـــور
وقصر ســـــرور سكـــانهـــا عـــم
ومغان كـــأنهـــا في جنــــان
وغـــوان كالحور او هـــي انعـــم
حيث يرعـــى الذمام والجار يحمـــى
ويعز القطيـــــن فيـــها ويكـــرم

كيف هم بقايا المهاجريـــن

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربيـــة الى الشـــرق الاقصـــى ، تلك الهجرة التـــي لم تنل من عناية الدارسيـــن ما هـــي خليقة بـــــه .

واذا كان شاعرنا قد تغنـــى ـــ كما راينا فيمـــا تقدم ـــ بالعرب سكان سنغافورا ، واذا كان غيره ربما كان قد تغنى بالعرب سكان غيرها من المهاجر البعيدة ، فكيف حال العرب اليوم في سنغافورا وغير سنغافورا وفي اندونيسيا وغيـــر اندونيسيـــــا ؟

هنا تتحد الهجرتان الغربيـــة والشرقية وتتوافقـــان في ان مصير كل منهمـــا كان مصيرا واحدا . فكما انتهـــى اليه امر المهاجريـــن الـــى امريكا انتهـــى اليـــه امر المهاجرين الـــى جنوبـــي اسيا . ونستطيع ان نقسم بقايا مهاجري جنوبـــي اسيا الـــى ثلاثة اقسام :

قسم ذاب بالكلية في مهجره فلم يعد يربطه بوطنه الاول اية رابطـــة ولم يعد لهمن الماضـــي اية ذكرى . وكـــان العامل الاول في هذا الذوبان الكامل ان اسرا بكاملها هاجرت تدريجيا حتـــى انتهت بمجموعها الـــى المهجر فلم يعـــد لها في موطنها من ترتبط به او تتطلع اليه من اهلها فانغمـــرت في موطنها الجديد انغمارا كليا . ونستطيـــع ان نعد من هذه الاسر اسرة ابـــن احســـن واسرة بارقبة واسرة باركوان واسرة باشيبان التـــي انطـــوت اسمـــاؤها العربيـــة انطواء كاملا واصبحت سلالاتها تحمل الاسمـــاء الاندونيسية ومن آل باشيبان الدكتور علـــي ساسترو اميجو (رئيـــس وزراء سابق) . ومن تلك الاسر يتحدر كل من محمد هاشم اشعري مؤسس حزب نهضة العلماء والدكتور سويونوهادي نوتو من الوزراء السابقيـــن .

وقسم ثان لا يزال يحتفظ من الماضـــي باسم الاســـرة العربـــي وببعض العادات العربيـــة ويحس بانه عربـــي النجار وان كان لا يحســـن النطقباية عبارة عربية .

وقسم ثالث وهو اقل من القليل لا يزال مرتبطا بالوطن العربـــي ويجيد التكلم باللغة العربيـــة ويكتب بها تاريخـــا وادبا . ولا يزال محافظا علـــى تراثه وعاداته .

هذا عـــن المهاجرين الذين اقاموا اقامة نهائية في المهجر

وهنـــاك فريق كان يعود الـــى بلاده ويعاود الحياة فيها(١).

الصحافة العربية في المهجر الاسيوي

كمـــا حفل المهجر الامريكـــي بصحافة عربيـــة كان لها يوما من الايام شأو رفيع ، وكما اخذت تلك الصحافة بالتراجع والتلاشـــي آنا بعد آن حتـــى انتهت او كادت . كذلـــك كان الامر في المهجر الاسيوي فقد صدر فيه العديد مـــن الصحف جرائد ومجلات بلغت احيانا من المنزلة ما جعلها نظيرا لصحف الوطـــن العربـــي في حينها . ولكن علـــى كثرة تلك الصحف لم تصدر منها واحدة يوميـــة علـــى خلاف المهجر الامريكـــي التـــي صدرت فيه اكثر من صحيفة يومية .

واذا كانت الصحافة المهجرية الامريكيـــة قد عرفـــت وارخت فان من حق الصحافة المهجرية الاسيوية علينا ومن حق منشئيها ان نلم بها وبهم هنا المامة ولو قصيرة ففـــي سنغافورا صدرت الصحف العربية الاتية : السلام : اسبوعية رئس تحريرها احمـــد بافقيه ، صوت حضرموت اسبوعية ورئيس تحريرها طه السقاف ، الهدى : اسبوعيـــة رئيس تحريرها عبـــد الوهاب الجيـــلاني .

وفي اندونيسيا صدرت الصحف الاتية : حضرموت : مؤسسها عيدروس المشهور ورئيس تحريرها محمد بـــن هاشم . صدرت اول الامر اسبوعيـــة ثم صارت تصدر مرتين في الاسبوع ، الرابطة : شهرية رئيس تحريرها ، احمـــد

---

١ ـ قال رياض الريس وهو يتحدث عن السكرتير العام لاحد احزاب حضرموت : هو حضرمي من مواليد اندونيسيا .

بن عبد الله السقاف ، المدرسة : نصف شهرية ، الثقافة : نصف شهرية ، الاقبال : اسبوعية رئيس تحريرها محمد بن سالم بارجاء ، القسطاس : اسبوعية رئيس تحريرها عمر مكارم ، الدهناء اسبوعية ، الاحقاف : اسبوعية هذا عدا الصحف الذي مر ذكرها فيما تقدم .

اما اليوم فقد عفى الزمن على تلك الصحف جميعها ولم تبق منها بقية . وانني لاذكر اننا كنا نتلقى في مطالع الشباب بعض تلك الصحف ، وكانت تصل الينا من تلك الارض البعيدة فنرى فيها ادبا رفيعا وشعرا رقيقا وبيانا ناصعا وحكمة اصيلة .

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية المجهولة بل صفحة من تاريخنا جديرة بالحفظ والذكر .

ملحق لمقال الدولة الفاطمية

الصفحة ٦٢

قال الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام :

« وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م ــ ٣٦٥هـ على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، واراق الافتكين صاحب دمشق ماء وجهه ابقاء على ولايته » .

الى ان يقول الدكتور حبشي مستمرا في الحديث عن الفتح البيزنطي :

« على ان موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والامارات الاسلامية لم تلبث ان توقفت منذ اواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين اللذين امدوا الاسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح ...)

وقالت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها : البحرية في مصر الاسلامية :

ان اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطول المصري على سواحله كان له اكبر الاثر في صيانة كيان الدولة الاسلامية عامة ، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقي البحر الابيض المتوسط خاصة ، ذلك ان الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيما بعد استيلائهم على اقريطش ، فعولوا على الهجوم

علـــى اقليـــم الشام لكـــي ينتزعوا بيت المقدس منه . ففي سنـــة ٩٧٥م سار الاسطول الرومـــي الى بلاد الشـــام واستولـــى علـــى كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها ، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا ، الا ان قوات مدينـــة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الاسطول المصري لها(١) من هزيمة الاسطول الرومي ، وبذلك عاد فاشلا الـــى القسطنطينيـــة . وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبـــت سلطانها علـــى قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من اطراف الشام الشماليـــة .

وتقـــول ايضـــا :

... وتحققت مخاوف الفاطميين ، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م الـــى تأليب حكام صور وطرابلس علـــى الفاطميين ومساعدتهم علـــى شق عصا الطاعة عليهم ، ولكن الاسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذيـــن المينائيـــن وانزل بهم هزيمة منكرة .

وتقول ايضا ما خلاصته : ارسل غليوم(٢) الاول صاحب صقلية اسطولا نزل دمياط سنة ١١٥٥م — ٥٥٠هـ فعـــاث فيها فسادا ثم اتجه الـــى تنيس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية . ولكنه سرعـــان ما فر هاربا عندما ظهر له الاسطول المصري (الفاطمي) .

---

١ — Brehier: vie et mort de Byzance, P. 200

٢ — Stevenson: The Crusaders in the east, P. 82

الفهرست

الصفحة

الصفحة